ليانة بدر

عين المرآة

رواية

شرقيات

عين المرآة

عين المرآة

رواية

ليانة بدر

الطبعة الأولى ٢٠٠٠

© حقوق النشر محفوظة لدار شرقيات ٢٠٠٠

دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي

الرقم البريدي ١١١١١

باب اللوق، القاهرة

ت ٣٩٠٢٩١٣ س.ت ٢٦٩١٩٨

لوحة الغلاف: بيكاسو

غلاف وإخراج : ذات حسين

ليانة بدر

عين المرآة

دار شرقيات للنشر والتوزيع

رواية

إلى الذين قدّموا لي كلماتهم وأصواتهم

والذين أمضوا الساعات وهم يحدثونني عمّا جرى لهم.

وإليه، الذي لم يعرف كيف ابتدأت الحكايـــة.

ستسألني الرغبة ذاتـــها، أليس كذلك..

وأنا سأعاود النوم، أرفع اللحاف فوقي وأتلفع بالغطــــاء، أختبيء، فلا تعود تراني. أختفي تحت خيمة النعاس، بعيـــدا.. بعيداً عن منابع الصحو

أهرب منك، وأغفو من جديد، رغم أن الصباح بلـــوري، والشمس مشرقة، ومتلألئة في الخارج. لو أنك طلبــــت شــيئاً آخر، أخف وطأة، وأقل تعباً شيء خفيف، ظريـــف، مســل، عابر كاحتساء الشاي في مقهى، أو رواية نكتة أو طرفة

وأنت تصرّ وتعاود النـــداء، تريدنـــي أن أروي قصــة شهرزاد التي تهدهد الملك الحزين على ركبتها وترنم له حكايـا بلاد العجائب. مع أنك تعرف جيدا أني لســت شـــهرزاد، وأن أعظم عجائب الدنيا هو أنني لا أستطيع الدخول إلى بلادي، أو عبور الأقاليم المحيطة بها لا تتعجب! دعنا نعدها بلدا بلدا.

شيء غريب، أليس كذلك!

غريب مثل طلبك لي، ووعدي لك -قطعته دون دراية بما سيكلفني بأن أروي لك قصة حب.

حب عميق، غميق، مبتهج، ضاحك، راقص، باك، عاقل، مجنون، مندفع، متوازن، جميل، حبيب، وواقعي، وأسطوري أيضا.

قصة حب من منمنمات الذهب، ونقوش الفضة، ومن طين الحكايا. من أحرف وكلمات.

أحصر أفكاري، وأنبش أرجاء ذاكرتي عن بقايا الحكايات، عن أواخر الكلمات، وفتات القصص. قد تعجبك أولا تعجبك قد تهمي، تسيل، تهطل، تتكاثر، جارفة كالسيل كل ما هو في طريقها، مفرخة كالخميرة آلاف الكائنات

أبدأ بحكاية فتاة أو إمرأة. أحكي، ربما عنك وعني، أو عن نساء ورجال لم ألتق بهم أبدا. عن زقاق، عن شارع، عن حي، أو عن مدينة، وربما عن مخيم، عن تل! تل الزعتر مثلا. ها أنت تهز رأسك بلوم مرة أخرى، خائفا من أن تتحول القصة إلى خطاب سياسي كالشعارات التي تعبنا منها ها أجفانك تطرف أمام وجهي بهزء، لتوحي لي أنه لا بد من تطمينك بأنه لن يحدث ما تخشاه. ولكنني مضطرة أن أبدأ من الزعتر، تل الزعتر بالذات، ليس بسبب اسمه الشاعري وحده، وانما لأسباب كثيرة لست مجبرة على كشفها الآن.

علي أن أبدأ الكلام من هناك، بالضبط، رغم أن البطلة لن تحوز اعجابك لخلل في مواصفات تكوينها لأنها بشر،

ونحن جميعنا بشر في النهاية - يجعل من صفاتها إما زائدة عن الحدّ، أو أقل من المعدل الضروري المعتاد. إنها متعلمة وجاهلة، شعبية وذات كبرياء ارستقراطي، خيالية أكثر مما يجب، مثالية بشكل لا يحتمل، وبلهاء بطريقة لا يمكنني وصفها، بل انها تظن نفسها أفضل من غيرها، وهي المختلبة اللب بأفكار صوفية مشوشة جذورها عاطفية حسية، وهي.

ولكن، ها انني أستمتع بالرواية لك. فلماذا أطيل حديثي؟

(١)

الثلاثة، مشوا بخطوات قصيرة، موقعة، على الرصيف الترابي للمدرسة كان صوت محرك سيارة الأجرة المرسيدس لا يزال يهدر في الخلف، وكانت أصوات عصافير مختبئة في أشجار الدوم والصفصاف قرب السور تنقر الآذان.

تقدم الثلاثة إلى الباب الحديدي الأسود، ورفعت الأم يدها اليمنى الى جرس الباب لتضغط عليه طويلا الأم بقامتها القصيرة الممتلئة، وفستانها الديولين الكحلي الذي يبدو رخص قماشه في زمّات خصره العشوائية، وبايشارب يعقد شعرها الى الوراء في ذؤابتين منحدرتين على ظهرها.خطت الفتاة الصغيرة التي تمسك يد الأم اليسرى، بقامتها النحيلة الملمومة داخل بنطلون بنفسجي واسع، وبلوزة حمراء بحرية قديمة، وحذاء بلاستيكي. وتقدم معها الولد ذو الرأس الحليق، الذي يرتدي طقما كاكيا لا يتلاءم مع ضآلة جسمه ذي السنوات السبع.

الثلاثـــــــــة.

ضغطت الأم، فرن الجرس بصوته الواهن البعيد كما لـو كان في بطن جبل عميق. ران على الأشياء كلها صمـــت لـــه طنين مكتوم. توقفت أوراق الشجر عـــن الإرتطـــام ببعضـــها البعض، وبرزت نتوءات السور العالية وكأنــــها بقايـــا قلعـــة خرافية هجرها البشر منذ أزمان. وانتهى الرنين الطويل الـــذي تردد باصرار خافت. صمت مرة واحدة، وتلاه فــــراغ مـــدَو وبدا كما لو أن الأشياء جميعها توقفت عن التململ والحركـــة، واطلاق الأصوات الخفية الشبيهة بذبذبات اشعاع غير مرئـــي. حتى العصافير الغارقة وسط حفيف الأوراق الهرمة، كفت عن الزقزقة، أو هكذا بدا في تلك اللحظة.

فتحت طاقة مربعة صغيرة في الباب الحديدي الأســـود، ومن خلال تصالباب خطوطها المتعامدة، ظهر وجه الراهبـــة كتلة متوردة اللون تطل من ثنايا السواد. لم تكلف نفسها عنـــاء الكلام، وانما رفعت كفها وأطبقت أصابعها كمــــا لـــو كـــانت تسحب خيطا الى الأسفل، مشيرة عليهم بالإنتظار

تجمد الثلاثة في أماكنهم كما لو أن أحدا ســـكب عليـــهم صمغا سحرياً. الأم بحركة أطرافها الثقيلة التي تعكس شيئا من مرض وسوء تغذية، البنت بانطباع الشقاوة الموشـــوم داخـــل عينيها السوداوين. والصبي برأسه المحلوق تماماً، ورصانــــة وجهه الكئيبة المشابهة للرجال، المناقضة لتحفـــزه، وســـرعة حركته.

الثلاثة وقفوا.

أو أن الزمن توقف بالنسبة اليهم، وانتظروا.

خمس دقائق أو أكثر

نصف ساعة أو أقل.

أطلت الكتلة اللحمية المتوردة مرة أخرى، دون انطباع أو ملامح أو كلام، تراجعت دفة الباب الى الخلف، دون صوت، ودون أزيز، وبخفة تناقض كتلته الثقيلة واندفعت صبية الى الطريق. صبية ترتدي ثوبا زهري اللون، وتحمل شنطة بيدها وعاد الباب ورجع الى حيث كان.

تجمدت الصبية في مكانها، أما الثلاثة فهبوا صوبها بيسر وسهولة كريح رخي يحمل سفينة الى البر الفتاة ذات الثوب الزهري، ازدادت تشبثا بحقيبتها، وجديلتاها الغامقتان امتدتا على كتفيها في حركة عصبية تشبه اتساع حدقتيها الداكنتين. مدت الأم كفيها السميكتين، وجذبتها اليها، لفت ساعديها حولها، وعانقتها قبلّتها على الخدين في انجذاب حميمي، فارتجفت الفتاة بحركة لا ارادية، وكأن رطوبة العرق المتصبب من جسم المرأة السمينة زادت من توجسها

قالت الأم:

- يللاّ.

نطّت الفتاة وقرصت أختها الكبيرة في خاصرتها. غاص الألم عميقا في لحمها، فلم تصرخ عائشة، لكنها

عضّت على شفتيها السفلى بسنيها الأماميتين. انطلق الصبي في قفزات مصحوبة بصرخات فجائية، مولولة، يتوهم سامعها انه صراخ من يتلقى صفعات عنيفة غير متوقعة على الوجه. ركض الولد، وصرخ. نطت الفتاة، ومدت يدها الى الأمام وهي تلحق الفتى محاولة القبض عليه. أطبقت الأم بكفها على راحة عائشة، ونظرت باعجاب اليها، حتى صار التأثر شبحا مائيا خفيفا يترقرق داخل حدقتيها، مختلطا مع آخر خيوط الشمس الغاربة عن المنطقة الشرقية لبيروت.

أعادت المرأة عبارتها بصوت ثخين ناتج عن تضخم الغدة الدرقية المزمن، وكثرة السجائر الرخيصة التي تحرق رئتيها

- يا للاّ.

وسمع صوت السيارات في الشارع المجاور، وصخب البشر مع ضجة حركاتهم في منازلهم ومتاجرهم. وعاد صوت العصافير الحاد ليورق مرة أخرى بين أغصان الدوم والصفصاف

ومشوا، الأربعة هذه المرة.

* *

منذ ذلك الحين، افتقدت عائشة غرف الدراسة ذات المقاعد الخشبية المتآكلة الفتيات، الجنينة، المطبخ. رائحة الصابون العنبرية التي تفوح في أرجاء المدرسة وممراتها

الطويلة. حتى الأصوات الجليدية الرقيقة للنساء المرتلات في الأعياد. صارت تهرع الى شنطتها المدسوسة تحت السرير الوحيد في الدار، تفتحها وتخرج الشال الذي تسدله على شعرها عندما تزور الكنيسة. تشتمّ القطعة القماشية الخشنة، كما لو أنها أرض بنفسج عطر يذبل شيئا فشيئا أمام ناظريها.

هناك، يمتد اللعب على قوس الشفق الأحمر قبل الغروب، ويركض مع ضحكات البنات الطليقات في الساحة هناك تقوم بأعمالها فاذا أنجزتها وأنهت دروسها، لا يمنعها أحد من القفز بالحبل، أو التحليق بالأرجوحة الى أبعد مدى ممكن في الفضاء الشفاف تقفز على الحبل وهي تردد: "شبرة، قمرة، شمس، نجوم. والقفز يأخذها الى فوق لتصير شبرة مخملية علىٍ مفرق الشعر، أو قمرا هائما في السموات، أو ربما شمساً أو نجمة تقفز وينط قلبها انفعالا بالحركة الموسيقية البطيئة تسري في دمها تميل أشجار السرو المحيطة بالباحة، تقفز مثلها من تحت الى فوق، ومن فوق الى تحت. تتمايل صفحة السماء اللماعة الزرقاء، وتتأرجح تارة الى اليمين، وتارة الى اليسار.تتحرك المقاعد الخشبية المزروعة في الباحة، وتمشي بين أحواض النباتات والصبار تميد صورة الأرض التي تقف فوقها الفتيات، تميل صعودا وهبوطا وكأنها كفتا ميزان تنزلقان على جانبيها. وعائشة تحب زميلاتها.

تنسى كل ما يزعجها وما يسبب مضايقتها. وكم يختلف الأمر حينما تصحو قبلهن جميعا. تستيقظ في هدأة الفجر،

ترتدي ثيابها، تغسل وجهها وتمشط شعرها. تعرج على غرفة جانبية تحت سلم الطابق الأول. تدفع بابها الخشبي المغلق على المكانس والمماسح والسطول المعدنية. تأخذ عدة التنظيف، وتجول بين الغرف والزوايا تذهب الفتيات الى المغاسل والحمامات ويتركن خلفهن الفوضى الجهنمية تدخل عائشة الغرف واحدة واحدة. تفتح الأباجورات ودرفات النوافذ على سعتها، ترتب الأسرّة، وتضبط البطانيات المكومة بفوضى على الشراشف تسحب المخدات وتضرب عليها بوقع موزون لكي تعادل توزيع القطن فيها، ثم تعيد الحاجيات والملابس المتناثرة الى الخزائن. ترجع الفتيات الى الغرفة فلا يجدن عائشة وانما يطالعن آثارها في المكان. ينادينها، ويمازحنها، ويطرقن أكفهن بدعابة على كتفها أو مؤخرة عنقها اذا مرت بهن :"آيشا ما شيري. يخاطبنها برقة ملحوظة كما لو كن ينادين على مربياتهن في بيوتهن، أو يثنين على كائنة لا يختلفن على فرادتها يعجبن بقدرتها على تحمل الشغل وترتيب الأشياء الجامدة الكئيبة ثم، كيف يمكنها أن تكنس بخفة ورشاقة دون أن تلتوي فقرات ظهرها أثناء انحنائها أو آآه، بل كيف تستطيع لمس المياه الصقيعية التي تشق الزجاج كالمنشار دون أن يرتجف جسدها أو يهتز.

كن يسألنها وهي لا ترد. لأن الراهبات علّمنها أنه من الأفضل لها ألاّ تحكي، وألاّ تحاول مخاطبة فتيات العوائل الكبيرة. أسماء، وأسماء تطنطن الفتيات بها طيلة الوقت، وتطرح للتداول وتناقل الأخبار على الطاولة المستطيلة التي

تفطر الراهبات حولها. أخبار العائلات. زيجاتها. حوادث طلاقها وخصوماتها تتحول الى ما يشبه فتات الكعك الذي تغمسه "الريسة" في الشاي، بينما تدور الأخبار على شفاههن البيضاء بتمتمة وسرعة. وللمرة العاشرة بعد الألف، أو العشرين، تبادرها الراهبات كلما انتبهن الى أنها تحوم قريبا من المكان

ـ ايشا إنت بيشتغل هوني وبيتعلّمْ كمان. لا تحكي مع البنات، ولا تعيدي شو سمعت.

وعائشة لا تتكلم ولا تحكي، تدير ظهرها حاملة فوطتها المبتلة الى بقعة قصية في غرفة الطعام ذات البلاط القرميدي، مبتعدة بتلقائية كما فعلت دائما خلال سبع سنين تعودت فيها على ما حولها. المدرسة.توبيخ الراهبات بين الحين والحين. قلق الحضور الغامض مع الفتيات رنين الأجراس المطمئن. كل شيء. كل شيء حتى غيابها عن أهلها منذ أن تركتها الأم في عهدة الراهبات لدى دخولها ببطاقة "الأونروا" الى المستشفى لإجراء عملية جراحية كأنها صارت شريكة هاته النسوة المتأملات، تتسرب ضغائن الحياة اليومية الى قلوبهن، ويحرصن على تغطيتها بقناع من الصمت والصفاء نساء يتنقلن في خفة الحمام الأبيض دون أن يصدر عن كعوبهن أي صوت سوى خشخشة مسابحهن الطويلة التي تتدلى من أحزمتهن. بل ان الأخت ماري جعلت لها حصالة فخارية، تسقط فيها بين الحين والآخر بعض النقود. وعلمتها كيف تصلي مثلهن تماما تغتسل، وتصلح من هندامها، ثم تذهب الى الكنيسة لتركع أمام الإيقونات.

ـ دخيلك يا نبي.

تقول عائشة، فتندهش الأخت ماري، وتخبرها مبتسمة بغموض:

- مِش يا نبي. قولي دخيلك يا مسيح. يا يسوع.

دخيلك يا مسيح، وهي تتأمله بجذل. الفتى الوسيم الشاحب البشرة، الباكي النظرات.تتلون الأشواك التي تحيط برأسه كما لو أنها باقة ورد ويظل معلقا على خشب الصليب ولا يد تمتد وتنزله الى الأرض كي يستريح. يظل سارحا في البعيد، جامد الملامح، وكأنه لا يرى الا ذاته والمأساة. دخيلك يا مسيح، كل هاته النسوة يصلين لك. يعزفن موسيقى الأرغن. يتضرعن جاثيات على الرخام الأبيض البارد وأنت لا تهتز كأنك لا ترى "العدرا" الحزينة وهي تنقل نظرتها من السقف المزخرف اليهن. تعجز أحيانا عن اختزان البكاء في قلبها، فتنقلب دموعها نقطا من زيت الزيتون على وجنتي ايقونتها ذات مرة، التقت نظراتها بعيني عائشة في غيبوبة التراتيل، فارتجفت الفتاة واغرورقت عيناها حزنا على المرأة المقدسة التي تعذبت كثيرا. ستنا مريم. طقطقت حبات المسبحة بين أصابع عائشة وهي تتلو صلواتها أمام المذبح. دخيلك يا ستنا مريم. دخيلك.اشفقي علينا

كانت عائشة تستعيد رائحة الهواء الراكد في بهو الكنيسة، تختلط به روائح شحم الشموع النحيلة المضاءة على المذبح، وهي تطوي شالها متقصدة أن لا ينتبه اليها أحد من أهل البيت.

الباص. ربما لو لم تحدث تلك المذبحة لما سحبوها من المدرسة. أمها كانت تقول "الباص وهي تغمض وجهها كمن يتقي ضربة شمس لاهبة على جبينه. تمد طرف لسانها المشقق لتمسح به شفتيها البيضاوين، وتلهث وهي تحرك أصابع يدها اليسرى وكأنها تنفض غباراً وهمياً عن صدر ثوبها الفضفاض.

- الباص. يا دلّي. يا كشلّي. شوها المصيبة السودا! يا حرام الشوم، شو عملوا الشباب والأولاد ليقتلوهم! عشرين، يختي، عشرين. هيك قال أبوكي، والا هجموا عليهم، طا طا.

تكبس الأم على لسانها وتضغط على أسنانها، وهي توجه يديها الى اليمين والشمال كمن يحمل رشاشا وهميا، وتتابع والذعر ينعكس على صفحة وجهها

أصبحنا مشردين من غير وطن. لا كرامة، ولا بيت عرضنا راح من زمان، وهلأ أولادنا عم بيموتوا. الباص. الباص. الباص.

يا ويلي على بختنا الأسود.

لم تكن تحضر الى بيب أهلها الا ثلاث مرات كل عام، تعود بعدها الى المدرسة وزكام الكاز المنبعث من "البابور يلبد أنفها بخيوط من المخاط المختلط بالشحار الأسود. وعندهم كان منام الكبريت الأصفر يراودها كلما سرحت شعرها. تميل

برأسها الى أحد الجانبين، فيلامس شعرها المسبل خدها، ويتهدل بين الكتف والرقبة تمسك المشط العظمي محركة اياه على جلدة رأسها فيراودها المنام توا. تتوقف عن تسريح شعرها، تمد يدها الى المشط وتلتقط عن حوافه كتلاً قطنية، وغباراً من أنسجة الفرش والحرامات، ومن الغبار الترابي والعواصف الدخانية التي تجلبها ماكينات المصانع المتحلقة حول المخيم.

الحلم ! حلم. الكبريت الأصفر يناوشها، يهجم عليها في المنام كي يطمرها داخل دوامات هوائية عكرة. ترى شظاياه المتفحمة على بيوت الصفيح، والغرف الإسمنتية، وعلى أسطحة العشش الحديدية الصدئة. الخراب من حولها. وهي، وحدها، تنفض المادة الحارقة عن جلدها. هي وحدها، الدوامة تأخذها بعيداً، تجرفها، الى هاوية من الفراغ. الرمال المتحركة تحفر استدارات تجذبها الى الأسفل. رمال كبريتية تسد أنفها وفمها وعينيها تسقط خصلات شعرها على الأرض بين قدميها.

كان ذلك يعيد لها منظر احتراق مصنع الكبريت بعد هجوم الجيش على المخيم في أيار. عام ١٩٧٣ احترق معمل الكبريت في أعقاب الإشتباكات بين الجيش والمخيم، ولم تهتم السلطات باخماده لأسباب مجهولة. لم يعرف أحد سبب حريقه، ولا سبب امتناع الإطفائية عن القدوم. غطى الرماد الأصفر الأرض كلها. والتمع مثل يراعات هوجاء على الأسطحة أثناء الليل. ربض على صدور الناس في النهار يشكون أوجاعهم

منه رأت عائشة المعمل انذاك بخيوط الدخان الكثيف الطالع منه. شاهدت واجهته الخربة وبناءه المتآكل، واشتمت رائحته الجهنمية. ولفترة طويلة بعدها غطى الكبريت بذراته الملتهبة كل شيء. السماء والوجوه. الشفاه والشعور الأيدي. الطرقات.الأقدام.المنعرجات ريش الدجاج. أجهزة الراديو والحنفيات الزغب الخفيف على الأجساد الفتية الزريعة قنوات المجاري. الطريق الصاعد الى المستوصف. السماء الأرض. وكل شيء بينهما حتى أحلامها.

الباص ! الباص!

يا ويلي على بختي الأسود.

لم تعرف عائشة هذه المرة. لم تعرف، الى أن رأت أعلام الحداد السوداء على سقوف بيوت كثيرة في المخيم. سمعت أنين النساء ونحيب الأطفال عبر جميع الطرقات التي مرت بها. وشاهدت وجوه النساء التي لم تكن تستوقفها من قبل وهي تنوء تحت ثقل لكمة هائلة بدّلت الملامح، وشوهت العظام، وغيّرت أشكالها المعتادة لتطفح تعاسة وغضبا.

"ولو! شو الموضوع" وقفت الجارات على الأبواب والأسطحة وهن يحملن أولادهن، أو يفرغن من نشر الغسيل. على وجوههن نظرات تشف عن الوجوم والحسرة. حتى أصواتهن السريعة الموقوفة وهن يدحرجنها بينهن في غبش الغسق، تداعت متحولة الى ما يشبه الصدى الخافت.

ظلت أمها تؤكد عليها منذ حضورها:

- عرفت يختي أن الإشتباكات كانت شغالة قبل ما تيجي. ايه والله. أيام والقيامة قايمة مثل جهنم الحمرا.

وعائشة تسرح شعرها، ورؤوس أصابعها تتابع قطف أزهار الغبار الشريرة عن رأسها.تجدل ضفائرها وتعزّي نفسها بأنها ستعود الى دراستها، تسرح. وتغوص بنظراتها المستغرقة الى الأرض الإسمنتية، شاقة الطريق الى باحة المدرسة، حيث الفتيات يخرجن من الصفوف الى اللعب والضحكات.

يا الله. على الأقل. قديما في الإجازات الماضية، كانت تفكر، تنتظر، تتوقع أن تنهي دراستها وتصير معلمة "قد الدنيا" تشتغل في روضة الأطفال الملحقة بالمدرسة، تقبض أجرها، وتأمل في أن تسنح لها الفرصة لكي تتفاهم مع الراهبات على سكناها عندهن. انها لا تحب هنا. أن تقيم. أن تبقى. تشمئز وتخاف من كل وشوشة بين أبيها وأمها كأن الجميع يتآمر عليها كأنها هي والراهبات مسؤولات عن حادثة الباص. يستبقونها في البيت، ويطرحونها جثة من النكد والحصر بينما الفتيات لا زلن يركضن في الساحة وراء آمالهن التي تطير في الفضاء فراشات بيضاء. يسعين وراء ألعابهن، وراء شجرة الأسرار تنفض وريقاتها الفضية على أكتافهن.

كانت لديهن أسرار وأسـرار. يصرّخـن بـها أمامـها، وأخرى يحرصن على التهامس بها، واستبعادها عنها. لطالمـا أصغت اليهن ذاهلة اللب، مختلبة القلب، مخفية دهشتها تحـت درع من الصمت وادعاء الجهل. حكين أشياء تفـوق الخيـال والتصور أشياء لا يكاد يصدقها انسان. رحلات الـى جميـع أنحاء العالم تحوّل المسافات الى سلة قش يحزمـها الإنسـان على ظهره ويمشي. جزر ترفرف عصافير الفـردوس علـى أشجارها. بواخر عملاقة تمخر المحيطات مثل أرض عائمـة. سحرة يبتلعون زجاجاً وقطعاً معدنيـة مدببـة كأنـها كـرز كمثرى.محطات قطارات يخرج الناس بـالآلاف مـن بطنـها المحفور تحت الأرض. حمم وبراكين تغطـي مدنـا كاملـة بالرماد والنسيان. ماعز لها ذنب ثور عطور ثمينة تسـتخرج من بطون الحيتان والغزلان. وفقاعات ملونـة لا تندلـق فـي الكؤوس البلورية الا لتفرغ من جديد. كان ذلـك كلـه فـوق التصور. موجود وغير موجود بالنسبة لها لا يهمـها إن رأت مثله أم لم تر، إن قابلت أم لم تقابل. المهم أنه يسليها، يملأهـا غبطة وسروراً، فتعيد تذكره مراراً مثل ملبسة حامض حلـو يمتصها الفم بتمهل لأطول فترة ممكنة كيلا تذوب دفعة واحدة.

كانت هناك قصص وحكايات، وأخبار اجتذبنها لسماعها، ووجوه غامضة لأبطال ساحرين، تكتمن في وصفها أو التلميح عنها كانت هناك أشياء لم يذكرنها أبدا، لكنها عرفتها وحدهـا جسدها قال، وهي التي سمعت. جسدها حكـى، وهـي التـي أصغت الى ما تلاه عليها من كلام.

(٢)

وعائشة تعيد إمرار المشط بحركات رتيبة، يائسة، محاولة قطف حبيبات الغبار المندسة بين منابت شعرها ترفع المشط العريض، وتلتقط عن حوافه كتلا دخانية اللون، ذرات متجمعة من غبار المخيم الذي لا يتوقف الا لينعقد مرة أخرى. تراب داكن لا يكف عن التحليق في السماء الضيقة، ممتدا على شكل دوامات أذرعتها شظايا نارية فوق البيوت. في المنام.. كانت الأسطحة تختفي أمام رعبها، فتبقى وحدها. أما حين تصحو وتفتح عينيها، فقد كانت تشهد العراء الذي غرزت فيه بيوت البؤس كأشرعة وصوار ثبتت على حافة خليج صحراوي، جاعلة المخيم المستند الى مرتفع جبلي، شبيهاً برجل أحدب اضطر لأن يقعي على أطراف بيروت حيث نما، ملقيا بجذعه الى الأسفل، غائصاً بقدميه في الدكوانة وسن الفيل المحتشد بالفيلات الفاخرة والبيوت البديعة ذات الشرفات الخشبية المصنوعة من "الباركيه" اللامع.

جسدها قال وهي التي اضطربت بعدها ارتجفت أمام نظرات أمها المستطلعة تجوسها شبرا شبرا، وتحديق أبيها الفضولي الذي ما انفك يتفرس فيها بنظراته المباشرة. صارت مضطرة لأن تحني ظهرها الى الأمام مخفية صدرها النامي حين تمشي، متجاهلة تلميحات أمها السوقية في البدء، تفتح صدرها برعمين صغيرين. انتشرت دائرة بنية تميل الى الوردي في نتوء يصنع جبلا صغيرا على كل نهد، اتسعت، وتحولت الى هالة شوكولاتية اللون تتوسطها حلمة صغيرة. داخل الصدر صار مركز الورم في كل منهما الى ألم شديد يضغط على قلبها، اذا اصطدمت أثناء ركضها أو مسيرها بشيء قاس. هناك، كبرت حصاتان ونمتا. تمهلتا، واستغرقتا وقتا في البروز المتئد الى الخارج. نهدتا،وصارتا تدبين بلفتان النظر، الأخت ماري انتبهت، وقالت:

ـ كبرت يا بنتي.

وأعطتها حمالة صدر لترتديها حمالة من قماش قطني متين، مدروزة بخيوط دائرية من كل جانب، تحتوي الصدر الذي ينط ويبرز تكوره كلما تحركت أو انحنت الى الأسفل. عضو جديد دون فائدة، يثير فيها الخجل والإحساس العميق بأنه زائد ودون معنى.

الأخت ماري ! ولو ! لو انها كانت أهلها وأراحتها من هذا العذاب أمها التي لا تنقطع سيرة العريس المنتظر عن لسانها تتباهى بها أمام الجارات بنتي، بنتي المتعلمة، تقول

دون أن تتعب.تهجم عليها بين الحين والآخر لتقبيلها، غـــامرة اياها برائحة عرقها العطنة، وبغمامة دخان سجائرها الرديئـــة. أختها الطائشة ابتسام التي لا تعرف الطريـــق المؤديـــة الـــى البيت، تقضي جل وقتها في أزقة المخيم. الحصى في يديـــها، والكلمات السوقية لا تغادر عباراتها لا يعرف الماء سبيله الى وجهها، ولا المشط طريقا الى كباشها المنبوش. الحافية دومـــا، تخوض في الوحل في عز الشتاء دون اكتراث، وكأن أســـفل ساقيها نعل حذاء مطاطي. ثم يا عيني على الصبي الأزعر، يكّن ولا يهدأ. يحمل النقيفة ويظل ســـارحا فـــي الحـــرش أو الخلاء، متتبعا مشاكل الأولاد وخناقاتهم. أما الرجل الغريـــب! السيد ! أبوها فيا عين ويا ليل. انها لا تدري أية صدفة جعلـت منه والدها، وجعلتها ابنته.فهي لا تستغرب أن يكـــون زوجـــا لهذه المرأة البطيئة الحركة، الثقيلة الهمة ومن الممكن أيضـــا، أن يكون أبا لأولاده، لكن! لكنها هي.

تزداد كراهيته في قلبها، تلتصق بجدران نفسها المشـمئزة مثل الشحبار الأسود كل صباح، ومنذ شعاع الشـــمس يصحو أهل البيت على شتائمه الزاعقة وهـــو يطـــالب أمـــها بمصروف تنقلاته وجلوسه في المقاهي.

هاتــــي.

والأم تفتح عينيها المنتفختين ولا تلحق أن تفركهما لـترى ما حولها، لكن نداء صارخا آخر لا يلبث أن يهاجمها :

ـ هاتي يا مرَة.

تكح، وتسرع الى سيجارة على الريق. تأخذ الشفَة الأولى بيد، وتناوله الليرات باليد الأخرى وهي صامتة. وعائشة تسألها كل يوم:

ـ طول الوقت هاتي. هاتي. ليش تعطيه عرق جبينك وهو قاعد لا شغلة ولا عملة ؟

فتجيبها الأم دون تأثر تخبرها باعتيادية بالغة:

ـ حتى أكسر الشر يا بنتي. شو بدي أعمل !! يضربني والاّ أعطيه ؟ لأ أعطيه أحسن.

والسيد يدير ظهره وينزل الى الداكونة لا همّ دنيا ولا غم آخرة. يخرج بقامته الربعة، القوية محافظاً على أساس لحية ينميها دون أن يسمح لها بأن تطول. فكأنه يحاول الإيحاء بأن شعيراتها القصيرة البيضاء الخشنة مثل أشواك الصبير لم تحلق عمداً بسبب الوقار وجلال السن. والسيد ذو الفم الكبير والشفتين المتهدلتين له ضحكة شرسة لا تهدر إلا في الأوقات غير المتوقعة. السيد يضع يديه في جيبي جاكيتته الفاتحة اللون صيفاً، وفي طيات معطفه البالي شتاء، حين يرتدي بيريه صوفية تضفي على مظهره المتصعلك ترتيباً وقيافة فوق طاقة أناقته المتواضعة. السيد، يدير ظهره ويمضي، لا يسأل عن الدار وأهلها لا يهتز حتى لو انقلبت الدنيا عاليها سافلها، ولا يهتم الا بابنه الكبير، الولد الغائب ابدا، في مكاتب بيروت أو في دورات عسكرية في الجنوب.

والسيد! آه من السيد من إخوتها منهم جميعا. كل ذلك يسبب لها الدوار، يطحن شيئاً مرا في معدتها، ويشرئب حموضة نارية في حلقها.

كانت آلام جوفها تذكّرها بذلك اليوم المشؤوم، حين فوجئت بتفكك وخلخلة يعتريان كل أنحاء جسدها استيقظت في المدرسة على غثيان يتقلب في الأحشاء، وعلى مغص يقلَص بطنها.كأن مسمارا محمى يثقب أعضاءها، دافعا بمشرطه الجارح بينها طالعها في المرآة فوق مغسلة الحمام اصفرار غير معتاد في وجهها. الوجه، أصفر مبيض. تحت العينين بقعتان بنفسجيتان اختلف لونهما عن لون البشرة. في الحمام، ازدادت دهشتها، متحولَة الى رجفة عنيفة تصطك لها الركبتان. بقعة! قطعة متخثرة من الدم تشبه باسودادها تفل القهوة. رائحة نفاذة تثير الإشمئزاز نقطة سوداء. أرعبتها كبرت وصارت تلطخ ما حولها كلما أزالت آثارها يتكرر نزولها فكرت، فيمن؟؟.من الذي تستطيع أن تحكي له كي تطمئن على نفسها الأخت ماري؟؟.يكفي فضيحة السوتيان. انها لن تجرؤ على أن تقول أمامها ولو كلمة واحدة.

ركضت عائشة الى طباخة كهلة كانت ودودة معها وهناك في زاوية المطبخ أخبرتها، وفيما شعطة النيران الحامية تلذع وجهها المصفر، ورائحة بخار مرقة البندورة تتصاعد بعبقها الحامض مختلطة مع رائحة البصل المقلي الدافئة، أخبرتها وهي توشك أن تطق خجلا رأسها مطرق الى

الأرض وكأنها تنتظر الحكم النهائي في معصية أو جريمة ارتكبتها ضحكت الطباخة بأسنانها الكبيرة، وغمزتها بعينيها الضيقتين. ربتت على كتفها وقالت:

- هذا شي طبيعي يا عائشة يصير مع كل النسوان. انشالله نفرح فيك ونجوزك.

وعائشة ترتعد، تصطك أسنانها كأنها في حاكورة ثلجية، رغم نار الفرن التي تسبب التعرق الغزير تتساءل بينها وبين نفسها بوهن: ما علاقة الزواج بما يجري معها وما هو الذي يصير مع كل النسوان؟؟. ولوهلة، يمحّي حس الرعب الذي جفف ريقها، ويتردد داخلها صدى خافت من الكبرياء الخفي والزهو المكتوم. كل النسوان. يعني أنني لست فتاة صغيرة، بل نسوان.

ثم ياللمصيبة لا يمكن. معها هي. هي بالذات شيء لا تريده. النسوان يتحملن أما هي ، فما ذنبها؟

ومعها هي، يحدث أن تبدأ في تمييز الرائحة الغامضة التي تتبخر من مزق الفوط التي أعطتها الطباخة لها الفوط. ورائحة الدماء المتجمدة مثل حبيبات البرغل وهي تنحل في مجرى المياه الباردة.مياه صقيعية لا يستخدمها سواها والطباخات في الفناء الخلفي للمدرسة والرائحة حمر سوداء تشبه بخار الحديد المنصهر مع الحوامض العضوية ائحة أذى كامن، تجتافها معدتها، وترفضها بذلك التشنج المرافق لغثيانها، لتبدأ من بعد في مراقبة البنات وفوطين

الورقية الصحية التي يجلبنها بنقود أهاليـــهن. خفـــة نسـيجها القطني الأبيض وهن يسحبنها من أدراجهن. كل ذلك كان يعيد لها شعور الثقل الواهن الذي يغزو جسدها كلما حملـــت تلــك الأقمشة المرنخة ببقايا الدماء، مثل كتل لحمية سقطت عنـــوة من جسدها، والتصقت بين ساقيها

لكنها في ذلك اليوم الذي أتوا فيه لإصطحابها، لم يخطــر ببالها، ولا للحظة واحدة، أنهم سوف يستبقونها لديهم، وأنـــهم لن يسمحوا لها بالعودة الى المدرسة. في ذلك اليوم الذي أتـــوا فيه، أنهت عائشة تنظيف طابق المنامة، ونزلت الى المطبـــخ للإفطار. دخلت مسرعة وكأنها تنساق وراء عبير غامض مــن رائحة الدفء، ووهج النيران الزرقاء، والخبز المنتفخ باللباب. كانت الطباخات قد سبقنها الى الجلوس على الطاولة المظللـــة بالقمع المعدني المخصص لإمتصاص الدخان وأبخرة الطعـــام. أفطرت "عروسة لبنة" مع الشاي. لذعتها سخونة السائل الـذي انحلّ فيه طعم الكوب البلاستيكي. احترق طرف لسانها وهـــي ترتشف بلهفة الريق الجاف صباحا جرعة من الكـــأس الحـــار المترجرج بين يديها قالت الطباخة الممصوصة ذات الصـــوت الذي يثغو مثل سخلة

ــ سألوا عنك. روحي للراهبة الكبيرة.

ــ ليش

ــ ما بعرف روحي وشوفي.

بدت الحيرة على وجهها الآن أم بعـــد لَـم الصحـــون. نبرت طباخة أخرى وكأنها عرفت ما يدور بفكرها.

لميّها هلأ. قبل ما تروحي.

كل يوم تجمع الصحون والأكواب الفارغة. تلف وتجول حول الطاولات التي تزدحم فوقها الملاعق والأكواب. تكوم على صينية كبيرة ما تحمله، ثم تفرغه على دكة النافذة المنتفخة مثل لسان أبله بين المطبخ وقاعة الطعام. كل يوم، كل يوم. تسير بتوازن هادىء، وتعرف أين تضع خطاها وكيف تنقلها بخفة بين المقاعد والفسحات التي تفصل الطاولات عن بعضها بعضا لكنها تتعثر هذا النهار ترتطم قدماها بأرجل الكراسي، تنط الصينية بين يديها ويخفق قلبها انفعالا تسمع دقاته في أذنيها بطيئة، ومنخفضة لماذا تريدها الريسة؟ هل أذنبت في شيء ؟ هل اشتكى منها أحد؟ دخيلك يا يسوع، ماذا فعلت لهم، وماذا يريدون مني؟

طاولات طاولات، وعشرات الكراسي المتحلقة حولها، وهي تتساءل هل أخطأت في عملها والاّ فلِم تناديها الريسة؟ أنهت مسح الطاولات واحدة فواحدة، محاولة اغلاق خياشيمها عن رائحة الزنخ المتبقية من البيض المقلي الملتصق بسطوحها جاهدة لقهر القلق الذي طفا بغتة من قعر نفسها الى السطح، مبددا سكينة جسدها المجتذب الى دفء المطبخ.

الى الريّسة تمشي وتسمع ضربات قلبها وكأنه يضخ في أذنيها الممراب الطويلة. الأفنية الضيقة، الممطوطة مثل هيكل ثعباني يوصل ذيله الى مكتب الريّسة الرائحة العائمة المتخلفة عن الليزول المطهر ومياه المسح في سطول النساء المنظفات.

حركة الضغط البسيطة التي أطبقت بها على مقبـــض البـــاب لتفتحه الحركة ذاتها وهي تغلقه، ثم تستدير مولية ظهرها الـى الجزء الآخر من المدرسة كي تحزم أغراضها القليلة

الريسة ! ينبعث من ثوبها الكهنوتي شيء مختلف كرائحة قارسة لا تحتمل، هو من صميم مرور الزمن الســاكن علــى العفش الثقيل في الحجرة بندول الساعة في حركته المعدنيـــة اللامنتهية.الصليب على الجدار يتعلق عليه الفـــادي بمســامير غليظة تثير عنفا جموحا وذلك الذعر الذي يحس بـــه المــرء أمام استكانة التمثال واطراقته المسالمة رغم وحشية الصلــب يدا الريّسة الشمعيتان في شعاع الضوء الذي تســكبه النــافذة العالية في حزمة مخروطية الشكل. لزوجة الضوء الشحيح فـي الغرفة رغم الربيع في الخارج. وقبعة رأسها العجوز المنشــاة مثل شراع سفينة محطمة غارزة علـــى شــاطىء مــهجور وبأسنانها الناصعة المتضاربة مع لثتها المهترئـــة، وبنتـــوءات التجاعيد المحيطة بفكها مشكلة قناع العزلة القارســـة، نبســـ الريّسة:

- روحي ضبّي تيابك إيشـــه، وانطـــري أهلـــك تيجـــوا ياخدوك. بس لا تنسينا وتنسي العدرا اللي ربتّك عنّا.

لم تجرؤ عائشة على أن تسأل، ولا كلمة واحدة.

وفيما بعد أخبرت الأم عائشة

كانت حادثة الباص، وخافت الأم أن تخبر الرئيسة بـــأن هذه الحادثة هي السبب اتصلت هاتفيا بها.

ـ بنتي. بنتي. بدي بنتي.

ـ ليش بدك بنتك يا مدام؟

ـ بدي أرجّعها عالبيت.

ـ ليش شو السيرة يا مدام؟

ـ والله لا سيرة ولا ما يحزنون. أبوها بدو إنها تقعد بالبيت، وهادا كل شيء.

ـ وانتِ يا مدام، هايْدَا رأيك كمان؟

ـ والله هاي الأحوال. أبوها يريد هيك البنت صارت صبية ولازم نشوف مستقبلها.

والثلاثة.. الأربعة، مشوا بخطوات قصيرة، موقعة، خارج الرصيف الترابي للمدرسة.

وما زالت الحياة تجري كالعادة. فعائشة لا تغادر البيت الا لماما وخطواتها البطيئة، المثقلة لا تصل الى أبعد من طرف الزقاق حيث الدكان الذي يبتاعون منه حفنات من الشاي، وبعض السكر لم يطالبها أحد بأن تذهب الى أبعد من هذا، فالسيد يخرج الى أصحابه، والأم الى الشقق التي تعمل بها في الدكوانة، والبوشرية، والاشرفية واخوتها اما الى مدارس الأونروا أو حارات المخيم.

ما كان أجمل الطمأنينة التي تعاودها أثناء غيابهم عن الدار وما أحلى الصمت والسكينة يلفانها داخل قشرة عزلتها الرهيفة لدى اختفاء أصواتهم وحركاتهم. كأن رذاذا هانئا من المطر الربيعي يغسل عنها التعب والإرهاق، ينفض عن جسدها أحمال التوتر لشدة توبيخهم لها، على ما تعرفه وما تعرفه.وينهض بسلسلة ظهرها المتقوسة الى مكانها الصحيح، فتنطلق الى الحركة، تقفز، تنط، وتركض داخل الغرفة الضيقة ترقص اذا ما صادفت في المذياع أغنيات تحبها تفرك القرص.وتزيح المؤشر بسرعة ولهفة باحثة عن الأغاني الخفيفة المرحة إنها تكره الطرب الشرقي الثقيل، وتنفر من كل ما يذكرها بهم. أم كلثوم تشبه امرأة بدينة لا تكف عن الشكوى والتأوه، والسيد يطرب لكل أنّة تنبس بها تكرههم جميعا عدا فيروز تفتش عنها، وتستمع اليها باحساس يشبه نداوة الرخام البارد، تبترد عروقها برطوبته عندما تقف أمام مذبح الكنيسة، مندمجة في التراتيل الموجهة الى الطفل الوديع في حضن أمه، تحب هذه المغنية، وتتخيلها صبية في مثل عمرها. بنت وحيدة، تقف كل يوم على مفترق أحد الطرق، سائلة المارة والعابرين عن حبيبها الذي اختفى دون أن يسأل عنها.حبيب خفي ليس له ملامح محددة، ولكنه يلهمها الأغنيات، ويملأ حياتها بذكرياته. صوتها يشبه زهر الوزال الأصفر حين يعرّش على السياج، وتمتد كرياته الناعمة في كل اتجاه، فاذا حاولت قطفه هر بين يديها، والتصق مسحوقه الطري بأصابعها، وكأنه بقايا نجم يواصل احتراقه لحظة هبوطه من السماء الى الأرض.

غيابهم يجعلها دودة قز تغزل خيوط شرنقتها على مــهل. تحوك وحدتها بتمهل ولذة. يكر خيــط أحلامــها الحريــري، يأخذها الى مكان فسيح، تتغير أبعاده، ويظل مجاورا للبحــر مكان ما، بل أمكنة عديدة، لا تعرف أين هي أو كيف ســتصل اليها. لكنها متأكدة أنها لا بد واصلة في يوم ما.تظل في الــدار وحدها وتفتح الراديو على الأغنيات التي تحبها، ولا تصغــي الى الأخبار السياسية التي لا تهمها تعمل على مهل مســتمتعة بوحدتها، وكأنها تتذوق طعما فريدا لا يمكن لغيرها التوصــل الى سر نكهته تشطف الأرض، تمسحها بالماء والكاز، وتعاود تلميع زجاج الفترين المكســور، محــاذرة المســاس بشــريط الكهرباء اللاصــق الــذي يلــم أجــزاءه الآيلــة للســقوط. تعصر الفوطة وتحاول فرك آثار اسوداد قديــم علــى خشــب الخزانة ذات الضلفتين، تلصق يدها الندية بالقماشة وتضغــط بكل قوتها كي تحف البقعة، محركة يدها الى اليميــن، والــى الشمال، فلا تصحو من السهو الا على وهج الضوء الســاقط من النافذة على عينيها تكتشف على حين غرة تراكم شــوقها الى الضوء والشمس، فتترك كل مابيدها وتصعد الى الســطح. تفرش العدس على صينية الصاج، وتتنعم بالنور المتدفق مــن الشمس يملأ جوانحها، ويحيطها من كل الجهات يبدأ الــدفء في اختراق مسامها، ومساحات جسدها الــذي ســئم الظــلال. الدفء يسري اليها عبر الهواء، ومن خلال الباطون الخشــن الذي يحتك بأسفل جذعها وفخذيــها كلمــا حركــت ســاقيها المتربعتين على الأرضية في عزلتها تلك كان كل ما تفعلــه

يمتعها ويضفي على روحها الإنتعاش. تنقي العدس المجروش بالحرص المبتهج لمن يقطف أزهار حديقة وتسقي الدالية المعرشة على السطح، وتتكاب الفل والحبق، كمن يروي طيورا خضراء هابطة من الفردوس.

لكن السيد لا يلبث ان يأتي الى البيت، فيحط ثقل هائل على صدرها، كحجر لا يريم. يطأ الحصيرة بحذائه ولا يخلعه حسب المألوف، ويجلس في صدر الغرفة على الطراحة، مسندا كوعه الأيسر الى المخدة، سادرا في تأملها بنظرات جانبية مدققة، وهو يمج أنفاس السجائر بشراهة وتراخ، مدعيا السهو والإغفاء. وهي تتجنبه، تدير ظهرها اليه، ملتفتة الى كل ما من شأنه ابعاد نظراته الشرانية عنها تكنس، تحضر الشاي الغامق وتقدمه، تنظف الأطباق وتفرك طناجر الألمنيوم حتى تبرق وتلتمع مثل وجه مرآة، بينما يواصل تتبعها بعينيه، ملقيا بحبل خفي يقتفي آثاها بين المطبخ والغرفة والسطح. يصوب نظراته الغامضة التي تطلق شررا يحرقها كلما ارتطمت بها فاذا حدث وواجهته صدفة، سرب الجمرات الى صدرها متحولة الى كهرباء عنيفة من انفعالات النقمة ياويلها اذا ما عن له مخاطبتها، لأنها لن تحسن الكلام معه يغور الكلام في سقف حلقها، يترسب في القعر عاجزا عن الإنطلاق. فاذا قسرت نفسها عليه، وأفلحت في قول بضع جمل أو عبارات، يندفع صوتها الى الخارج مثل بالونات معلقة في الهواء. لم يكن الحديث معه إلا عناء في عناء، صوتها كان يخشوشن، يتحول الى قرقرة أو بحة ناشزة.

في ذلك اليوم من أيار، كان الطقس صافيا والشمس متوهجة ودافئة حتى أنها تمنت لو استطاعت الخروج الى أي مكان ترى فيه أناسا، أي أناس. أرادت ذلك برغبة جارفة. أمها كانت تعرف معظم أهل الحارة، لكن أنفتها هي، وانزواءها، منعاها من معرفة واحد منهم. انها لا تريدهم، تخاف مما يكونون عليه، أو بالأحرى تحس احساسا غريزيا غامضا بالخوف من أن تنتمي اليهم، تصير واحدة مثلهم اذا. في ذلك اليوم اعترتها الرغبة في زيارة أحد المعارف أو الجيران ولو في الخيال. وحتى في تلك اللحظة، فان السيد لم يتردد في تنغيص حياتها بحضوره المبكر الخارج عن العادة.جلس في مكانه المفضل في صدر الغرفة، وأخرج أوراق دفتره الصغير لصنع لفافاته فتح علبة التبغ القصديرية ثم مد أصابعه لتعبئة المربع الورقي الأبيض بالتبغ العثماني. نبس بكلمة لم تتبينها، وكما لو أنه تذكر شيئا، قال:

ــ يا بنت.

ــ ليش عم بتلبسي هالفستان "الزهر دايما؟

ــ هذا فستاني يابا ما عندي غيره.

ــ ليش بتقولي يابا متل الدلوعين

ــ

ــ مفكرة حالك بنت راهبات، مش هيك؟

ــ ...

ـ يا ويلي على مصيبتي. شو بدي أعمل فيك بالمستقبل؟

وتنهنه وهو يكمل سيجارته، مكملا بنبرة هازئة:

ـ بدك تروحي على "باريص يابا؟

لم تحر جوابا، لكنها أحست بدمها كله يندفع صاعدا الى رأسها. أعملت يديها في طي أكوام الملابس المغسولة قربها تلهب بشد أطرافها، متظاهرة بتمسيدها كي ينصرف عن التحرش بها.دعت الى الله أن ينساها هذا الرجل. أن يعاود الخروج الى أصحابه في المقهى. أن يفعل أي شيء، فقط أن يتلهى عنها عيناه الصقريتان تحلقان في فضاء الغرفة، ثم تحطان عليها، وهو يرتشف تبغ سيجارته بلذة واضحة نظراته تلاحقها، تمسك بأذيال ثوبها مثل نار تشعل كل ما تصادفه في طريقها ولو يابا! شو القصة ؟ تحكي بينها وبين نفسها دون أن تجرؤ على اصدار نأمة واحدة.عاود توجيه كلامه اليها:

وله! عايشة!

- شــــو؟

ولك يا بنت قولي نعم يابا.

نعـــــم.

قالتها وهي تبلع ريقها.

آهه.قولي هيك من الأول. حسبت انك ح تقولي بابي مثل بنات الأجانب المايصات

وأطلق ضحكة فرقعت في أرجاء البيت خفضت عائشة رأسها،ودفنت نظراتها المذعورة بين قطع الثياب المفروشة على الأرض قرب جذعها المحني. جالت يداها بين الملابس المتكمشة تحاول إضفاء نوع من النظام عليها انتبهت الى الملاقط الخشبية المتناثرة حولها. التقطتها وحملتها كمن يعثر على كنز ثمين، وهبت الى السطح، وهي تحرص على الإيحاء له بأن صعودها الى السطح ليس هربا منه، بل بسبب أشغال البيت وحدها بانكسار وتعجل مشب وهي تحس أن ثقل ثوبها الزهري يكبل حركاتها يبهظ مرونة الجسد الذي كان طليقا قبلها.

هربت منه كي لا يكرر ما اعتاد عليه من تعبيرها بالطرفة التي لا يمل من ترديدها ناداها مرة بضجيجه المألوف مباغتا اياها ودون قصد، أو وعي قالتها بابي. شو؟

لم تعرف كيف سها لسانها، وكيف أفلتت الكلمة منها آنذاك. انكب الضحك على أختها حتى تلوب خاصرتها، وتشقلب الصبي على ارض الغرفة لفرط تهيجه. أما السيد فقد زأر في وجهها موبخا قبل أن يسترسل في نوبة ضحك هازىء حاد:

- ولهْ، استحي على حالك، احنا فلسطينية

لو أنها لم تبادر في تلك اللحظة الى الهرب نحو المطبخ، فلربما سحب حزامه وبدأ في ضربها، كما فعل يوم أتت فرحة

بالصليب تشاركت الراهبات في جمع ثمن صليب ذهبي هدية لها بمناسبة أحد أعيادهن. سلسلة صغيرة براقة، وعليها صليب جعلها تنال من ركلات أبيها وصفعاته ما يوازي كل حياتها لم تشاهد السلسلة بعدها قط، وأمها أخبرتها أثناء اسعافها بكمادات الماء الباردة أنه لابد قد اشترى بثمنها المزيد من بطحات العرق التي لا يرتوي منها

"احنا فلسطينية" قال، وكأنه لا ينفك يبحث عن أعذار بين الأرض والسماء لكي يمعن في اذلاله لها.

في الفترة الأخيرة، صار لا يدخل البيت الا مجللا بسحابة عرقه اليانسونية، ونوبات فواقه التي تثير الغثيان. كانت أمها قد حلت المنديل عن شعرها، واستراحت على الحصيرة مرتدية بنطلون البيجامة المخطط تحت فستانها الفانيلا البيتي. هربت عائشة الى المطبخ بانتظار أن يفرغ الأب من عشائه حتى تفرد الركسة وتمد الفراش لأختها وأخيها اللذين انطرحا غافيين على الجنبيات ذهبت الى حنفية الماء ففتحتها، وأخذت تصب الماء على رسغها، مما يجلب لها راحة خفية أمام توتر متراكم لا تملك له دفعا انتبهت وهي على المجلى الى يد السيد الممسكة بالخبز على حواف صحن الخبيزة، يمررها على القعر الخالي مرارا أحس بمتابعتها له، فكف عن الهمس الخفيض الى الأم الجالسة بمحاذاته لحقت عائشة الأم بعد خروجه الليلي المعتاد، وسألتها:

ـــ بمة شو حكيتو عني.

ـ وشو رح نحكي عليك! يختي. كبرت وصرت صبية مثل القمر، يخزي عين الحسود.يالله يختي روحي نامي. بلا كترة حكي، انشالله يُرزقك بابن الحلال.

"ابن الحلال، ابن الحلال قالت عائشة لنفسها، "هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يكفون عن التفكير فيه" كظمت الغيظ في قلبها تريد أن تنام كي تنسى. الصباح رباح. كل شيء حولها يمرمرها تريد أن تذهب الى النوم.تنسى. تجلو القهر عن صفحة الكوابيس التي ستواجهها.دخيلك يا يسوع. دخيلك يا نبي. كرمال حزنك الأبدي يا عدرا نقطة من نوم هادىء.

(٣)

كـــــــان ياما كــــــان.

كانت عائشة، وكان الأب والأم والأخوة وتل الزعـــــتر وبيروت.. والعالم كله كان الجو الرائق في حزيـــــران لــو بعض ريح غبارية يجلبها الطقس الموسمي، والإشتباكات التــي اشتعلت من جديد بين المخيم والقوات الكتائبية

استمرت الاشتباكات عدة أيام، لكنها جعلت عائشة تشــهد الحرب للمرة الأولى في حياتها، القذائف، المدافع والرشاشــات تزخ علـــى المخيـــم أمطـــارا ناريـــة. طقطقـــات الأســلحة، واحتكاكـــات اطلاقها مع الإرتجاجات العنيفة تخــض البـــدن. والبيت الذي يجثم بين آلاف البيوت المشابهة، يـــهتز باطونــه وتقرقع سقوفه الصفيحية. أطبقت ظلمة دامسة علـــى الغرفـــة التي تحتمي بها العائلة، وفي الخارج ولعدة أيام توقف العـــالم عن دورته المعتادة. تفتت الزمن مثل الصمغ المقشـــور علـــى

الخزانة. وتراءى لعائشة أن الأيام تحولت الى علامات موت، فاكتفت باختناقها الصامت وامتنعت عن الأكل رغم صراخ أمها وإلحاحها بأن تبتلع لقمة أو لقمتين. اتخذت زاوية قرب الخزانة، واستسلمت لوهم جامح بأن اية قذيفة تنطلق من أي مكان سوف تخرق الباب وتتجه نحوها دخل في روعها أن القذائف سوف تفلح في العثور عليها أثنا تحليقها الدائري في السماء. وداخلها يقين راسخ بأن لسانها سيلتصق بسقف حلقها، لفرط تكثف الروائح الناتجة عن احتباس الأجساد قرب بعضها بعضا، وفساد اللهاث الصادر عن الأفواه التي جف ريقها وجثم على صدرها الهواء الحامض الممتزج برائحة دخان البارود الهاجم على الرقعة الضيقة تجمدت في مكانها لا تبرحه رغم الخدر الذي سرى في ساقيها المقرفصتين. التمع الوجع في سلسلة ظهرها الملتصق بالحائط. وتحولت الى تمثال من الشمع البارد ظلت تعتصر قماش فستانها الزهري بين يديها تضم أصابعها المتشنجة على حوافه هارسة الخيوط داخل كفيها، مكومة نسيجه بين قبضتيها المتعرقتين، غير مستجيبة لصوت أمها الذي يعلو بين الحين والحين ناهرا أمها تميل بجذعها الى الخلف والأمام كمن يطبق بالجزء العلوي من جسده على الأرض ملتحما بها في ترداد رتيب. تكرر دعاءها الخافت بهمس ضارع:

اشتدي ازمة تنفرجي.

اشتدي، تنفرجي، اشتدي.

تقولها الأم بخفوت كما لو أن ترديد التعويذة دون انقطاع سوف يسكت الضجيج العشوائي الهائل في الخارج. كأن أحدا منهم سوف يسمعها ويستجيب لتقوى امنياتها أما السيد فقد كان منغمسا في نوبات ذهول طويلة، واضعا يده على خده، وعلى وجهه تعبير من يكافح مناما مزعجا واجهه دون أي انذار او توقع. وعائشة غاطسة في وطأة الرعب من المخيم الذي تحول الى أرض جهنمية تسكنها الغيلان والعواسير، تركز نظرها بين الحين والحين على انعكاسات اللهيب الفوسفورية تتوهج في ليل الغرفة المغلقة والسيد يرتعش أحيانا، يتمطى وكأنه يصحو ويبدأ في السباب على الله، والعرب، والعرصات، وفلسطين نفسها التي لولاها لما "تنيلنا هالنيلة السودا" في هذه الأرض الغريبة يلف سجائره القصيرة، ويحكي ساهما متجها الى حضور وهميين:

اللي ما عنده بخت لا يتعب ولا يشقى، يكفي يوم ما دشرونا اليهود من يافا والله أعصابي بتنهار لمن أجيب هالسيرة. قاللي الختيار يا ابني أشرد اذا ما معك سلاح تقاتل، وقال مصيرك ترجع، قلت لأ يابا، كيف أتركك في هالدار الكبيرة لوحدك أبوي كان قابر أخوه عمي بايديه حفر له في الصخر ودفنه بعد ما قتل في الغارة الإنجليزية على البيارة. طيب شو أعمل، الضرب والغارات شغالة، وحالنا ما يعلم حدا فيه الا الله. قلت لا حول ولا قوة الا بالله، طلع الصبح، والناس كانوا عالبور مثل الدود.

كأن مناماً بشعا أو نبوءة كريهة في طريقها لأن تـــودي بالبقية الباقية من عقله وبقي أياما عديدة على هـــذا المنـــوال. نسيت عائشة أن تمشط شعرها. لا لم تنس بل انها ضحكـــت بينها وبين نفسها على جزعها من التمشيط في الأيام الخوالـــي. تبخرت رائحة الخوف الكبريتية، وصارت في فضاء الخيـــال الآن. لم يعد يرعبها المسحوق الثقيل يجلـــل الأشـــياء، وهـــي وحيدة تمشط شعرها وتنتزع قطع المادة الصمغية التي تعذبـــها كلما استطاعت نزع واحدة منها انتهى كل هذا، وصار هنـــاك ماهو أكثر جنونا من المنامات والصـــور كلـــها الاشـــتباكات تنتزع منها طعم الأكل والشرب والتنفـــس، وتبلـــل المنامـــات الرديئة بملحها الكاشف شيء مثل ورقة عباد الشـــمس التـــي استعملتها المعلمة يوما في المختبر.

الاشتباكات تروح. تذهب وصدى طقطقات الأسلحة مـــا زال يتردد داخل أذنيها بوخز متجاوب مع الطلقات التـــي لـــم يتوقف طنينها عن الاندلاع داخل دماغها

ولكنها.

كان ياما كان، يا سامع الكلام، أحكي والا ننام

كل سنوات البعاد عن البيت لم تنـــس عائشـــة حكايـــات العشية التي كانت تنعم عليها بها الأم منذ زمن طويل.

"يا مهرتي يا خضرا، جيبي لي مهير أزرق، تاطارد مـــع العسكر .

ويا سبحان الحكاية، كأن الأرض انشق وبان ذلك الشاب الجميل الذي صارت تراه يتردد على بيتهم، في الفترة التي أعقبت الاشتباكات الولد. الشاب.. الرجل الذي آختته الأم في فترة قريبة لأنه ساعدها في الحصول على علاج مجاني في مستشفى قريب والذي لولاه، وتؤشر أمها بسبابتها أمام صدرها في حركة نفي، لما استطعنا الحصول على اثبات "كشف حال من اللجنة الشعبية في المخيم بأوضاعنا الصعبة

إيه والله. لولاه شو كان صار معي هو ترك الإتحاد السوبيتي، بعد ما خلّص دورة عسكرية الحمد لله أنه جاء وجبر خاطر الحزينة اللي عمرها ما لقيت مين يساعدها.

فتعلق عائشة وراءها:

ـ يمّا، قلتلك مش الإتحاد السوبيتي، السوفيتي، لاتخزينا

اللهم صل على النبي وسلم ليت أن الكلمات تستطيع وصف حسنه وبهائه كأن جمال العالم كله يتركز على وجهه وجسده المحاطين بهالة نور كالأنبياء، تقول أمها:

لأ يختي. هو أكبر من جلال أخوك الكبير لكن وجهه شبوبية

والشاب كان أجمل من المخيلة نفسها. فلا عين رأت، ولا أذن سمعت مثيلا لجاذبيته.السحر يطل معه حيثما أطلت عيناه العسليتان النفاذتان، والفتنة ترافق خطواته المهيبة الآسرة.

كان السيد يعزمه، يحضره معه الى البيت كلما التقى به في الشارع، أو قرب مكتب التنظيم القائم في بداية الزقاق المفضي الى بيتهم يأتي به في حفاوة لم يبذلها أبدا تجاه معارفه الآخرين:

- افتحوا الطريق، رتبوا الغرفة، هيني جبته معي.

يظل دانيا منه بعد أن يجلسه، وأثناء تقديم القهوة الحلوة "الشقرا"، او الشاي بالنعنع.يتحفه بعبارات الاطراء:

يا هلا بالضيف، يا أهلا وسهلا أهلين وسهلين. نوّرت الدنيا يا أهلا بجورج. يا ألف أهلن وسهلن بصاحب ابني.

فالسيد كان يصر دائما على أنه صاحب ابنه، رغم أن جورج لم يلتق جلال الا مرة أو مرتين، وبحكم المصادفة البحتة.

حضوره كان يطلق خيطا من الحنان الخفي الذي يكنه السيد لابنه جلال، فكان يقتحم البيت وخلفه جورج ببذلته الكاكية، وشعره المشعث تحت القبعة العسكرية، وبلحيته الفتية التي تطفر وتنمو رغم محاولات صاحبها البينة لحلاقتها يوميا. تطفح بهجة الرجل العجوز التي لم يكن يمنحها إلا إلى أصحابه الليليين الخلصاء اذ إن السيد كان متعاليا على جيرانه ومعارفه في العادة، بسبب غنى عائلته اليافوية الذي لم يفارق ذاكرته لحظة واحدة. أما مع جورج، فالأمور تسير في

مجرى مختلف، وتبعث وده وإعجابه المكشوف لأن هذا الولد، وكل أبناء جيله لم ينتظروا طويلا كي يحملوا السلاح. امحت مذلته الداخلية، وحسرته المختبئة في الأحشاء ، وكل حرمان حياته الراهنة مع أعمال هؤلاء الشبان - بسم الله ما شاء الله كما تقول أم جلال

يا عيني عليهم متل العسل على قلوبنا، يمّا يا حبيبي يحفظكم ويرعاكم يا شباب، يا فدائية

فيتقبل السيد ذلك بروية وسعة صدر، رغم أن عبارات التودد لا تليق بها، فهي تبرز التجاعيد المحفورة على زاويتي عينيها، وتزيد من انكشاف الاسوداد على أسنانها، وتظهر عروق رقبتها النافرة. كان السيد يتقبل ولعها بجورج على أنه نوع من افتقاد الابن الغائب في المنطقة الغربية من بيروت، مُقارنا إياه بشيء من جنون النسوة وقلة عقلهن. فزوجته لم تُكف عن إدخال نفسها في الوساطة من أجل خطبة جورج. كان يطالبها بمزيد من التحفظ:

- ولك يا حرمة صلي على النبي. أي هو خلَفتيه ونسيتيه! أنا أدلله لكن في حدود، ليس مثلك

وأم جلال كما لو أن أي حديث في هذا الموضوع يزيدها اعتزازا، لأنها تعتبر نفسها المسؤول الأول عن كل ما يمس الشاب، حتى أن جرأتها بلغت أبعد بكثير مما يجيزه تسامح السيد.فقد تصدت لجورج كي تقنعه بأن يحمي نفسه، وأن

يختبيء جيدا كلما اشتعلت الاشتباكات ولولا الهيبة التي يسبغها حضور الضيف العزيز لما صبر السيد عن لطمها وخلع "نيعها" كي لا تتدخل في أمور الرجال.

وعائشة تراه. الشاب. الولد الفدائي. تنظر اليه تنسى نفسها، تفقد الإحساس بكل من حولها، تنحسر أصوات المخيم عن سمعها، ومشاهده عن نطاق بصرها لكي لا ترى هو لا تسمع سواه، ولا تشعر إلا به ترسم دائرة طباشيرية تضمهما معا، لكي تستطيع أن تحدق فيه على هواها، وتتملاه رويدا رويدا رغم دقات قلبها الصاخبة تنظر الى يناعة الفتوة في قامته المشدودة الصلبة، والى هدوء الرجولة في وجهه، الى الحيوية الجامحة في قسماته حينما يحكي، والى التناسق في حركته عندما يجلس أو يقوم. والعالم ينتهي، يتوقف، يبقى من ثمّ الا هو

العينان تجتذبانها الى التحديق السري فيهما ترى انعكاس اشعاعاتها مثل شمس تلقي بضوئها على مجرى النهر. وهي سمكة الظلام التي تتلقى الضوء المترسب في القعر تنغمس فيه، وتتحد مع التماعاته البلورية هناك، تحت الماء، حيث يدركها أحد، تحاول أن تجتذب جسدها الى الشمس في الخارج، الى هالة النور الدائرية الشفافة اليه، ولا أحد سواها كل ما كانت تريده هو أن تتابع التحديق والنظر الى عينيه، وكأنها مجتذبة اليهما بحبل سري يحمل كنه الخضوع أمام سطوتهما الغريبة، تود أن لا ينتبه الى شغفها أحد، حتى هي

نفسها يا الهي. انها لم تشاهد عينين كهاتين من قبل. كأن الرجل لا يعدو أن يكون سوى عينين بالنسبة لها صار لون بشرته القمري مع شعره الكستنائي الغامق، وقامته المشدودة مثل رمح في بدلته العسكرية، إطارا لهاتين العينين.

كانت تنتظر فرصة تقديم فنجان القهوة لحظة بلحظة، لكي ترفع بصرها اليه، وهو يتناول الفنجان بيده اليسرى كما اعتاد. آنذاك تنظر الى عينيه لحظة دقيقة الزمن كله تقرفص في زاوية الغرفة، وحوافي ثوبها تلامس الأرض، لكي تترصد ضحكته المتصاعدة بنغم صاف يخترق الكآبة الخفية حولها هو يضحك، والعينان تضحكان كما لو أنها لم تبصر في حياتها مرحا يتألق في شباكي ضوء سماويين. كأن هاتين العينين لا تتعرفان عليها إلا في لحظة الضحك، حين يتراقص البؤبوان بالتماع مائي، فتحادثها الحدقتان وتذهبان اليها في حركة صميمية خاصة بها

ما أجمله، ما أحلاه" تقول لنفسها تخاف لأن الكلام الذي خلقه الله لم يكن لها.ولأنها اذا جرؤت على التلفظ به يتحول الى شفرة من الفولاذ الصلب تحز عنقها تسير على حدها الرفيع، فينشق العالم الى قسمين وتنطرح جثتها في واحدة منهما باردة، ومتخشبة لأنها دون لسان، أو انها قد ابتلعت لسانها في حلقها كما تقول أمها وهي تلحظ الاصفرار المفاجىء على صفحة وجهها كلما أعلنت عن قدوم الرجل. الشاب. الولد.الفدائي.

تركض الأم لاهثة من المطبخ الى السطح. ومـــن بـــاب الدار الى الغرفة، ومن السطح نزولا الى الباحة مفتشة عـــن عرق نعنع أخضر، أو أوراق حبق تمزجها بالشاي، تناديها:

- عايشة، جورج أجى.

تهمهم:

أجـــــى.....أجى.

يجيء، وهي تأتي.

ويجري شفق وردي على عسلي في نهاية الأفق.

ويـــأتي.

وترتجف عائشة مع نبتات النسيم في الأصــــص حينمـــا تسمع ضجيج قدومه الفرح على عتبة البيت يمسي العالم كلـــه نافورة ترشرش النور حيثما وصل أو تحرك. وعائشة ترمـــي كل ما يكون بيدها آنذاك، وتركض نازلة اليه الـــى الأســـفل لكنها لا تلبث أن تتجمد على الدرجة الأخيرة من السلم. تثبـــت قدميها على الأرضية الإسمنتية، تشمع تقاطيع وجهها، تبتلـــع أنفاس انفعالها، وتحاول جاهدة أن تخمد البريق الذي اشـــتعل في عينيها يا الهي انه هنا، هو المختلف عنـــهم جميعـــا لا يخاف، لا يهتز، يحكي كل ما يريده ويقاتل مايكرهه أما هـــي فتخاف من نفسها ومن نظراتها اليه.يحادث الجميع، ولا كـــلام بينها وبينه لالا لا. انها لا تحلم، ولا تتوقع شـــيئاً مـــن هـــذا القبيل.لأنها تعرف تماما أنها هي عائشة لن تتلفظ بكلمة واحدة

أمامه، وهي المسحورة، المبهورة به. الغلبانة على رأي أمها يجيء. ويحلق انتظارها في فضاء بنفسجي. يأتي. وتفور الغصة في صدرها، متصاعدة الى حلقها، حتى لتوشك على الإختناق غما وهي ترى جورج يتابع تفاصيل الوساطة مع أمها. وأمها تسعى لأن تخطب له هناء.

كانت تستغرب لماذا لا يكتفي الرجل الكامل مثله بنعمة وجوده الخاص؟ ولماذا يمكن أن يجّد في السعي وراء فتاة من المخيم تذرع الأزقة والشوارع طيلة الوقت مع فتيات المنظمة النسائية ؟ فتاة لا يميزها شيء سوى العمل في جهاز الإشارة"!! كانت تذهل عما حولها وهي تنغمس في أحلام يقظتها حول زواجه الكابوسي القريب. ضائعة وعاجزة عن فهم الناس المختلفين الذين يتنازلون عن حماية مقامهم الخاص، هابطين من علياء أنوارهم السماوية الى درك الإبتذال لدى الآخرين.

في العشية، كانت تصعد الى السطح، وتتملى انحسار الشذرات الأخيرة للضوء البنفسجي عن العالم. هناك هناك. بعيدا في السماء امرأة يتعرى جسدها من ثوبها المضيء. تدخل خطوة خطوة الى المياه الشفافة المعتمة بحر وبحر ينحسر ويتقلص تاركاً عتمة شاملة يلتمع فيها قمر أشبه "بعثمليّة ذهبية توقد السماء نفسها بآلاف الشموع المضيئة، متحولة الى مذبح يبث ومضات من اشعاعات قوية ومتتالية تمد عائشة يدها اليمنى الى رسغها الأيسر، وتجس دفق

السريان الخافق تحت جلدها، ظانة بأنها سوف تلتقط اندفاع الدم داخل جسدها كلما اشتاقت الى وجود حبيبها، لكن شوقها لا يلبث أن يتحول الى شمعة أخرى تتبدد في السماء كشهاب محترق. كان جس النبض حركتها الدؤوبة التي تمررها الى ما لانهاية كلما فزعت بأشواقها الى الفضاء البعيد.وتحت القبة السماوية الصافية، تتدفع جميع القصص التي قرأتها أو سمعت بها مثل فقاقيع مياه معدنية فائرة.قصص حب وجنون وتدلَه الآف منها تتدلى كالنجوم، تختلط ببحر السماء، تهجم عليها، ترتطم موجا على رمال صدرها وهي لا تعرف أيـر هي منها، وما علاقتها بكل هذا الإستذكار المحموم. لم تكن أقاصيص الراهبات المؤثرة عن سيدنا المسيح وحدها هي مصدر المعرفة الوحيد.لأنها، هناك، تعلمت أن تقرأ كل شيء، حتى ما جلبته الفتيات من بيوتهن في تكتم مطلق.أناس كثيرون يتقلبون عبر صفحات الكتب، تنظر الى ملامحهم، أمزجتهم، تصرفاتهم عن قرب، تشاركهم مصاعبهم، وحيواتهم المتشابكة، فلا تكاد تحبهم، وتتعلق بهم، حتى يختفوا في الصفحات الأخيرة. رجال ونساء من أزمنة أخرى. تظل مشغولة بهم، آملة أن يعودوا في أية لحظة.لهم أجساد هوائية مصاغة من العواصف الخاصة يرشحون طيبة ونبلا. يقطر بعضهم لؤما ومكائد حتى لتصير أمنية المرء الوحيدة النجاة منهم. لكن ضيقها الآخذ في الإزدياد كان يجعلها فريسة أفكار غريبة حول زواجه القادم. لم ينصب سخطها على الخطيبة

المأمولة، فقد احتقرتها وأسقطتها من الإعتبار حتى قبل أن تراها. لكنها، كانت تغار من العائلة القادمة لهذا الرجل، التي سوف تهدد علاقته بهم.

تنطلق داخلها أبخرة حارقة نفاذة تكوي العالم بنيرانها، حين تتصور الطفل السعيد ابنه، وهو على ذراعي أبيه، يتعلق بعنقه، ينام ويصحو كانت تتصور النظرة التي سيوجهها جورج للطفل وهو يبكي أو يلعب غاطسا في نسيان تام لكل كائنات العالم التي عرفها قبله، النظرة! والعينان! كان ذلك يغيظها تماما، ويسحب عافيتها من جسدها ليزيد في شحوب وجهها، ومن الدكنة الغامقة التي توشح تصوراتها بل انها انغمست في خيالاتها الموهومة الى الدرجة التي اطلقت فيها اسما عن لها دون سبب واضح على ذلك الطفل، فخالت أن سميح هو اسمه

كان طفلا يشبه الأب تماما، بل انه الشخص ذاته وان بحجم أصغر هي عائشة ستعمل مربية في بيتهم دون أجر، بيتها الملاصق لبيتهم يفسح المجال للعناية بالطفل، والإنتباه لشؤونه.خاصة وأن الأم تعمل خارج البيت ولا تمكث الا قليلا لولاها، عائشة ! ما كان صار بالطفل ؟؟ سوف تغني له، تحمله على ذراعيها، تناديه بألقاب الدلع والتدليل. تلاعبه، تكاغيه، وتسرقه من سريره كلما استأثر باهتمام أبيه ستشتري له الشيكولاتة والحلوى المغلفة النظيفة كلما حصلت على نقود.وعندما يكبر الطفل لن تدعه يخرج الى الحارة الوسخة،

وستمنعه من التمرغ على أكوام القمامة وقنوات المجاري. بل هي ستضربه على يديه اذا لزم الأمر واسترسل في البكاء محاولا اللحاق باخوتها وبصبية الحارة.

صارت عائشة تنقب محطات الراديو مفتشة على برامج المرأة لتأخذ النصائح والإرشادات حول تربية الأطفال. لم تعد تسمع فيروز وأغانيها، لأن الصوت المكلل بالزهر لم يزدها الا حزنا على نفسها لم تبحث بعدها إلا عن برامج النصائح التربوية التي لا تستغني عنها أم تريد انجاب طفل لهذا العالم.

(٤)

الزعتر ! يا الله كم تبدلت الأحوال. فكر السيد وهو يغذ الخطى الى الشارع دون أن يعرف تماما المكان الذي ستتوقف عنده قدماه. حرّك الجو القائظ آلام صداعه، فانتشر الكسل في أطرافه تجشأ بقايا الكحول. تململ، وتردد ولم يستطع أن يقرر ان كان سيتابع المشي الى مقهى الخواجة يعقوب. تحت. في الدكوانة اندفع القلق مثل دبور هائج أمام عينيه، واصل سيره البطيء وهو يسترجع الأسماء المتزايدة للمخطوفين في حوادث غامضة. لم يرد العودة الى مقهى المخيم، كي لا يسترجع أجواء الكآبة التي ينفثها الرجال القلقون مع دخان نارجيلاتهم. صارت مجموعاتهم تتناقص كل ليلة حتى أقفر المقهى من معظم رواده بعد أن دفعهم ذعرهم للإنضمام الى الميليشيا في مناوبات الحراسات الليلية التي تنظمها المقاومة فما بدا انه مجرد عاصفة في فنجان تكشف عن مأساة مقبلة. لا أحد يستطيع التكهن بما سيجري أو ما اذا

كان هو نفسه سيصبح الضحية القادمة، لا سيما أولئك الذين يعملون في بيروت، أو في ورشات النهر والبوشرية ولكن هو السيد غير المضطر للإبتعاد أو التعرض لحواجز الخطف "الطيارة" التي يقيمها الكتائب بشكل شبه يومي، هل ينزل الى الدكوانة اذا ؟؟ هذه ليست مشكلة حتى الآن، خاصة وان مقهى الخواجة يعقوب يواجه أكياس الرمل التي يتمترس خلفها مقاتلو المقاومة ثم ان الخواجة يعقوب صديقه، ويعرف جيدا أن أبا جلال السيد صديق عُمر لا يستهان به والمسألة الآن هي حاجة السيد للتأكد من وجود الخواجة يعقوب في مقهاه، من أنه لم يغلق أبوابه كما حدث في الإشتباك الأخير.

توقف لإشعال سيجارة، لكنه ما لبث أن مشى بعد أن صفق كفه على جاكيته واكتشف عدم وجود سجائر معه الكلبة أم جلال. لم تعطه نقودا هذا الصباح. كبت زفرة ثقيلة،وعاود سحب جرعة الهواء المتبقية الى رئتيه مرة أخرى قبل أن يمر أي من معارفه في الزقاق، وينتبه الى غمه.اذ أن السيد لم يعتد مكاشفة أحد بهمومه وانشغالات باله، كان حريصا على كتمانها وإخفائها تحت ظلال سخريته المرة، وقساوته الحجرية انه يتصرف كما يليق برجل أن يفعل.

في أيام الهدوء القديمة، كان ينزل كل صباح الى الخواجة يعقوب الذي اعتاد على عشرته منذ عشرين عاما، مع أن الخواجة مسيحي وله ابن في حزب الكتائب لكن كلمة

مسيحي كانت عادية في تلك الأيام، ومعظم الخواجات وأصحاب المعامل كانوا مسيحيين يضحكون في وجوه الجميع، ويشغلونهم اذا جرى الإتفاق حول الأجر المخفض في غياب اجازات العمل القانونية لم تكن لتحدث أية مشكلة الا اذا تعلق الأمر برفع الأجور فالذي لا يعجبه أن يشتغل حسب شروطهم بلا تعويض وضمان صحي عمره ما يشتغل أهل الزعتر كلهم كانوا يرضون بالعمل دون اعتراض بسبب استحالة حصولهم على اجازات عمل من الدولة. وفي النهاية، من الذي لم يكن يؤمن بأن الرزق على الله. لم تحدث مشاكل جدية في السابق الا ما تعلق منها باضرابات قليلة استدرج اليها بعض الناس، على غفلة منهم، بفعل الحماسة التي أخذتهم كما يظن السيد، الذي لم يشارك في حياته بأي منها ما زال يذكر حتى الآن اضراب معمل نسيج العسيلي، ومصنع بسكويت غندور ذلك الإضراب الذي لا ينساه أحد، تهديدات من أصحاب المعمل، والعمال عقلهم مثل الصخر لا يلينون. ثم المظاهرات والدرك، واطلاق الرصاص والضحايا. والسيد يذكر شيئا ما عن فتاة قتلت برصاصهم، اسمها فاطمة أو سهيلة، أو شيء من هذا القبيل

لقد تعرف على الخواجة يعقوب منذ السنة الأولى في الزعتر، وظل مواظبا على النزول الى مقهاه، حتى بعدما افتتحت مقاه كثيرة في التل وحوله لم يتخل أبدا عن عادته العريقة هذه. في الأيام العادية، ينزل مع الضحى، ويلعب دق

طاولة زهر مع الخواجة. يقدم له الخواجة كوز العرق الأول علىحساب المحل. في تلك الأيام كانا يستسلمان لعادة مترسخة في المناكفة وسط ذاك المقهى المتداعي المكون من قاعة واسعة، على ناصية الرصيف قرب محطة سيارات الأجرة، ومجموعة كراجات تصليح السيارات بأصوات دقاتها المعدنية المزعجة، وفي غمام رائحة المقانق المدهنة الفائحة من المقهى المجاور كانا يدخلان في التفكه أو المنابذة العدوانية يبدآن حديثهما بالتواطؤ على افتتاح الجلسة بكأس من العرق المثلث، فيذهب الخواجة خفية عن بقية الزبائن إلى طاولته ذات الغطاء المشبعِ برائحة اليانسون النفاذة، وينتشل بطحة خاصة مصنعة منزليا:

خذْ يا سيد شو بدّك أحسن من هيك. حليب السباع الأصلي دون غش أو تزوير، لو كنت عندي في الضيعة لكنت شفت المازة التي تتجزها أم نمر ولاَ قعدة العصاري على البلكون، والنسيم الذي يأخذ العقل، كأنك على رأس "الأمبير ستيت" التي هاجر لها الوالد أيام زمان.

تتردد حولهما أغاني فيروز من جهاز التسجيل العتيق ذي البكراب العريضة، فيعرج الخواجة بشكل آلي على أخبار أم النمر وطلباتها التي تتكرر كل يوم:

- إيه والله يا خيي. نسوان آخر زمن ما بتستحي على حالا فاكرة انها عروس جديدة، والشيب معبّي راسها يوم تطلب ستاير جديدة على الموضة، ويوم غسالة أتوماتيك لأنها

بتشوفها باعلانات التلفزيون. قال غسالة بتشطف وبتعصر وبتغسل لوحدها. بقول لها كبرنا يا مرة، خلّينا نهدا ونروق، وهيّه ما قادرة تفهم انه الولاد كبروا وصاروا وجه جيزة وجواز هاي النمر ما أحلاه. صار رجّال وهيّه بتصرخ عليه كأنه ولد زغير

والسيد يسترخي على المقعد الخشبي المبطن بالقش المجدول، يتجاهل سيرة زوجته حتى لا يعرف الخواجة طبيعة عملها في البيوت يصمت لأن الخواجة ان عرف سيحتقره ويسقط من عينه. يتهرب من موضوع النسوان بأن يلوح بيده الى خلف كتفه، مستدعيا الصبي ليزوده بقطعة فحم مشتعلة، يحرك بها أوار النارجيلة الساكن. يسلطن، ويحكي عن ابنه جلال، فالخواجة ليس أحسن منه. فاذا كان نمر في الجامعة، ويداوم في بيت الكتائب، وأبوه يعتبره مسؤولا قد الدنيا، فجلال كذلك أيضا يقفز عن حادثة هرب جلال من المدرسة، وتركه البيت، ويبدأ ذكرياته منذ لحظة عودته اليهم بعد تلك العملية يخبره وهو يقرقر بالنارجيلة التي تبقبق مياهها المصفرة، عن ضياع جلال أثناء دورة عسكرية في الجنوب. رفاقه ذهبوا الى العملية، وكان معهم. ويتنحنح السيد متظاهرا بتصفية صوته، وهو يتابع بينه وبين نفسه أصل الحكاية الفدائي الذي كان مكلفا باعطاء المجموعة البوصلة، تلكأ في امدادهم بها نسي اعطاءها لهم إلاّ حين صاروا في الطرف الآخر من الحدود نادى أفراد المجموعة على الدليل طالبين الأداة الحيوية بعدما اجتازوا الأسلاك المكهربة، فرماها اليهم باضطراب

واستعجال. طارت البوصلة في الهواء، اختفت بين الصخور والرمال، ولم يستطيعوا العثور عليها في الدقائق الثمينة التالية.ثم تحتم عليهم التحرك قبل أن تكتشفهم الدوريات الاسرائيلية أثناء عبورها قرب الشريط. لم تفدهم الخارطة التي كانت بحوزتهم في الإهتداء الى المستعمرة الصهيونية ضلوا طريقهم، واصطدموا بدورية عدوة، وأضاعوا بعضهم إثر اشتباكهم معها هجمت طائرات الهليوكبتر، وجعلت ترش النابالم والقذائف على الأحراش والصخور استمرت عملية التمشيط بالرشاشات والمواد الحارقة ثلاثة أيام كاملة، وخلفت وراءها عدة حرائق في الأحراش الصنوبرية الوعرة.

ويتابع السيد رواية العملية للخواجة، وكيف أنهم واجهوا الإسرائيليين مثل الأسود وفتحوا رشاشاتهم عليهم. ثم أين جلال؟ اختفى جلال، لم يعرف أحد أين هو ويا سبحان الله كأنه فص ملح وذاب زعل رفاقه ولم يخبرونا عن فقدانه انتظروا أسبوعا ثم اضطروا للتبليغ عن استشهاده.ولكن يا عيني، وصل عائدا بعد بضع ساعات من الإعلان عن خبر موته كانت قدمه قد زلقت في حفرة مشقوقة بين الصخر أثناء انسحابه التوت، فصار عاجزا عن الركض. ظل مختبئا لأيام عديدة. لم تفلح الدوريات والكلاب البوليسية في اكتشاف مكمنه تصور عذابه، جوعه، وعطشه. أخبرني أنه أكل الحشائش ولم يكترث لآلام بطنه، لكنه نفد مثل الطير الطاير دبر نفسه، وعاد.

والخواجة يعقوب يلتفت اليه بشاربيه الرفيعين الشهباوين، بقُلبقه التركي المدعوك، وعينيه العسليتين الضيقتين:

الحمد لله على السلامة شي يحزن والله. إنتم تركتم بلدكم عالبارد المستريح، وهلأ جايين تطلعوا الفرقية من بلدنا ليش؟ ما بتعرفوا أن عمايلكم بالجنوب تضر بمحصولنا التفاح صار ينضرب في صناديقه، والناس ما عدت تشحنه طول الوقت عمليات وعمليات ذوقوا على حالكم وخلوا الناس في حاليا هالحكي ما يملّي عقل ولد زغير

والسيد ينهمك في الشرح. لا الحق مش علينا الأنظمة العربية "تفو" ويعبيء فمه ببصقة كبيرة يقذفها الى الأرض حانقا:

- يا خواجة لوكنت معنا، وسفت الذي صار

الذي صار ! ويحاول أن يخبره. لكنه لا ينجح، البحر وحده يعرف الذي صار تلك اللحظة كبر وهاج كي يبتلع الناس نكاية بخروجهم. دكان الخضار التي تركها مفتوحة ولم يقفل بواباتها الحديدية تطّق في دماغه والدخان. الدخان الذي ينتشر على مرفأ يافا البابور يطلق صفيرا ثخينا ثم الفلوكات، تتمايل، تتأرجح وتكاد أن تقلب من فوقها لا يريد أن يذكر الذي صار، فلعله لم يكثر من الشراب المسكر الا كي ينسى العمر الذي تبع خروجه في الفلوكة من يافا الى صيدا ومن بعدها الى الجحيم. لا يحب أن يفتح السيرة، سيرة النكد والعم.

والخواجة يصر على أن يقلب ذاكرته بمغرفة من نار، ولا يعبأ بالطعم الحنظلي الذي يهيج فمه حتى الثمالة.

ـ أنتم تركتم بلدكم بأرجلكم شو دخل الأنظمة يا سيد؟

والسيد لا يوفر الحجج التي تخطر على باله حتى لو احتاج الأمر إلى إعادتها من جديد. يحضر مع بداية ارتفاع الشمس في الغد، وكأنه انتدب لمهمة خطيرة، ويحاول مرة أخرى إلى أن تصبح الشمس في منتصف السماء دون أن يقتنع الخواجة.يطلب السيد كأسا أخرى، اثنتين، ثلاثا أو أكثر.يثقل لسانه، وتتحجر على زاويتي عينيه نقاط مائية صغيرة، يرجعها الى الشمس القوية والرمد الربيعي الذي لا يفارقه أما في الأيام الباردة فقد كان يؤكد بأنها سليلة الإنفعال والحسرة. تلك النقاط تجف فورا اذا ربح اللعبة، وتزداد وضوحا حين تطفر من نحنحته القوية إثر دق الخسارة.يدفع الحساب مرة ويتجاهله مرات، معاهدا نفسه على الرجوع الى الخواجة كي يعدلها في الصباح التالي.

في الفترة التي أعقبت حادثة الباص، وعندما حمي الجو بين الجانبين، قلّ السيد من تردده على مقهى الخواجة، صارت مشاداتهما أعنف، وطغى عليها الخصام. كانا يلتقيان، فيقدم له الخواجة. كأس الضيافة المعتاد، ثم يلح عليه بأسئلته:

ـ لشو بترفعوا سلاحكم علينا صرتو كلكم مسلحين من الولد اللي بيرضع للختيار الكبير ناسيين انه استقبلناكم ببلدنا. جيتو عريانين، عطشانين، معفرين بالتراب.

لولانا لمُتوا من الجوع. شغلناكم عَنا، ولما صرتو بني آدمين قمتوا علينا شو آخرتها معكم.لا الباص. الحق عليكم. كل يوم والتالي باص رايح وباص جاي. وكل ساعة حجَة.يوم احتفالات، يوم إضرابات. كأنَا الدنيا ملعب خيالة عندكس. وبعدين، الباص! حادثة وصارت. ليش قمتو القيامة وهجمتو مثل المجانين اللي ضايع عقلهم؟

في فترة الهدوء التي سبقت اشتباك الشهر الماضي تجاهله الخواجة، وكأنه يلومه على كل حادث يطرأ كأن السيد هو المسؤول عن فيالق الترك والعجم، وأساطين الملك في بلاد العرب.كم حاول الإيعاز لصاحبه بأنه لا صلة له بما يجري. لكن أذن من طين، وأخرى من عجين. الخواجة يتجاهله بنبذ صامت، يتهرب من ملاعبته، ويحيله الى آخرين في المقهى الذي تقلص عدد رواده.صار يبعث الولد لتلبية طلبات السيد ولا يقوم بها بنفسه على جري عادته لكنه لم يفلت فرصة اسماعه ما يريد حتى وان بدا ذلك على سبيل المصادفة

- شو أخبار المحروس جلال. وين هو

- في المنطقة الغربية، مش هون.

- بدي أفهم يا سيد. شو اللي جرى لكم ؟ كنتو مضبوبين وبحالكم. ليش بتفِعّوا في بلادنا مثل النمل. البلد بلدنا، وانتم على طريقة "شحاد ومشارط" ما آخرتها معكم ؟ شيلو سلاحكم، واطردوا المسلحين بتنحَل المسألة بيننا وبينكم خلّو الدرك يفوت للمخيم مثل الأول، فلا يعود فيه مشاكل بيننا وبينكم.

يعني كمان تلت سنين يصير لنا ثلاثين سنة هون يا خواجة كيف تريد أن نرجع الى فلسطين من غير هالشباب الفدائية ! زي ما عندكم الكتائب، ولكم جيش، احنا كمان. ليش لأ!؟ بدك ايانا نصبر ونسكت، ونستنى رحمة الله. طيب! نحن صبرنا عشرين سنة وأكثر ولا حدْ سأل عنا. الكل بيفغص في بطوننا ولو بقينا كمان عشرين سنة على هالمعدل لن ينوبنا شيء.

دخلك ما خبّرتكْ عمايل جيش الإنقاذ عندما دخل يحرر فلسطين فحرّرها منا!؟ صرنا مشردين، مطرودين ومرميين متل مصيّفْ الغور، لا صيّف ولا شتا. ماذا يصير فينا أكثر مما صار أكثر من هالقرد ما بيسخط الله. نحن لن نستغني عن الفدائية، ولن نقبل انه الدرك يدخل المخيم ولو نزلت السما عالأرض. ليه ؟ عشان يعود وينشف ريقنا في الحبوس والسجون على ما يسوى ولا يسوى.

في المرة الأخيرة، كف السيد عن محاولة الشرح نهائيا أحس بحدة جارحة أن الخواجة ينتمي الى جنس آخر، بعيد وغامض، لا يشعر بكل الهوان الذي يعيشه الناس. قال"سحب السلاح"، قال. فكر السيد بينه وبين نفسه وهو على مشارف ساحة الدكوانة "يعني بدْهمْ يسلخوا جلدنا على الحواجز، ويسحبوا سلاحنا فوقها ، ضرب بيده على جيب جاكيته مرة أخرى، واستردها بعصبية شديدة وهو يفتقد السجائر من جديد. أم جلال تقول له منذ يومين:

- من أين لي يا سيد؟ البيوت التي كنت أروح عليها ما عُدِت أسترْجي أدخلها لولا بيت أهل الأخت ماري ما في حدا عايز يشوفنا المسيحية مش متحملين حدا. من أين أجيب يا سيد؟

تساءل السيد ان كان سيرى المقهى مفتوحا أم خاليا! في أعقاب الشهر الماضي أخرج الخواجة طاولة على الرصيف، وجلس متكئا بكوعه عليها كان المقهى فارغا تماما، إلا من مالكه.تلك كانت المرة الأولى التي ينتبه فيها السيد الى لون بلاط المدخل الحائل الى الإصفرار كان صمت ولم تكن هنالك أغنيات أو ثرثرة محطات اذاعة تظاهر السيد بأنه يمر في تلك الناحية بشكل اعتيادي دون غرض واضح، ناداه الخواجة:

لا والله أنا مستعجل، بس قلت أمُر أطمَن وأسلم عليك.

كم بدا المقهى فارغا وموحشا آنذاك. كأنه يومه الأول في المخيم. كأنها لطمة الزمن المفاجئة بعد الخروج. لا يريد أن يجلس، لا يريد. حلف الخواجة عليه لكنه كرر الإعتذار

مشاعر جديدة تكونت مثل الندف الثلجي على الخط الواصل بين نظراتهما شيء يبدأ خفيفاً، هشا ثم يصير سميكا، قاسيا له صلابة الفولاذ الأبيض. لو جلس فلربما انبعثت أحقاد كانت مدفونة ومتراكمة لربما تضاربا، أو بصقا الواحد في وجه الاخر لم يكن السيد يريد المجازفة بما تبقى من صحبة العمر السالفة، مع هذا الخواجة الذي فضّل أو أنه صار رغما

عنه في صفوف أعدائه كان الحنين الى الجلوس ولعب الطاولة يلدغ أحشاءه، لكنه كان مرغما هو أيضا على تقويض مظاهر الصحبة العريقة.

- والله لا تقوم خليك محّل ما إنت أنا مستعجل. معزتك عندي خلّتني أمُر أصبُحَكْ بالخير قبل ما أرجع عالبيت. عندي انشغال ضروري ولازم أروح على طول.

الآن، صار بمواجهة المقهى وهو ما زال يكافح دافعا غامضا يأتي به كل يوم رغم معرفته التامة بأن الخواجة أبا نمر ليس هنا، وأنه، وهذا ما يزيد في كدره قد لا يعود أبدا. لكنه، لا بأس سيقوم بهذا الفرض اليومي الصغير الذي لن يقدر على احتمال نهاره الا اذا أتمّه رفع عينيه عن الحجارة الصغيرة المتطايرة أمام حذائه. ارتطم بصره بالباب الحديدي العريض الذي يغلق المقهى.

صدّه الرصيف الفارغ، فانقبض قلبه جزعا كان متأكدا بأن مواصلة اغلاق المقهى تعني أن "الجماعة" لا ينوون الخير اطلاقا فالخواجة يعقوب له ابن في حزب الكتائب، وهو يحيط أباه بنواياهم المقبلة استعاذ السيد من الشيطان الرجيم، وقذف نحو الأرض بصقة حملّها التوجس مما سيحدث من اشتباكات قريبة. شد على نواجذه غاضبا بعد أن فارت في دمه موجة من الإشتياق الحاد للتبغ. كان مبلبلا حول الوضع، مضى الشهر هادئا حتى الان فلم لا يتفضل الخواجة ويفتح مقهاه ؟

أجال نظرة خاوية على دكاكين الساحة المقفلة الأبواب الجامدة المعلقة في الفراغ، اللون السكني يغلب على الساحة ويجلل كل شيء بالهجران. الزوايا الخالية من المشاة أو الباعة المتجولين.البسطات المتروكة دون زبائن. جفاف المكان الذي كان يعج برائحة اللحم المشوي تنطلق من وراء مراوح الريش التي يحملها الصبية الأجراء صمت مواقف السيارات في المحطة الرئيسية في المنطقة واختفاء الكعك بالسمسم مع الزعتر الأخضر، ذلك الشيء الوحيد الذي يذكره بالبلاد منذ أن ضاع طعم اللقمة ولم يعد لها معنى في هذا القفر لا شيء سوى أكياس الرمل المنصوبة على جانبي الساحة في الموقعين المتواجهين. حتى المقاتلون أنفسهم اختفوا وما عاد واحد منهم يظهر

طاف بعينيه الراعشتين الأرض والسماء، فغشاهما ضوء الشمس الساطع الممتزج برطوبة تموز الحار دقق النظر حتى يتأكد تماما مما يراه قبل انصرافه. تمنى في قرارة قلبه لو كان أبو النمر قد عاد منذ هنيهة وبدأ في اخراج الطاولات إلى الرصيف وفرد الشراشف عليها لم ير شيئا سوى الرتاج الحديدي المواجه، الذي يكمل طعم الخراب للساحة التي تبدو مهجورة منذ زمن سحيق.

سمعت عائشة همس الأب لأمها بعد نوم اخوتها، وتظاهرها بالغفوة.

- خديجـــــــة.

لم يكن يناديها باسمها الا لماما، وحينما يخطر له التحدث في أمر هام.

- خديجة ابنك جلال وجه النحس ما شفناه من يـــوم ما سكن في المنطقة الغربية.سمعت إنه بيشــتغل عنــد مســؤول التموين في التنظيم الكبير الهيئة قعد واستحلى. ما عنــده الأخ إجازات ليُطل ويسأل عنا جورج فدائي، ومقطــــوع مــن شجرة، ويجيء يسأل عنا كل يوم. على شو شايف حاله إبنـــك الشخاخ ؟ على الأقل يزورنا بين هدنة وهدنــــة. والا شـــاطر يعمل حاله مرافق عند "أبو زلام "، ويترستق في السيارة جنب الشوفير

- يا أخي، خليه في الغرْبية آمن له. إمبارح حكيت معـــه تلفون، وقلت له ما يجيء، لأنها حواجز الخطف شغالة.

- قطيعة تقطعك إنتِ وإبنك اللي ما نشوف وجهَهُ، ومش سائل على حدا. والله اني أشتهي بكيب الســـجاير ولا ألاقيـــه، لولا الشِجدْة والدين يقطع الساعة اللّي خلتَهُ ابني.

- حصوة بعين الشيطان يا رجّال. أترك الولد بحاله

- طول عمرك ما سائلة عن حدا إلا عن حـــالك وعـــن ولادك.

أنا يا سيـــــد؟

وانغمرا في معاتبة هامسة أثارت عائشة التي ظنت أن ما بينهما لا يتعدى العراك والقتال. تحول الهمس بينهما الى نوبـــة

لهاث تأخذ بخناق الأب فيما يشبه الركض السريع لحيوان ضل طريقه.وتصاعدت بعدها أنات التعب والإرهاق من الأم، مع خشخشة الملاءة التي لم يكفا عن التقلب تحتها طار النوم من عيني عائشة، وتراءت لها ظلال حركاتهما مثل أخطبوط يحرك قوائمه في هجعة الليل. وحده الحديث المتعلق بجورج ترسب في قعر وعيها فدائي، قال أبوها لأمها فدائي وكانت تحبه لأنه بطل قلبها لا تعرف أن تصف طعم الحب هذا شيء مثل المسيح. مثل العذراء الصبية التي تحتضن الطفل الى صدرها، حيث شغاف القلب، في الداخل.

ـ وينكْ يا عدْرا دخيل الله. شو هالمحبة هاي؟

تقول لنفسها عندما تراه. تنظر اليه، وتكتفي بارتشاف شكله بطيئا في عمق خيالها. تحس أنها لو لمست جلده فسوف يطلع الزيت المقدس على يديها تظن أن تحديقها فيه على مهل سوف يسيل الخمرة من عنقود العنب المقدس فوق شفتيها تنفض وجهها، وتفتح عينيها، فتكتشف أنها كانت تعبر حلم يقظة، وأن لسانها ما زال يتلمس شفتيها كأن نقاطا حقيقية من الخمر تسيل مضيئة، حلوة، ومعتقة عليهما.

لم تكن تتعرف على أيام الأسبوع إلا حسب مواعيد قدومه تريد أن يأتي كل يوم لتفهم سر الفرح العجيب والبهجة الطائرة مثل رنين أجراس العيديدخل. يعلو تهليل الصغار، ويدلي السيد بعبارات التأهيل الحارة رغم أن وجهه لا يضحك في العادة حتى للرغيف السخن. تسمع دبيب قدمي أمها وهي

تنادي عليها تترك كل ما بيدها، وتذهب لغلـي القـهوة، أو تندس في الزاوية حيث لا ينتبه اليـها أحـد. تحـدق. تتـأمل وترتشف بنظراتها عينيه على مهل. على مهل يـأتي حسـام ليعرض عليه "الكلل التي كسبها، أو العصافير التي اصطادها بالنقيفة من حرج ثابت، يحذره جورج:

الأحسن إنكْ ما تروح على حرش ثابت هالأيام. فيـه قنّاصة كثير

ويشير على السيد بأن يستبقي الولد في المخيم.

حرش ثابت صار منطقة تماس بيننا وبينهم.

والسيد يومىء باسترخاء وعدم اكتراث:

خليه يروح، ما في شيء يخوّف كلها رصاصـة أو رصاصتين. الشاطر يعرف يطلع منها خلِّيه يطلع رجّال.

وبكفيها المعفرتين بتراب الأزقة كانت ابتسام تركض الى جورج، تتقافز عليه وترمي نفسها في حضنـه دون أن تعبأ برائحة الزنخ التي تلتصق بشعرها، فيحنـو عليـها ولا يأبـه بمظهرها الرث أو فجاجة حركاتها تستغرب عائشة وتؤنبـها محاولة حثها على تمشيط شعرها على الأقـل فـي حضـور الضيف، الا أن ابتسام الزعرة التي توقف نموها منذ عـامين فحافظت على قصرها، تتجاهل النداء وتقرص جورج المنهمك في محادثة جديدة مع صاحب البيت. وحين تفقد الأمـل فـي جذب اهتمامه تسأله:

ـ ولكْ جورج إنِت مسلم والاّ مسيحي؟

ـ فتنهرها أم جلال:

ـ ولهْ إستحي يا بنت قولي عمي جورج.

والعم جورج يضحك في وجه البنت قليلة الأدب، يقول:

ـ إحــــزري؟

ـ اسمك مسيحي.

ـ مش مسيحي لأنه اسمي الحركي. بس فيــكِ تعرفــي اسمي الحقيقي؟

ـ إنِت جورج. وبس.

فيدلي السيد بدلوه في وقار مصطنع يجاري به المتوقــع من كبار السن:

ـ إخرسي ولهْ ! الدين لا يهم. لشو تسأليه هالسؤال؟

فتبتسم أم جلال وتبرق عيناها لأنها الوحيدة التي ائتمنــها على اسمه الحقيقي لإقناع أهل خطيبته.

والسيد لا يتوقف عن التمخط والبصــق داخل علبــة قصديرية جعلها قريبة من يده.

وجورج يكمل:

ـ كما يحكي أبوكي بالضبط. شو الفرق لو كنت مســلم أو مسيحي؟

إحنا بفلسطين لا نسأل ولا نهتم.. المهم الجار حتى سابع دار. مش هيك؟

ــ بس هون المسيحية بطخوا علينا ؟

ــ مش المسيحية. الكتائب والأحرار و حراس الأرز

آنذاك يندفع السيد الى القول بلوعة لا يدرك مكنونها سواه:

ــ والله طول عمرهم وهم أصحابنا، لولا زعاماتهم المجانين من أين طلع لنا حزب القرد.. والله لا أعرف

وتدخل أم جلال الصموتة لتدافع عما قاله جورج غير عابئة بأنها أسكتت السيد في ذروة حديثه المتحمس، تقول وتتجاهل النظرة الحانقة التي يرمقها بها زوجها:

أصل الفدائية كلها مسيحية

ويترك حسام النقيفة التي أحكم ربطها، سائلا باهتمام:

عن جدَ ؟ جورج؟ يعني مش إنت وحدك المسيحي؟

فيرد جورج:

- طبعا يا أخي، طبعا، المسيح أصله فلسطيني. أهل مخيم ضبية مسيحيين من فلسطين.

إذا بدك،مخيم جسر الباشا والقلعة كلهم مسيحيين، طول عمرهم ولاد البلد ووطنيين.

وبصوتها الحاد الرفيع تتدخل ابتسام:

- ليش جورج إنت من فلسطين ؟تسأله لتتأكد وتضيف:

- يعني إنت جيت من هناك ؟ وخلقت هناك ؟

لكن اذا كنتِ شاطرة بتعرفي اسم البلد التي جئت منها شوفي يا ستي أنا من بلد كلها كروم خضرا. وقد ما هي واسعة وخضرا سموها طولكرم. يعني الكرم الطويل.

ويعبر ببال عائشة خاطر كالصاعقة حين تتذكر مسألة خطبته الوشيكة يا عدرا ! انها لا تستطيع أن تحادث أحدا هنا تغيب أمها معظم الوقت بحثا عن عمل، فاذا حضرت فلا شيء يهمها سوى تركيب طبخة العشاء قبل أن يحضر السيد ويقيم "القيامة"، والأب منشغل كالعادة برفاقه السكارى الذين يفارقهم إلا آخر الليل. ابتسام وحسام ضائعان في الحارات دائما، فاذا لم تكن اشتباكات ولا مدارس فانهما لا يعودان الا وقت النوم. ويا عيني، ويا ليلي اذا كانت تستطيع أن تخبر أهلها أصلا! وهذه الخطبة مثل بساط مصيري يسحب من تحت قدميها حين تسمع ما يذكرها بها تتطاير الأشياء في الهواء، تطفو حولها، فلا تجد ما تتشبث به، وكأنها جثة ساقطة في مدارات الفضاء البعيد انها لا تعرف ماذا بامكانها ان تفعل. ولا كيف تتصرف تجاه ما يدمي كيانها اذا فكرت في خطبته، وهي تمشي، انتقل الوجع من كعب قدميها إلى سلسلة ظهرها، فلا تعود قادرة على رفع جسمها، وكأن أثقالا من الصخر تطحن مفاصلها فاذا حدقت في أي شيء غام في

الفضاء أمامها واختفى. الأصوات تتردد بما يشبه الصدى في أذنيها وأيّة ضحكة تسمعها ترتد كرجْم الحجارة على رأسها.

وكل شيء تغير كل شيء. تصرخ عليها أمها كي تساعدها في شغل البيت، فتسهو، وكأن الزجر لا يعنيها تناديها، لكي تصطحبها في زيارات إلى الجيران ، فتتهرب متعللة بالصداع الذي يأكل راسها تستدرج أمها بشكل خفي لكي تحكي عنه، وعن أخباره. تدمدم الأم شيئا عن صعوبة خطبته، أو تضرب كفا بكف قائلة

الحزين الشلبي.

والشلبي هو اللقب الجديد الذي صارت تناديه الأم به لتدليله.

المسخم كيف يتزوج ؟ ما معه مصاري، لا من ورا ولا من قدام..

كيف الناس سيقبلون أن يعطوه بنتهم؟

فينتهرها السيد اذا ما سمع حديثها

حلي عنا يا مرة. فال الله ولا فالك. الناس يتجوز بناتها مش عشان المصاري، لكن كرمال السترة. خليهم يجوزوها أحسن ما يخلوها دايرة، وفالتة مع الفدائيّة على حل شعرها لو كنت محلهم بدفع مصاري عشان تنضبّ وتنستر

مضت أيام عدة ولم يحضر الرعب من عدم قدومه مرة أخرى يجرفها إلى متاهة الظلام. لا شيء يحركها أو يثير

صحوها، سوى قرقعة باب الدار المصنوع من خشب الصحاحير، أو إيقاع خطو على العتبة غاب جورج أسبوعا كاملا. كانت ترتجف خوف أن يكشفوا سبب اعتلالها

تفزع. متى سيأتي؟ حضوره مرهم سحري تدهن به جسدها فتشفى أوجاعها. كان حزيران، وكان حر بيروت الخانق. الغثيان. القيء المغص. شخص طبيب مستوصف الهلال مرضها حمى بسبب التلوث. أي تلوث ؟ لا تدري.جميعهم يأكلون، ويشربون، ويتعرضون لكل مسببات الأمراض، وهي، التي وحدها؟ لا تصحو من الحرارة المرتفعة الا لتشرب جرعة ماء تتأبى أمعاؤها قبولها.

ومرة أخرى من جديد قرقعة الرصاص في الغرفة، طرقات المدافع الرشاشة تتجمع كإعصار فوق السقف قذائف تهز بطن الأرض. زلزال يقلب العالم. الغرفة البيت المخيم الزقاق. الزعتر أنشأ السيد يصرخ مهددا العرب والفرنج والعجم بالويل والثبور. المواقع المسيحية تفتح نيرانها بزخم متزايد. والكتائب يقولون أنهم مصممون على اقتلاع شوكة المخيم.

الصداع. الحمى، وعائشة التي لا تسمع في غيبوبة تقل دماغها سوى الراديو يكرر: اسرائيل تبدي اهتمامها بالأحداث في لبنان. الأسد يعلن ارتباط أمن لبنان بأمن سورية رصاص في المنطقة الخضراء والقنص يسود العاصمة والمناطق.

الإشتباكات تشتد في عين الرمانة والشياح والأشرفية والكرنتينا والغبيري وراس النبع وسقوط. قتيلا.

رفض السيد التحرك إلى ملجأ قريب حين اشتد القصف لم يكن الملجأ سوى بناية من ثلاثة طوابق. سخر من أم جلال:

ليش الملجأ ؟ علي الطلاق انه لا ملجأ ولا ما يحزنون.كله قلة عقل وصرصعة عالفاضي.لا. نبقى هنا.

أما أم جلال فتكتفي بابداء ذعرها بين الحين والحين، وتصطلك أسنانها وهي تهمس بتلاوة آية قرآنية لا يعرف السيد كيف عنَّ لها الإستنجاد بها ولا تزِرُ وازرةٌ وزر أخرى ، وتردد بيقين كامل بعدها:

ليش ما يتركونا بحالنا ؟ شو عملنا لهم ؟ شو خصّنا بالشيوعية الدولية اللي يتهمونا فيها؟.

عائشة وحدها هي التي كانت تحكي مع نفسها جورج وينه؟ كان ذلك هو السؤال الذي يدور في رأسها. يطن مثل نحلة وحشية تنهش مقلتيها. أنشوطة الرعب تتدلى حول كتفيها الحبل يضيق حول عنقها الأرض خلاء. موحشة لا شيء سوى مسحوق كبريتي أصفر يتهاطل على شعرها، وعلى وجنتيها، وقدميها اللحم يذوب. يختفي. يتبخر الكبريت يدخل من الفم، من الأنف، من الأذنين. وهي تبدأ في الإهتراء متحولة إلى هيكل عظمي بحدقتين مجوفتين. يخاطبها هاجس بأن هذا الهيكل هو جورج. وأنه ليس جسدها جورج! جورج.

أين هو ؟ تصرخ وتقول كلمات مبهمة لا يفهمها أحد. تقمط الأم جبهتها بشريط أحمر كي يتشرب الصداع ويخفف آلامها. تسند رأس ابنتها المريضة الى حِجْرها، وتمَرج جبينها بزيت الزيتون وتقرأ أدعيتها تدلك صَبَاحها وشرايين الصدغين بكفين نديتين، مبتلتين بالدفء. وترش على وجهها ماء محملا بالتوسلات الى الرب القدير، وتوجه النداء الى جاه سيدنا محمد.

ثم تهدأ الإشتباكات.

يتوقف كل شيء، ويفرش الصمت غطاءه الرمادي على جمر المخيم.

وأخيرا تعافت عائشة، وفقدت مع الحمى موهبة حساب الأيام وعدها أسقط المرض عنها تمرد اللهفة الحارق. ومع ذوبان قوتها استنفدت طاقتها على التوقع، أو تسقط أصوات الإياب والذهاب من بيتهم الى الحارة. لم يتبق لها سوى الإشتياق وحده، يتجلى في الإنتظار الأخرس الطويل. الإنتظار بقي هو هو. وإن تقنع بالبكم، و الصمت، والشلل. والصمت هو شكل الإنتظار الوحيد الممكن.

وأخيرا، أخيرا قبلت عائشة أن يفعل أي شيء. يتزوج، يخطب، يخلّف أولادا أو شياطين إن أراد. آنذاك استطاعت التحكم في صورة الطفل المقبل الذي تصورت أنه لا يشبه والده أبداً رغم أنها لم تر الأم الموعودة حتى الآن. قدرت

أيضا أن تنفي الطفل من خيالها، تطــرده، وتشــطب صــورة عناقه لوالده الذي يحمله على ساعده. لا لا إنها لا تريد فمــع أنها قبلت حكم القدر الجائر الذي جعل جورج لا يبالي بها، الا أنها بدأت تكافح خيالاتها وكل ذلك، مقابل نجاته، هو، الـــذي ليس له مثيل. لم ترد إلا أن ينجو مــن كــل المعــارك التــي يخوضها، لذا بدأت تقارع الوقت بمسح الصور التـــي تخطــر لها المهم أن يبقى. يعيش الولد!، طفله! لا أنه لن يكون مــــع أنها تحسن تخيل شكله لا شيء في العالم الا هو هـــو الـــذي ليس من سواه. تبارك الله في أبهى خلقه.

(٥)

حمامة، حمامتان، ثلاث حمامات.

واحدة بتصلي، وواحدة بتصوم.

وواحدة بتعبد الله والرسول.

لاقتها عائشة بنت النور

حاملة سراجها ورايحة تزور

قالت لعائشة ليش عم بتبكي

امسحي دموعك بالبخور

وكان ياما كان، أن الحبيب عاد. لم يُصبْ ولم يؤذ. ومع المخيم شهد فترة نسبية من الهدوء الذي تتداخل وسطه باكات محدودة على الأطراف، إلا أن معظم الناس لم

يرتاحوا، وظلوا واقعين تحت وطأة منام مزعج لا يعرفون التفريق بينه وبين الواقع فور الإستيقاظ. صار جميع الناس يروون أحلامهم لبعضهم بعضا باهتمام لم يعطوه لأنفسهم في السابق.

نعود الى الرجل الذي تنازلت عائشة عن كل شيء في العالم مقابل نجاته عاد جورج بلحيه طويلة ، لم يحلقها أبدا فيما بعد. هجمت ابتسام كعادتها تتسلق على ظهره وتفتش جيوب جاكيته الكاكي. لاحظتها الأم فهدرت في وجهها بصوتها الأبح:

- ولكْ يا بنت. استحي وانضبّي.

لكن جورج أخرج الليرة المعدنية التي يعطيها لها في العادة، وناولها إياها.

لا يا أم جلال. خليها تاخذها، لأنها متل أختي.

أختي أختي... رددت عائشة العبارة لنفسها، اذا كانت ابتسام مثل أخته، فهذا يعني أنني أنا، أيضا، شعرت بالراحه لأنها قريبة منه أخته ! راحة ممزوجة باضطراب خفي لا تعرف له تفسيرا.

نطت ابتسام متفلتة من حجره، وقبل أن تنطلق الى الدكان القريب، حملقت فيه، وقالت:

- لكن شعرك طويل طويل، واللحية ! شو ! مابدك تحلق؟

ـ لأ، ما بدي.

ـ شكلك يخوّف. تخلَيها على طول؟

فأجابها هازلا

ـ لحد ما تتحرر فلسطين.

صفقت ابتسام ومرقت مسرعة الى الباب وهي تزغرد. رفع السيد جنبه المستند علىكوعه فوق الطراحة تناول فردة الشحاطة القريبة منه رماها عليها فارتطمت بالحائط القريب من الباب

إخرسي ولُه. قليلة الأدب. ناقصنا زغاريد وتعريص.

والتفت الى جورج:

- شو هالبنات الطايشات. مابنلحق تحكي كلمة إلا بيطوفوا على شبر ميّةٌ.

- لكن يا سيد. هي صغيرة.

- كلهّنّ نفس الشي كبار وصغار

امتعضت عائشة من الإهانة التي يوجهها السيد لها، فشدت في جلستها المقرفصة أطرافها حول جسدها، وكأنها قنفذ يحتمي داخل هيكله الأبري. تابع أبوها حواره مع الضيف وكأن شيئاً لم يكن:

ـ حتى تتحرر فلسطين؟ يعني انك متفائل.

ـ متفائل.وإلاَ   ليش لأ؟

ـ إنْت متأمِل ترجع فلسطين وهذه الأمة لا تسأل عنـــا وهؤلاء الخواجات قايمين قيامتهم علينا

ـ وليش لأ يا سيد؟ أنا لولا الأمل ماصرت فدائي. هــل يمكن أقاتل علشان الموت وحده!؟ لا والله. عايز دولة، تكـــون ديمقراطية وضد الظلم.

أظهرت ملامح السيد انقباضا واضحا، لكنه ما لبــــث أن تساءل:

ـ ليكون يا بني، بدّك. هاي! شو اسمها. الشيوعية !

فأجابــــــه جورج بلطفه المعهود:

ـ يا عمي. شو يعني   هم كمان قاتلوا الإستعمار فــي بلادهم مثل كل شعوب العالم اللي نــــاضلت وقـــاتلت علشــــان تتحرر.

واسترسل قائلا وهو يتمطى، ونظرتــــه شـــاخصة إلـــى الفراغ كأنه يستعرض نماذج عديدة وينتقي منها:

ـ بعدين ليش لأ ؟ مافي حدا أحسن من حدا. يوم مـــــن الأيام لا بد يصير عنّا دولة مثل بقية هالعـــــالم والنــــاس. واذا كانت اشتراكية شو المانع؟

فأجابه السيد بيقين عارم:

ـ لا. كله إلا هذا. يكفينا مصايب وشحدة. كل الدول التي تحكي عنها فقيرة. قال الله ولا قالك يازلمة. ينقصنا فقر وتعتير ؟!

وأنشأ السيد يستعيد بلسان بليغ فحوى الكلام الذي دار بينه وبين الخواجة يعقوب الذي يُعد فقيها في شؤون الإغتراب. فكثيرا ما نقل الى السيد معلومات شتى من كافة أنحاء الأرض وعالم المصالح والأعمال. تدخل جورج وكأنه يدفع عنه اهانة شخصية:

ـ يا ريتك بس تشوف ياسيد. أنا شفت بعيني هذه عندما كنت في الدورة العسكرية. كل الناس مثل بعضها ولا يوجد شحاد أو فقير

ـ لا يا بني. لا. ما الذي شفته قدام غيرك؟ حتى اذاكانوا كما تقول عنهم، أناس محترمين وليسوا مثلنا.

وأضاف السيد بغمّ لم ينجح في اخفائه:

نحن فقط الذين عمرنا لن نصير مثل الناس.عندنا ثورات مستمرة من خمسين سنة ولم يطلع لنا شيء ؟ في ثورة ٣٦ إشترك الوالد وأخوه عمي. بعدها شفنا كل "الخربطيطة" التي قامت عشر سنين وراها وحتى سنة ٤٨، ومانابنا إلا الشقا والحسرة.

معك حق يا عمي. زمان كانوا الأتراك. راحوا جاء الإنجليز. راح الإنجليز حطوا محلهم الصهاينة.كل واحد يعطي

الثاني توكيل قبل ما يرحل. الحل الوحيد إنه نقاتل حتى تصير لنا دولتنا المستقلة.

- قولك ؟ يعني بصير لنا دولة على آخر الزمن؟

فأجابه جورج:

والا هل نحن نلعب ونتسلى! وندفع كل الشهداء حتى يظل الكل يدعسون في بطننا؟

وانتهزت أم جلال ما اعتبرته نهاية الحديث كي تطمئن قليلا

وشو آخرة الأحوال دخيلك متى نتوقف الإشتباكات حتى نعرف نروح على أشغالنا؟

لكن السيد الذي كان ممتلئا ضغينة تجاه افلاسها في الفترة الأخيرة، تذرع بسخف سؤالها كي ينهرها:

- بس يا مرة. يكفي تسأليه عن القصة إنشالله فاكرة إنه رئيس لجنة الهدنة؟ شغل؟ شغل؟ من يسمع يفكر إنه مقطعة الدنيا من كتر الشغل أي يلعن أبو الشغل. على الذي خلقه.

وانطلقت قهقهته الصاخبة مسيلة دموعا صغيرة على جانبي عينيه المحمرتين. توقف، واتجه بحديثه الى جورج الذي بدا مباغتا بالضحكة الهادرة. بسملت الأم وتطلعت صوب

زوجها بنظرات استنكار، كمن يعرف تماما ما الذي تعنيه هذه الإشارة. وعندها قال السيد بابتسامة خبيثة تكبر شيئا فشيئا:

- آ يا خوي، أحكي. لك الحلم الذي حلمته قبل يومين.

فأنشأت أم جلال تردد بحركة آلية سريعة أستغفر الله، أستغفر الله.

قال السيد:

القصة وما فيها يا سيدي. إني حلمت إني مُت ورحت إلى الله يوم القيامة إيه والنبي.أول شيء جاء ناكر ونكير ركبوا على كتافي، وقالوا اعترف بذنوبك وعمايلك على الأرض والا نخنقك.قلت: مهما عملتم لن أحكي الا عند الله سبحانه وتعالى. ما رضيوا لكنهم بعدها زهقوا مني. جَرّوني عند موسى.يعني النبي موسى، شفت موسى رجال كبير شايب لابس عباية من صوف الغنم. كان يرعى غنماته في الوادي. ما قبلت أحكي. قلت: يكفي ان جماعتك أخذوا بلادنا فلسطين وهم يطاحشوا فينا، والله لا أحكي لك. جاء ناكر ونكير يريدان أن يجبراني على الكلام، حلفت أن لا أرد عليهم. وقلت ما أحكي الا لربنا سبحانه وتعالى. أخذوني غصب عني لسيدنا عيسى. كان يحلب غنمة على سفح جبل، ما قبلت أحكي معه، وقلت: أما يكفيك أن الأماكن المقدسة مع اليهود اللي أجوا يصلبوك، وتريدني أن أحكي.. لا والله لن أحكي كلمة. زعلوا ناكر ونكير وما رضيوا ياخذوني عند الله. ما شفتهم الا ماخديني عند النبي محمد ـ اللهم صلي على النبي ـ وكان

لابس عباية من وبر الجمل، قلت صحيح انك نبينا محمد، بس اذا كنت تحزن على حالي، تتشفع لي أروح عند الله؟

آخرتها سمح لي أروح عند الله سبحانه وتعالى. أخذوني ناكر ونكير على وادي كبير كبير. الغيوم كانت على راس الجبل، صحت وقلت ياالله لماذاتضيّق الرزقة علي والا هالملاك على شكل بدوي، عليه هالة من نور تلمع على حطته وعبايته. هالملاك يقول لي: الله بعثني لأجاوب سؤالك وتطلع قدامه ومدّ يده على دست نحاس كبير ومخزق مثل الغربال. قال هنا الرزقة كما إنت شايف كل آدمي وله ثقب. الخزق الكبير يعني رزقة وسيعة، والذي خزقه صغير يشكر الله على نصيبه قلت: طيب، أين خزقي أنا مد أصبعه على خزق صغير صغير قدّ خرم الإبرة، يعني لو نزلت فيه دمعة ما بتمرق منه ما لقيت حالي إلا مثل التور الهايج. دبيت حالي عالزلمة يعني عالملاك وأنا أصرخ ما هذا الظلم ظلم في الأرض، وظلم في السما فتحت عيني، لقيت حالي ماسك المخدة بيدي وأنا أضربها مثل المجانين. يا لطيف على هالشوفة.

انطوى جورج على نفسه لشدة ضحكه. هدأ السيد ولان، وارتخت ملامحه المتوترة بعد أن روى قصته التي لم يترك أحدا دون أن يحكيها له تشنجت ملامح وجه أم جلال وهي تتابع عائشة التي تحمل صينية القهوة مقتربة من جورج بخطواتها المهتزة المتجاوبة مع ارتجاف أصابعها، وكأنها على وشك أن تتعثر وتقع. انها لا تدرك ما الذي جرى لهذه الفتاة

عقب الحمى التي أصابتها تكاد تهجس بأن هناك علاقة مبهمة ين نوبات إكتئاب ابنتها وبين غياب جورج أوحضوره. تضيق خطوات ابنتها إذا أتى، تلتصق بالركن البعيد ولا تتحـــرك إلا اذا نودي عليها.أرجعت أم جلال سلوك عائشة الـــى ارتبـــاك الصبايا لكن الخجل وحده لا يؤثر الى هذا الحد. بودهــــا لـــو تستطيع تفسير هالة الغموض التي تحيط ابنتها كلمــــا حضـــر جورج الى البيت سمعها الذي يصير أكثر دقة وارهافا عيناها اللتان تغزلان مثل شبك الحرير وجهها الشاحب الـــذي يفـــور مثل مسكب الورد. لكن أم جلال سرعان ما أبعدت الموضوع عن خاطرها، فلا بد أن عائشة ما زالت مضطربــــة بســـبب ابعادها عن المدرسة عادت بفكرها الى مشادتها مع السيد قبلى هنيهة لدى دخول جورج الى أول الحارة. لقد ركضــــت الـــى السيد الذي كان يدخن سجائره في صدر الغرفة:

أبو جلال. أبو جلال. جـــــورج إجـــى، شـــفناه مـــن السطوح. بعده بأول الحارة.

وارتاحت الى هدوء مزاجه فانساقت وراء فرحتها:

لوكان فيه شغل، وكان معي مصـــــاري، لكنـــت والله دبحت خروف عباب الدار كرمال سلامته.

شـــــــو؟

وهدر وهو يهب في اتجاهها وكأنه سوف يقتلها جحظت عيناها وهي تتراجع الى الخلف.

قال:

- انشالله تعيدي قصة جلال ؟ ما إنت شايفة إنا ح نموت من الجوع. حتى الحمار مش لاقيينه عشان ندبحه وناكله

همست أم جلال بذعر غير متوقع:

- هُس. وطّي صوتك. ما تفضحنا مع الرجّال الغريب يمكن يدخل ويسمعك.

- فكرت ستعملي مثل زمان

كان يعرّض بتصرفها يوم استقبلت جلال عند عودته من العملية التي كاد أن يستشهد خلالها.ففي ذلك الصباح طلب السيد نقودا منها معولا على استبشارها بنجاة ابنها

- المكتب قال ان الولد جاي الظهر هاتي.

تراجعت أم جلال بجسدها الثقيل المستند على مرفقيها فوق الفراش، واستدارت بوجهها المنتفخ مبدية علامة حزن، ثنى السيد ركبتيه، وركع على الفراش موجها نظراته النارية اليها

ـ قلت هاتي. يعني هاتي.

وأكد صرير أسنانه تهديده الجازم لها. تحركت، مدت يدها الى الجزدان الذي بات الليل بين ثدييها، انتشلته، وأعطته المبلغ الذي يأخذه كل يوم.هز رأسه المخطط بالشيب، ورمش بجفنيه الكليلين، وقال:

ـ يعني مش أكثر.

لكنها صمتت، وحدقت الى اللحاف أمامها، وكأنها لم تسمع. تتحنح، متكئا على جذعه وهو يعاود القيام مغادرا الى حيث يذهب كل يوم

عندما أتى في ذلك النهار، فوجيء بخيوط الدم الحمراء تسيل من عتبة البيت، ملطخة الحائط الجيري المطل على الزقاق. شاهد آثار ذبيحة سلخت لتوها، فاندفع الى داخل البيت هائجا سائلا عما يجري. ولم يكد يفرغ من معانقة ابنه، وتهنئته، وتقبيله حتى تطلع الى أم جلال التي أجابته قبل أن يسأل:

- والله، يا سيد هذه ذبيحة "تذر كرمال سلامة إبنا.

الحمد لله على سلامته بس، ليش الذبيحة؟ شايفة هالك قاعدة على مال قارون؟

ـ ماشي الحال ياسيد في أحلى من هالمناسبة بالدنيا؟

صمت باذعان من يخفي حسابه الى اللحظة المناسبة عندما خرج جلال الى ساحة الدار، توجه من فوره الى المطبخ. لم ير هناك غير المعلاق المكوم في مصفاة على الأرض. سأل بتوجس:

ـ وين اللحمة.؟

أرادت أم جلال أن تتكلم، لكنها جفلت، واستعاضت عن دمدمتها بالسكوت. دخل جلال الى المطبخ، فأدرك الموقف بنظرة واحدة. آنذاك تنطع للجواب

- فرقناها عالجيران.

حقق السيد في الأمر وهو يغالب نفسه كي لا يهجم على واحد منهم:

- خروف كامل! وتوزعوه عن روح النبي ؟ شو مجانين انتم ؟

وسرعان ما تراجعت عاصفة غضبه بعد تدخل ابنه استمدت الأم شجاعة غير مألوفة

وضعت يدها على خاصرتها ونبست بحزم قائلة

- وإلاً لشو إسمه "نِدر "الندر لا يؤكل لازم يتوزع عالفقراء.

هز السيد رأسه يمينا وشمالا، وصرخ:

- ونحن يختى مش فقراء؟

وأضاف:

- ندر علي إن عملتيها مرة تانية ، حتى لو جاء النبي بحاله، أن أجيب حمار فالت وأذبحه عباب الدار. حتى تشوفي إنت وجيرانك ما هو النِدِر المضبوط

وضعت أم جلال يدها على قلبها وكأنها ترد عنـــها ذاك المشهد   حمار مذبوح تسيل دماؤه وترغي على عتبة الـــدار الجيران يتطلعون. المارة ينظرون، والكــــل يؤشـــر أبعــدت الصورة قسرا عن خيالها، كشتها بيدها كما يفعلون مع ذبـــاب الفرس الأزرق. تنبهت الى ضرورة اخبار جورج بما كــــانت تتحرق لإبلاغه فور دخوله مدت عنقها الغليظ الــــى الأمــام، ونبرت:

- جورج. جورج. لك عندي أخبار بتفرح. لو تعرف شـو صار بغيابك!

قالـــــت الأم:

- سأروح معه عند أهلها لأني مثل أخته.

فانقضت ابتسام بحركتها التي لا تهدأ مطوقة عنق أمها:

- يمّا أنا مثل أخته إنت مثل أمه.

ضحكــت أم جـــلال برضـــى وقـــد بـــرزت أســـنانها الأماميــــــة:

أمه والا أخته! كله نفس الشيء. هو منــــا وفينـــا. لا يحَنْ على الجوز إلا قشره.

قفزت ابتسام قرب جورج منسربة تحت إبطه الأيسر

- العريس العريس ! مـــــتى العرس.

صدّتها أم جلال موجهة حديثها الى جورج:

- زهقتَينا والله، زهقّتينا هل مسألة العـــرس ســهلة ؟ منيح انهم أهل العروس حكوا معنا. يا شلبي الحمد لله طلعــوا الجماعة طيبين وما كسفونا!

وجدت إبتسام الفرصة للثأر من لامبالاة أمها بها:

جورج. أمي قالت إنه الجماعة خايفين يجوزوك بنتــهم لأنك فدائي. غير معروف أصلك وفصلك.قال ما بيعرفوا أهلك بالضفة.

فأجابها جورج دون أن تتعكر ملامحه:

- فدائي. ومقطوع من شجرة. إنتم أهلي

وكأن جوابه الهادىء خيَّب أملها مما دفعها الى المزيـــد من التحدي، فاتجهت بحديثها اليه من جديد:

ـ ليش لما تحكي تلفظ ال "كا"، "تشا" مش خـــايف يفكروك أهل الخطيبة فلاح؟

أنا فــــلاح.

نطنطت مبتهجة بالخبر الغريب الذي أثار اهتمامها:

ـ فلاح عن حق وحقيــق؟ يعنـــى بــتزرع وبتحصــد الأرض؟

أنا فلاح إبن فلاحين.بس ما عاد لـــي أرض أزرعـــها وأحصدها.

ـ طيب ! كيف عايشين؟

ـ مثلنا مثل كل الناس. أنا واخواتي كل واحد فينا مشرود بأرض وبلد.

ـ لكْ أم وأب

ـ أبي عايش وأمي ماتت من زمان. أختي الكبيرة ربتنا.

ـ واخوانك؟

ـ أخي الكبير في السعودية بيشتغل.

لم يهن على أم جلال وقاحة ابنتها الفلعوصة وهي تتذاكى. تناولت المكنسة الخشنة المرتكزة على الحائط، ورفعتها وهي ترميها بشتائم خارجة من أعماق صدرها:

ـ روحي ولهْ. حلي عنا يا بعيدة. لسّه ما طلعتي من تحت الأرض يا قدْعة وتشتغلي فينا؟ سوف ألوي نيعك.

وبلهجة معتذرة طيّبت خاطر جورج:

ـ أقعد يا شلبي. حتى يجيء السيد. لك كاس شاي على الأصول.

ومن الزاوية، من مكانها المعتاد، كانت عائشة تتابع الحديث مثقلة بمشاعر تفتك بها كأنياب وحش فولاذي، ووجع يتقلب كالجمر في معدتها يفور، وتتصاعد رغوته في تعب يودي بكل قواها تتطلع إليه وكأنما تراه للمرة الأولى. تخرج من دائرة عينيه المشتعلتين بالضوء، وتبدأ نظراتها في ارتياد

جسمه كله كرجل حقيقي، وليس كصورة في أيقونة سيكويها الهم، ويقتلها الكمد، قبل أن تتخلص من ولهها به، رغم كل أمنياتها بأن لا تنظر اليه كأخ. ألا إنها لتجزع من نمو شيء جديد يتفشى في روحها فلا تعرف التخلص منه لم يعد يجتذبها ضحكه وعيناه وحدهما، ولا هالة النور التي تسبقه، بل انها صارت مأخوذة بشكله كله.اطلالته الشارب الغض تمس بعض شعراته الشفة العليا حينما يتكلم. الشعر القوي الناعم الذي يرسم الذقن الحاجبان الكثيفان يلتقيان فوق الأنف بانحناءة تشبه الوشم الخفيف الصوت الخشن الموزون ينبعث مع الحركة الأليفة لجوزة الحلق. تلك التي كانت تعدها قبلا من بشاعات الرجل. كل ما كان بغيضا فيهم صار جميلا لأنه يخصّه هو صارت تنتبه الى شعرات قليلة تصعد من مقدمة الصدر الى الرقبة، فتجدها شائقة ومثيرة للإهتمام بعد أن كانت تعتبر أن المشابهة بين القردة والرجال تتجلى في الشعر الذي يكسو الجسم. حتى طرف البنطال الكاكي حينما يزَم على الكاحل، ملموما داخل الجزمة العسكرية ، كان له جمال فريد لم تعرفه قبلا.

وكانت تخجل من الإعتراف لنفسها بأنها صارت تغرم بظله. تقف على السطح، وتترصد قدومه، لكي تنظر الى ظله داخلا معه ليت أنها تكون ظله، فترتاح وتشفى.

لم تصدق أم جلال نفسها وهي ترى ابنتها تطلب مرافقتها الى بيت خطيبة جورج. لم تفهم في الأصل سر

تمنعها عن زيارة الجيران والمعارف، فكيف يمكن لها أن تفهم الان سر اندفاعها وهي الخائرة القوى، المهدودة الحيل.

– ماشي الحال يمكن تتسلي يختي. كل أمراضك لأنك بتقعدي لوحدك.

وأخذتها معها الى الزيارة التي سيجري خلالها الإتفاق حول الأغراض اللازمة للزواج.

في غرفة استقبال الضيوف في بيت هناء، اصطفت على الحوائط الأربعة أرائك عريضة التصقت مساندها بسبب تراصها وضخامة حجمها على رف في الجدار عرضت مزهرية بنية مرصعة بقواقع بحرية مدهونة بالبني الغامق، ومنها امتدت ريشات طاووس ملون. من فتحة الباب الضيق، دخلت هناء ورحبت بالضيوف الذين يجالسون أمها، لم تختلف هناء كثيرا عما رأته عائشة بعين خيالها كانت فتاة عادية بنت مخيم. لم تغير مظاهر الغنى النسبي من اعتيادية مظهرها، وعدم تميزها عمن حولها كان المشهد مألوفا إلى حد الإبتذال. أرائك خشبية محفورة، ومبطنة بالمخمل على الطريقة الفرنسية في غرفة ضيقة. مناضد صغيرة من الفورمايكا محشورة بين أقدام الجالسين. شدهت عائشة لأن هناء لا تستأهل كل هذا الإصرار من جورج على خطوبتها أحست آنذاك بأن عدم فهمها لتصرفات جورج، وانبهارها بما يفعله، يوقعانها في خيوط الإستغراب الذاهل.

لماذا يصر على أن يلاحق فتاة بسيطة الى هـذا الحـد، وهو الفريد بين الرجال ؟ في البداية سلطت عائشـة عينيـها على أم هناء. بودرة كثيفة على الخدين، كحل عربي مشرشـر على طرفي الجفنين، وفستان حريري مشجر يـبرز امتـلاء صدرها وقفاها بشكل متعمد. لفت نظرها اتساع فتحتي أنفـها، وغزارة الشعر الذكوري فيهما شنشلت أم هنـاء معصميـها وساعديها بأساور الذهب الصفراء اللامعة. لم تشبه هناء أمـها إلا في لون البشرة القمحية عيناها الخضراوان لهما شـرطتان صاعدتان إلى الأعلى، تغطيهما أهداب كثـة رغـم ضيقـهما وانغلاق طرفيهما استطالت نهاية شعرها، والتفـت وأوحـت بحاجتها الى تشذيب كان لديها خال صغير في صفحة وجنتها اليسرى يتجانس مع لون شعرها الفحمي. أكثر ما كـان لافتـا فيها هو تعبير الثقة بالنفس الذي كان واضحا على محياها، فلا يدرك المرء إن كان سببها دلال البنت وحيدة أبويـها أم لأن صاحبتها بنت تنظيم.

أحضرت أم العروس صحون النقولات. بزر وقضامـة وفستق حلبي. قدمت هناء شراب "البيبسي كولا" فـي كـؤوس زجاجية ملونة وأتت قريبة الأم "اللزم بنارجيلة ذات تنبـاك عجمي استقبلتها أم جلال بلهفة وهي تخبرهم عن اختفاء أنواع التبغ الجيد هذه الأيام سرعان ما أنشأت المرأتـان تتبـادلان النفس من الحبل الرفيع بتلذذ واضح. عـبرت أم جـلال عـن ارتياحها للحفاوة التي قوبلت بها:

- أنا أدخن سجاير على طول. لا أحب الأرجيلة الا عندما أنبسط عند أصحابها مع أن الأرجيلة أطيب من السجاير

أخبرتها أم هناء:

- تعلمت الأرجيلة من نسوان شُركاء أبو هناء اللي ساكنين في الطريق الجديدة. يالله كم كنت مبسوطة معهم قبل انقطاع طريق المنطقة الغربية. أصلهم سنة من البسطة بالأساس. والنسوان كانوا يعملوا صُبْحيات على طول.

أدخلت قريبة العائلة صحون المهلبية بالحليب واللوز المقشور مصمصت أم جلال شفتيها تحفزا لكي تبدأ في طرح الموضوع الأساسي الذي حضرت من أجله تأهبت للحديث بعد أن لاحظت تململ هناء في جلستها، وتخوفت من عزمها على مغادرة الغرفة. إلاّ أن حركة هناء كانت بسبب ضيقها من حشرية نظرات عائشة التي تصوبها نحوها مثل شباك العنكبوت كانت الفتاة المتصلبة على أريكة تشبه الخاطبات اللواتي يزرن أمها بنظراتها الفاحصة وبجلستها المتحفظة يثير شكلها الإنزعاج وهي تتمعن في الخطيبة مذهولة اللب كمن راح في غيبوبة. لكن المجادلة الجولة الأساسية في اتفاق الزواج لم تلبث أن بدأ طلب أم العروس سجل تاريخ لأخلاق العريس، فأطنبت أم جلال في مدحه والإشادة بسلوكه. بعدها ودون جدال، انتقل الحديث الى الجانب العملي بعد أن فهم الجميع معنى الموافقة الضمنية التي أدلت

بها أم هناء. صار من الضروري الخوض في تفاصيل الإتفاق قبل أن ينتقل استكمال الموضوع إلى الرجال.

طلبت أم العروس ما يطلب في العادة من ملابس. فساتين وطقوم حريرية للنوم بسبعة ألوان. فلا بد لفتاة معزوزة مثلها أن تغير خلال العرس عدة بدلات. قالت إن الشبكة لا بد أن تتألف من عدة حلي ذهبية كالمعتاد. وظلت تؤكد على ضرورة توفير طقم رسمي أسود (آبييه)، وشددت على الهاء في نهاية الكلمة، لتؤكد استفادتها من صداقاتها في معجم الكلمات المتفرنسة.

استشفت أم جلال أن الوضع صار مؤاتيا للمناورة:

إسمعي يختي. قيمتكم ما في مثلها.العريس جدع، باسم الله حوله. وأهله سيبعثوا له مصاري عن قريب، بس عارفة مشكلة الجسر هذه الأيام. ما حدا بيطلع من الضفة إلا بطلوع الروح. الاسرائيلية بيمنعوا الناس تجيء الا بعد ألف سين وجيم. بكرة بتروق الأحوال وبيبعثوا اللي عمره ما شافه حدا يكفي تنكات الزيت والزتون التي سوف نغرق فيها خلّينا نكتبْ الكتاب ونحدد ميعاد العرس.

سنعمل كل ما تريدون يا ست أم هناء.

تراجعت أم هناء أمام تطمينات ضيفتها

عالقليل غرفة نوم كاملة وخاتم ألماس مع جوزين مباريم ذهب.

وبشكل غير منتظر ارتفع صوت هناء:

ـ ومين قال إنّهُ عايزة ذهب؟

لم تفلح نظرات أمها المحرجة في إسكاتها، فخاطبتها بتوسل

ـ هناء. هس. هذا شغلي مش شغلك. فاكرة أبوك يقبل طَب طبتَك العافية ؟ شو يقولوا عنا الناس.

ـ ناس ما ناس، مش شغلي. ذهب! وقلب لا

رمقتها أم جلال بإعجاب صريح، إذ أن معارضتها لشروط أهلها سوف تسهل مهمتها

قالت هناء:

ـ عندي ثياب أشكال وألوان وما بلبسهم. لشو الزنطرة؟ قال سبع ألوان، قال

بهت لون الأم أمام إصرار ابنتها، فلجأت الى تأنيبها:

ـ دخيل الله عليك وعلى هالجيل! والله شيبتو شعر راسنا

واتجهت إلى أم جلال مكملة حديثها:

ـ طنيب عليك، من يوم ما اشتغلت بنتي في الإشارة وأنا ما بنام الليل ويا ريتها ساكتة وقابلة. شو كانت تعمل لو

كانت مثل البنات اللواتي يشتغلن في المصانع مطفوسة ومقهورة !

وأسكتت ابنتها بما اعتبرته حجة دامغة:

- يكفي أن أبوك وافق على هالجوازة بعد طلوع الروح، وهلأ بدك تخلقي مشاكل؟

بعد أخذ ورد، اتفقت المرأتان على تجهيز البيت بالأثاث الضروري، والبدء في تحضير الثياب، انتظارا لمعونة أهل العريس الآتية من الضفة، على أن يتم الإحتفال بالعرس في شهر أيلول.

قبل أن ترجعا الى البيت، تفحصت هناء عائشة بنظراتها، ثم وجهت حديثها الى أم جلال:

- بنتك شو بتعمل؟

- قاعدة في البيت.

- قلتم إنها دخلت مدرسة الراهبات لم لا تساعدنا في دورة محو الأمية ؟

ضربت أم جلال على صدرها بكفيها، وشهقت قائلة

- السيد متعصب كتير على بناته هو المشي في الشارع ويا دوبْكْ قابِل أنا أتمنى لو عايشة تشتغل.

- طيب قوليله إنتِ حتى تساعدنا في هالدورة.

- هُو يُحكي معه ؟!!. شيء لا يدخــل مخــهُ هــذا ولا يُقرب عليه. هيّه..! المدرسة وما خلاّها فيهـــــا !

أثار الحديث عائشة وحرك كوامن نفسها ســألت أمــها وهما على طريق الرجوع الى البيت:

- ليش البنت ما حِكيت معي. مفكرة إني صغيرة؟

- يمكن لأنها ما بتعرفك.

لا شايفة حالها عَلي.

فشرب هناء بنت الكهربجي حتى تشوف حالها؟ وإنت يختي شو ناقصك؟

- طيب يمّا ليش ما تخلوني أشتغل؟

لأ يختي. كله كوم وهادا كوم. شايفة إنه ناقصنا شرور أبوك؟ أنا وحدي أشتغل وعامل ألف قصـــة.

- كنت أشتغل في المدرسة لم لا أشتغل هنا؟

تلك اسمها مدرسة. لكن هنا حاجــة ثانيــة. كيــف نتركــك وإنتِ صبية عالبركة؟ لأ يختي. كلّه إلاّ هذا. بعديــن مصانع الخياطة وماعادت تاخذ عمــال مــن المخيــم. أيــن نوّديكِ..

- خلوني أروح أساعدهم في دورة محو الأميـــة؟

- خلصْينا وسكرّي هالطابق. أبوك مش موافق.

- مش موافق ؟ مش موافق؟ دخيل الله - شو هالمصيبة؟

مضت عائشة في ضوء العشية الغارب بين الأزقة الضيقة على الجانبين نساء يشطفن عتبات البيوت، يلقين ببقايا مياه الغسل في المجاري المكشوفة وأطفال حفاة شبه عراة بملابس ممزقة يتدافعون أو يتراكضون على الأرض التي تخلفت عليها كتل بعر الماشية، سدادات زجاجات مياه غازية، وقصاصات أقمشة كالحة تمشي قرب أمها وهي تكزّ على أسنانها، فتصرصر عظام فكها

- لو رحت ساعتين في الأسبوع ماذا يصير

لكن الأم تواصل سيرها دون أن تجيب، لأن خبرة عمرها الطويلة علمتها أن تتجنب الرجل وطباعه القاسية انها تتعامل معه مثل قناة مائية تلف حول الصخر، لكنها لا تخترقه.

فور دخولهما اصطاد السيد ابنته المختنقة كمدا حدّق فيها وسألها بهزء عارم:

لشو صافنة يابا؟ زعلانة لأنك ما رحت. على باريص.

(٦)

وفي البيت توهج سراج نور جديد.الجميع انخرطوا في جدال حول خطبته وزواجه عداها وفي أيام هدوء متقطعة، استطاعت أم جلال الوصول الى السوق الجديد على رصيف الروشة، حيث شاد بائعو الأسواق التي احترقت في منتصف البلد بسطاتهم وخيام بضائعهم أقنعت أم جلال السيد بضرورة ذهابها الى المنطقة الغربية في فترات الهدوء المؤقت، بحجة جلب بعض المصروف من ابنها، الا أنها لم تحضر نقودا قط. تذرعت دائما بأنها لم تجده بسبب انشغالاته الكثيرة. بقي السيد مقتنعا بأنها لاقته بالتأكيد، وأرادت الإحتفاظ بما جلبته تحوطا لأيام السوء استجوبها مرات عديدة لكنها حلفت على المصحف الشريف بأنها لم تلتق ابنها بسبب استعجالها الإضطراري للعودة خوفا من انقطاع الطريق هكذا اضطر السيد الى اخلاء سبيلها في كل مرة، رغم لهفته العارمة للحصول على القليل من المال. ودائما تعود المرأة

البدينة ومعها بعض مشتريات العرس المنتظر، كما حدث حين أتت جورج بسترة من الكتان الأبيض كي يرتديها يوم العرس. كانت لا تني تردد أمام من حولها أحاديث الأهوال التي تحملتها برباطة جأش خارقة، كأن تعبر مناطق التماس الخطرة المرصودة ببنادق القناصة، ورصاصاتهم المسمومة كان الإنفعال يأخذها، فيجلل العرق جبهتها، ويتساقط حباب كبيرة فوق الصدغين. تخاطبه بصوتها المتهدج أثناء إشعال سيجارتها، وتقطع عباراتها باللهاث الثخين:

شوف طقم هالنوم. خرْج العروس. كلّه دانتيل بدانتيل. البياع حَلف انه لولا الوضع ما أعطاني إياه بمية وخمسين ليرة، يعني نص السعر والله إنه فالبزير أصلي.

تظل تتنقل بين مدخل البيت والسطح تكلم جاراتها تنفض قماش فستانها الفضفاض عند الصدر بأصابعها، وتحكي:

هالشهر مش بطّال والإشتباكات قليلة. مع إنه آب اللهاّب. يمكن جماعة الشرقية زهقوا المشاكل وراحوا يصيّفوا بالجبال، يتركونا بحالنا الله والنبي معهم. يسعدهم ويبعدهم. أيْ والله هلكونا هلاك ما في مثله. سألته نجوز الشلبي. قال يمكن تيجي أمه من الضفة عشان تحضر العرس.

وعائشة تتحول الى تمثال فاقد الروح وهي تصغي، تسمع، وترى، ولا تستطيع غير التظاهر بالجفاء واللامبالاة. حتى أن أمها أنبتها على اهمالها وعدم سؤالها عن جورج. يزداد هزالها كلما انطفأ نهار جديد، وأشعلت شموع العرس

في خيالها تتدفع الى واحة سرية من البكاء حتى تبلسم أحزانها بكاء خفي تستمتع براحته الثقيلة التي تخدرها حين تحبس نفسها في الحمام مدعية الإنصراف الى الغسل وتنظيف الثياب تفرد قطع الملابس المتسخة، تنشرها تحت المياه المندفعة من الحنفية، وتبدأ في دعكها وعصرها وفي البكاء حيث لا يراها أحد يمتلىء الطشت بالماء، فلا تغلق الصنبور، وإنما تقف داخل الوعاء النحاسي الثقيل. تطأ الثياب بأقدامها وهي تتخيلها حراس سجنها.أناس بلا ملامح محددة، لكنهم خليط من أمها وأبيها وأهل الحي والحارة والأرض كلها تدعس عليهم بقدميها، تدوسهم بكعبي الرجلين، وتمرغهم بالمياه الطافحة وبفقاعات الصابون المنتفخة فاذا ما استنفدت حيويتها في الدعك والوطء والدعس والضغط على الجثث المبلولة، وفي النواح الصامت تتشرب أنينه وأوجاعه كجرعة سم تنحدر الى قلبها، تخرج منتفخة العينين، محمرة الأنف، وتتجه متسللة إلى السطح كي تنشر الثياب، فوق، في الهواء الطلق، بعيدا عن ضجيج البابور ونثيث الكاز تسترد أنفاسها اللاهثة، وتنغمر في تشرب ألوان الزريعة وتدرجات اخضرارها ترعى شجيرة الفتنة البارزة الأذرع، المكورة الغصون، المكتنزة ماء، بورداتها البيض الخارقة النعومة تبلل عريشة زهرة القاضي، التي تغلق بتلاتها مع الغروب ولا تستجيب لمحاولات الإستيقاظ إلا مع بواكير الصباح. تمد نظرها عبر أوراق الدالية المزروعة في برميل ضخم الى الأفق البعيد حيث بنايات القلعة وجسر الباشا. تستدير وتنظر

الى الشمال الشرقي فيصطدم البصر ببنايات الأشرفية العملاقة، تعرش فوقها غابات هوائيات التلفزيون السوداء تفتش الأفق عن بقعة خالية وتعرف أنها لن تجد تلك الجزيرة التي تحلم بها، لأن الحصار يطبق على المخيم من كل جانب قلة تحصى على أصابع اليد هم الذين يستطيعون الخروج أو الدخول. مالذي سيخرجها من الفخ الذي صارت أسيرته المخيم نفسه صار حبيس سجن قد يطول ويتأبد بدأت عائشة تفكر بضرورة حصولها على عمل، فلو كان لها عمل على الأقل، لاستطاعت أن تتحرك قليلا. ولو كان الوضع عاديا لحاولت إقناع أهلها، لكنها لا تجرؤ على التلفظ بكلمة واحدة أمام أبيها الآن، سيما وأن المصانع ابتدأت تغلق أبوابها وتسرح العاملين فيها فإذا كان العمال الأصليون فقدوا أشغالهم، فكيف الحال معها وهي الغريبة التي لا تعرف من أحوال العالم شيئا حسبما تقول أمها؟

وفي تجوالها بين أركان السطوح صارت تتواتر الى مسامعها النشرات الإذاعية التي يحرص جميع من في المخيم على متابعتها في ما يشبه صلاة جماعية تتداخل أصوات أجهزة الترانزستور، وتتشابك، وتتقاطع فلا يعلو على أصوات مذيعي أجهزة الراديو المتناثرة في كل الزوايا والطرقات، وعلى جميع المفارق، غير صوت ذلك المذيع الذي يدل الناس على الطرق الآمنة والسالكة بعيدا عن حواجز الخطف أو القنص. وبين هذا وذاك تتناثر عبارات غريبة بات حفظها مألوفا حتى للأولاد الصغار، كلمات من قبيل : انعزاليين

الطائفية السياسية. إصلاح النظام الإنتخابي. اتهام ببير الجميل للمقاومة أنها عميلة الإشتراكية الدولية ومن يوم لآخر، كانت الإعتداءات الاسرائيلية تزداد على قرى الجنوب ومخيماته غارات جوية متواصلة على عين الحلوة، صيدا، صور، والنبطية. وأسماء متعددة لا يكاد المرء يحفظها حتى يفاجأ بضرورة حفظ غيرها

والسيد يواظب يوميا على النزول الى ساحة الدكوانة يراوده الامل في تحسن الوضع، وفي عودة الأيام الى سابق عهدها فلا يجد الا المتاريس وقد ازداد عددها بين يوم واخر، وارتفع فوقها المزيد من أكياس الرمل والبراميل المحشوة بالأسمنت يستدرجه الوهم الى النزول هناك رغم خطر التقنيص الماثل دوما يهبط عليه، ويسحب خطواته مهيئا له أن ذلك الرجل ذا القلبق الواقف في بداية أحد المنعطفات هو أبو النمر فاذا اقترب منه اكتشف انه ليس هو يمشي خطوتين الى الأمام. يرفع كفيه الى جبينه، مغضنا جفنه وهو يحدق باتجاه المقهى، ولا يرى أحدا يغادر معجونا بالكآبة حاسبا بينه وبين نفسه احتمالات كثيرة يدفعها عن فكره لكي ينصب عليه هاجس ملعون كلما رفع رجله الثقيلة صاعدا التل، وهو ان عدم عودة أبو النمر تعني ان الحرب سوف تستأنف الى ما لانهاية يشدّ على نواجذه ويكلم نفسه:

أنا عارف الملاعين، لن يرضوا الا إذا لعنوا سنسفيل دين جدودنا، وهجّرونا من أول وجديد.

تفور حرقة سوداء مـــن جوفـــه كلمـــا اســـتدار وعـــاد خائبا يؤكد له يقينه الداخلي انه لن يرى أبا النمر أبدا من بعـــد. لأن خبرته الطويلة كحارس ســـابق فـــي مصنـــع علمتـــه ان الخواجات لا يتراجعون أبدا عما يقررونـــــه، وانـــهم ســـوف يستخدمون كل ما لديهم الآن لتحطيم المخيـــم ونزعـــه مـــن شروشه. سيظل الحصار محيطا بالتل مثل خـــاتم، وســـوف تزداد وتيرته شراسة ودمارا. حتى إن السيد بدأ فـــي تحميـــل الشباب المسؤولية بينه وبين نفسه، لماذا لم يهدأوا ويســـتكينوا ويكفوا عن حرب لا أمل لهم فيها؟.وآنـــذاك كـــان يبـــدأ فـــي استعادة سيرة جبروت التحكم الذي فرضه الدرك اللبناني علـــى المحيم. الرقيب أبو عبود الذي كان يتنصت على السكان مـــن الشبابيك، كي يفلح في اصطياد كلام المنازل الذي يُشتم منـــه آراء سياسية، ويدخلهم السجن الذي لا أمل في الخلاص منـــه يا عيني على المكتب الثاني وأيامه، من الذي ســـيقبل عـــودة سلطته من جديد؟ كان الناس محرومين من بناء سقف مكـــان آخر قد تداعى دون إذن الدرك والرقباء. والآن، انتهز الجميـــع فرصة خروجهم، خصوصا أفقر فقرائهم كي يصبوا البـــاطون محل العشش القديمة، فيرتاحوا على الأقل من سح المياه مـــن السقوف المثقوبة فوق رؤوسهم. لم يعد بإمكان الســـكان هـــدم بيوتهم والعيش من جديد في أكواخ الكرتون وعلـــب الحليـــب الفارغ.كما أنهم اعتـــادوا الآن علـــى دور "اللجنـــة الشـــعبية" و"الكفاح المسلح" ولم يعد أحد على استعداد لأن يقبـــل تعنـــت الدرك، واستباحته لهم بالغرامات والسجون.

- تفو على ذاك الزمن. يحسبون حالهم أولاد الست، ونحن أولاد الجارية.

بصق السيد جانبا وأكمل طريقه وهو يحادث نفسه بصوت عال، مستذكرا غرامة الخمس وعشرين ليرة التي دفعتها أم جلال للرقيب عبود لأنها دلقت ماء الغسيل أمام باب بيتها.

وهو ما الذي يفعله الآن؟ لقد وصل به العوز درجة العذاب، فكيف يمكنه تجميع ثمن زجاجة العرق. ينتظر فرصة غياب زوجته عن البيت لكي ينبش الثياب، ويفتش الطناجر وأوعية المطبخ، يتحسس كل شق في الجدار بحثا عن أوراق نقدية مكورة. فاذا فشل في العثور على ما يريد، وهذا ما يقع دائما، اندفع من فمه رشاش الشتائم مع رذاذ اللعاب الذي يتجمع على زاويتي فمه، مستمطرا اللعنات جميعها:

الكلبة تتظف للناس ولا تسأل عن بيتها سألعن أبوها، بدّي..

كان يبدو وكأن الأحداث انتزعت قوته السابقة جميعها يرغي ويزبد دون فائدة أو نتيجة، اذ أن كل مباهج الحياة توقفت بالنسبة له منذ كفَّ عن استضافة أصدقائه ومعارفه الخلص.

حين كان الصحب يتوافدون اليه، كان يشعر أن الحياة التي لا تسوى صرمة عتيقة تسترد حضورها المتألق يعيده ذلك الى كورنيش يافا، في أول الصبا أيام كان سليل أسرة تخاف الغد لأن وراءها عشرات الدونمات من بيارات البرتقال. ينتهي شغله في الحسبة مساء، فيسلِّم المحل الى الشغيل، ويهرع الى البيت كي يغير ثيابه، يرتدي البذلة الإفرنجي والطربوش الأحمر ذا الذؤابة الحريرية، ويخرج مع رفاقه إلى الشاطىء، يتمشون في العجمي، ويتعشون أسياخ اللحم المشوي مع البصل والبندورة. يذهبون ليلة الخميس إلى السينما، أو إلى ملهى يستمعون فيه إلى آخر الأغنيات والطقاطيق. عندما تزوج أراد أن يأخذ زوجته يوم الخميس الى السينما، لكن أمه منعته من اصطحابها، لكي لا تصبح مثل اليهوديات الكاسرات على حد قولها اليهود صاحبه الخواجة دوري كان أعز أصحابه، يحكي العربية، ويعيش مثلهم تماما كان يلتقيه مع الصحب في نهاية الأسبوع، ولا يقبل أن يشتري ملابس زوجته وهيبة إلا من محل الخواجة في تل أبيب أولئك الخواجات اليهود، من كان يصدق أنه سيطلع منهم ما طلع يكون الواحد جارا للمرء منذ غابر الزمن، وفجأة، يكتشف أنه انضم الى صفوف أعدائه في عصابات الهاجاناه وشتيرن تفُو على هاداك الزمن. تبعثر الصحب، وتفرق الركب ولم يعرف شيئا عن أخبار الخواجة دوري. يكفي عمايل أقاربه اليهود، وتشنيعهم بنا منذ هجرتهم المشؤومة من أوروبا. آه، من الزمن الرديء من موت وهيبة

الذي لا يزال يلسع قلبه حتى الآن. كان يجلب لها عقود "الرنجس فتشكله على شعرها مساء استعدادا لقدومه،.تتخلق مع أمه وزوجة أخيه، وتجلس على العتبة منتظرة إياه لكي تشكوهما له، فيجد صوتها مثل العسل على قلبه رغم ملامة أمه ونقيقها المستمر تضع على شفتيها الحمرة البنية التي تشبه العناب، وتطلي أظافرها باللون القرمزي، ويمكثان في غرفتهما تحت دفء اللحاف وناموسية التول المتحلقة فوق السرير النحاسي. تصرخ أمه من خلف الباب، لكي يسمعيا:

ما هذه المرة التي تتحومر، وتتبودر، وتتغندر بدل ما تقوم تمسح الدار والله ما حدا مبسوط بحياته الا الخماخيم؟!

تظل أمه تنق وتشكو طيلة النهار، فلا يرتاحان من تحرشها بهما إلى أن يعتصما في غرفتهما، ولا يغادرانها في صبيحة اليوم التالي. أتلك أيام، وهذه أيام كم أحبها، وكم يرف قلبه عند ذكرها قتلها تسمم الدم أثناء حملها أهذه مرة وتلك مثلها سبحان مبدّل النخلة بسخلة أتلك بلاد وأرض وهذه أرض وبلاد منذ تلك الأيام بدأ الشرب، ولسوف يستمر به حتى الآخرة لأنه يريد أن ينسى. ياما أحلى الشرب والأصحاب، فلولاهما لقضى نحبه منذ زمن طويل.

تتابعت نوبات غضب السيد تنفجر لأي شيء ودون سبب مفهوم. ما جدّ عليه هو حديثه العالي مع نفسه. كان يشرد على حين غرة، وكأنه نسي مبرر غضبه الوحيدة التي شعرت أن شروده الجديد يضفي سلاما على البيت كانت عائشة. ففي

غياب أصحاب أبيها الليليين صارت الدار أكثر هدوءا. كـانوا يحضرون مساء كل سبت ينشرون غمامة من رائحة اليانسون التي تثير الغثيان. يوزعون على بعضهم السائل الحليبي الأبيض، والسيد يتجشأ بين ضحكة وضحكة يصفق طالبا المزيد من البندورة والزيتون. يجلسون متربعين على الأرض، وأحذيتهم البالية مكومة عند العتبة يستل واحد منهم عودا عتيقا، يدوزن أوتاره، ويتأكد من سلامة ريشته العاجية، ثم يبدأ في عزف التقاسيم التي تلبث أن تتحول الى قدود وأدوار يشاركون في غنائها جميعا يجوّد السيد غناءه كأنه يتلو أيات مقدسة تصير أسماء سيد درويش وصالح عبد الحي دررا يتبرك المرء بذكرها وملامستها ينطلق شدوهم "ليه يا بنفسج" و "يا بلح زغلولي و "أنا هويت وانتهيت وكأنهم في تلك اللحظات ينتقمون لأعمارهم الضائعة يدور العزف والغياب داخل الجو السحري الذي تفرضه الألحان المتراقصة وسط الفضاء الدخاني المحتشد بالأنفاس، وعائشة تتثاءب على الطراحة المفرودة في الممر المسقوف بالصفيح، قرب أمها التي خضعت لإغفاءة عميقة يتمايل بها رأسها المسنود على الحائط ذات اليمين وذات الشمال.

في الهزيع الأخير من الليل، وحينما يتعب صاحب العود ويكف عن العزف، تخفت أصواتهم الخائرة. وتبدأ أحاديث السياسة التي لا تدور الا وتقطعها الزفرات وارتفاع الصوت، وحلف الأيمان والقسم المكرر بأنهم كانوا يعرفون تماما بأن ما حدث سوف يحدث. تتضارب أصواتهم، تتلاطم، وكل منهم

يؤكد للآخرين رؤيته المبكرة لعلامات المأساة والإشارات التي كانت تشي بمصير خروجهم الدامي من فلسطين تتصاعد اللوعات والشجون، وتتبعثر بين الزجاجات الفارغة والمشادات الصغيرة التي تتقاطع داخل رواياتهم. تستيقظ أمها بين لحظة وأخرى، تميل برأسها إلى شق الباب لكي ترى إن كانوا ما زالوا هناك، مرددة عبارات مبهمة حول تمنيها انصرافهم الى بيوتهم، لأن الصبي مع الفتاة صارا في "سابع سما" دون غطاء كاف أو ملاءات مادام الضيوف يحتلون الحجرة، فلن تقدر أم جلال أن تفرد "الركسة" التي يصفون عليها أغراض النوم. تنصت إليهم بين إغفاءة وأخرى، وعندما تفقد الأمل ينحدر رأسها مائلا على كتفها، ويتصاعد شخيرها متقطعا، متحولا الى غطيط منتظم يفضي بها الى نوم مضطرب تسهو عائشة ويند عنها أنين خانق بفعل صلابة الحائط التي تغرز الالآم في ظهرها ترى بين الصحو المنام جيوشا من النمل تجتاح ساقيها، وتحفر برؤوسها المدببة لحمها تظل تقفز بين صخور وحجارة وهي تغالب النوم، إلى أن يتركز وعيها فتصحو تغيّر من جلستها، وتلملم أطراف فستانها حولها.

عندما يشقشق الصبح ويكون السيد قد تعب مع أصحابه من تتبع ذكرياتهم حول ميناء حيفا وعمال "الرفاينري وحول معارك القدس وباب الواد، ومذبحة دير ياسين وسقوط "علما و "شعب "وصفورية" بأيدي العصابات الصهيونية وعندما يتصدى الكهل الأكبر في المجموعة لتقديم ملخص للجلسة قائلا:

كانت كل الثورات حياالله من دون نظام أو تنظيم. صحيح صارت معارك، واضرابات وتكسير دكاكين وطخ بالبواريد، بس كله كان نخوة ومن دون نظام رسمي. لو كنا صاحبين الأمر في بلادنا ما كان صار فينا هيك. الإندليز الله يلعن أبوهم. سلطوا الهجرة على فلسطين ومنعونا نحمل فشكة الذي يمسكوا معه طلقة يأخذ عليها سنة سجن في الحكم العرفي المسلط على رقابنا. يا ما بدّعوا فينا من دون مايخلفوا الله. "الإندليز يكفي انهم جابوا اليهود وجه البلاء. دبحوهم في بلادهم وجابوهم حطوهم في أرضنا.

وسرعان ما تندلع المناقشة حول النازي هتلر، وفيما اذا كان هو السبب لاستيطانهم في فلسطين. فيحسم معلم الثانوي الموضوع مرددا للمرة الألف أن الهجرة اليهودية الأولى الى فلسطين تمت عام ١٩٠٤ حين كان النازي لا يزال طفلا في حضن أمه آنذاك، وعندما تصير الغرفة مجللة بستار من دخان السجائر على شكل شرانق نسيجية، ويكون الولدان حسام وابتسام قد تبعثرا مثل جسم آدمي قسمت أعضاؤه ورميت حيثما اتفق عندها أخيرا يفطن السيد الى أن امرأته وابنته ما زالتا تجثوان في الممر خارج الغرفة فيتثاءب بصوت مسموع كي ينفض الجمع. ينصرف الأصدقاء وهم يرددون الأغنيات القديمة بصوت خافت يختلط فيه السكر، بثقل اللسان محاذرين أن لا يعلو ضجيجهم في الطريق كي لا تعَرض اللجنة الشعبية بهم كما حدث في مرة سابقة. وعندما تعاود أنفاس الصمت سيادتها على المكان كان السيد

يقوم الى الباب الخارجي فيغلقه، وإلى بقايا الطعام الملتصقة بقعر الصحون يلعقها بسبابته في لذة ونهم. يذهب لإيقاظ زوجته وعائشة، ودون أن يكلف نفسه عناء الاطمئنان على ترتيبات أهل الدار، يرفع جسده الخامل إلى السرير، يتسطح على ظهره، فلا يلبث أن يتصاعد منه الشخير ينام مطلقا الصخب والضجيج حتى خلال نومه في غيبوبته المدوية تلك، وكلما صعد صدره أو هبط، كان يمكن لعائشة أن تحاول الإغفاء من جديد، وشعور غامر يتملكها بأن جسدها لم يكن إلا مجرد حزمة أعشاب جافة نسيها الحصادون ذات ليلة في الحقل.

إنتبهت أم جلال الى أن لون وجه عائشة مثل الكركم، وأن عائشة بحاجة ماسة الى زيت زيتون أصلي من البلاد كي تتحسن صحتها، ويسترد لونها نضارته

هناك أرض البلاد، وخير البلاد. الواحد فينا يشرب كاسة زيت الزتون قبل ما ينزل عالحقله، وتشوفي وجهه مثل الرغيف. أين الخير، وأيام الحصاد أين الأرض يا كشلي لا تخافي يمّا، بكرة متى تتحسن الأحوال أعمل تصريح زيارة لنروح عفلسطين ونزور أهلي هناك. لا تخافي، هاليومين يوصلوا زيتات جورج من الضفة، ومناخذ منهم شوية.

تقوم أم جلال وهي تعرف أنها لن تحصل على تصريح زيارة لكنها كانت تمني النفس بذلك على مسمع من أولادها

كلما أحست بضيق يحاصرها ولا تعرف التغلب عليه كانت تهدهد ابنتها بالزيارة المستحيلة كمن يُغني لطفل أرق في نومه. لم يكن أي شيء يفلح في استرداد عافية عائشة التي تزداد نحولا وذوبانا. حتى في أسوأ لحظاتها، خلال الساعات الفجرية التي إنتزعت نفسها فيها من دفء الأغطية، لتعصر ممسحة الخيش في المياه الثلجية، وحينما لطخ البرد يديها بخدوش وتشققات تنز بالصديد أيام خدمتها في المدرسة، حتى في تلك اللحظات، فإنها لم تكن تحس تعاسة أعظم مما يعتريها الآن.

العرس! العرس. ها هي نهاية شهر آب، وبعد أيام يطل أيلول ويصير جورج مرتبطا بمكان آخر وأناس آخرين، وينتهي كل شيء بالنسبة لها ذهبت مع أمها مرات ومرات هنا وهناك، وحفظت غيبا كل ما يجهز من ترتيبات اعداد العرس الجهاز، والزفة، والحناء. لكنها ما لبثت أن شعرت أن مواظبتها على الذهاب مع أمها لا لزوم لها، فلا أحد يكترث بها، أو يسأل عنها ولم تحاول هناء أن تعاود سؤالها إن كان بإمكانها العمل معهم في دورة محو الأمية.بل إنها خافت أن تحس أمها بمكنون صدرها، ففضيحة مثل هذه أكبر من قدرتها على الإحتمال. الويل لها ! لو أنها ظلت خادمة هناك. لو أنها صارت عمياء ولم تقابله، أو ظلت تعيش بين نسوة الدير المتوحدات،لا يتحرشن بها مثل أمها التي تثرثر طيلة الوقت بصوت شاك حول نحول ابنتها وتضاؤل وجهها.

كانت رائحة سامة تشبه ذوبان معدن في مادة حمضيـــة، تطير فجأة في الجو حيثما ولت، وأينما اتجهت، فتمنعها عـــن التنفس وتصد شهيتها تندس في فتحتي أنفـــها رغمـــا عنـــها، تتبخر وتذوب بطيئا في أنسجة جسدها وفي مجـــرى تنفســـها كانت تشتمَ رائحة كارثة مقبلة لا تعرف ماذا سيحدث بعدهـــا. في تلك الآونة، كانت تذهب في السر كي تنكش أغراضه التـــي تحفظها أمها في قعر الخزانة داخل شرشف قطنـــي. تتحســـس جاكيته الأبيض خفية.تتلمس قماشـــه الكتـــاني عنـــد العنـــق، والذراعين. تفرده على صدرهـــا، تلمســـه، تجســـه، تمـــرر أصابعها على مساماته، وتستمتع بإيقاع خشونته على جلدهـــا، تنتزع خيطا شاردا من إحدى قطبـــه، أو تدلـــك ثنياتـــه كـــي تفردها.تلصقه بقلبها، تلثمه، تمرغ جبهتها عليه، تحس أن فـــي انكشاف السر مهانة تورطا في فضيحة غير مفهومة وغـــير مقبولة على الإطلاق. ظلت تخاف من الإعـــتراف الصريـــح أمام نفسها، فما بالك بالاخرين لكن جورج كـــان يـــدري. انكشف السر بُغتة يوم زارهم بعد انتهاء الإشـــتباك الأخـــير رآها كما لم يرها سابقا، مضمخة بماء الحنين، ملفوفة داخـــل غلالة من الشوق الأخرس. يكاد جسمها يشف ويتبخـــر مثـــل رقراق السراب كانت تشابه ورد الزعفران حين يذهب مـــن الإحمرار البرتقالي الى الصفرة الخريفية ضؤلت، وتصـــاغر حجمها، وتقبض جسمها وكأنه انضم إلى بعضه بعضـــا أدرك أنها تحب من ذبولها الهش الذي يذَكر بأوراق الشجر الساقطة لكنه لم يستطع التكهن بمن يكون هذا الذي تهواه. أحـــس أنـــه

كبر دفعة واحدة، عندما وجد أن من يعتبرهم أطفالا قد بدأوا يتغيرون. كل تغير حميمي في الخارج كان يمسه مثل حفنة مياه باردة تدفعه إلى الصحو، فيذكر أنه غادر البلد منذ سنوات طوال تضاعف من حنين كان يكتمه فوجىء بتغير هذه الصبية الذي لم يتوقعه، وأحس بفارق السن بينهما بشكل أكثر حدة تعود أن يدفعه العالم لأن يكبر بسرعة فائقة الشيوخ يعتبرونه وريث حكمتهم، والنساء يعاملنه على أنه الإبن الأكثر نباهة، والرجال يجعلونه المثال والقدوة لأنه محارب والأولاد يظنون أنه الأب الأكثر صبرا ألف أن ينظر الى الفتية والصبايا بحس من الأبوية التلقائية وعائشة لم تكن طفلة تماما، إنما كانت تراوح بين المنزلتين. انتبه إليها ورآها. الثوب الزهري الواسع ذو الكسرات العريضة، ضفيرتها المرمية على جانب كتفيها الحاجبان الكثيفان دون تشذيب، ابتسامتها ذات الطيبة المتناهية التي تناقض عصبيتها الخفية وصوتها الذي يختفي وكأنها ابتلعته إذا ما بادرها ضيف أو زائر بالكلام.

رآها هذه المرة كما لم يرها من قبل. نحيلة، مرهقة، تكاد تنسكب ضعفا على العتبة التي عبرتها داهمها جمال غريب لا يثير الإرتياح. جمال الألم والعذاب حينما يتركز بشكل خاص في بؤبؤي العينين فتتجليان بوهج حجر أسود في بركة مرمر شفاف تعجب لهذا التغير الذي طرأ على حالها وازداد تعجبه حين تورد وجهها في حضرته، فصار يحس أن هناك لغزا في مكان ما. أهو يعرف الحبيب دون أن يدري أيكون واحدا من أصدقائه ؟ لكنه، مالبث أن نسي الموضوع

دفعة واحدة، حينما بشرته أم جلال بموافقة أهل هناء. هناء التي كان مأخوذا بها منذ عودته من تلك الرحلة الخارجية وهو مضطرب الجنان تجاه النساء. هناء هي الوحيدة التي أراحته، وجعلته يحس بأن ثمة انعتاقا من هذه الحالة يعرف تماما أن مواصفات أمه أو شروط أخته لبنت الحلال الصالحة لا تنطبق عليها لأنها ليست شقراء ذات عينين زرقاوين. ولم تكن هادئة، أو صامتة "تسطو القطة على عشائها" حسبما يقولون. كانت شيئا مختلفا عن كل هذا سفره الى الخارج أطاح بعمق طمأنينته السالفة تعرف على كثير من النساء اللواتي يظهرن كاملات في البداية، إذا أخذ بعين الإعتبار مظهرهن وثقافتهن أو استقلاليتهن. أولئك اللواتي لهن مهن بسيطة أو مهمة، لكن الذي أثار متعته كما خلّف صدمته فيما بعد إنما كان سهولتهن. سهولة الوصول الى أبعد خفايا أجسادهن دون أن تكون علاقته معهن تستدعي هذه الحميمية التي يصعب أن يقدمها المرء الا لشريك حياته وحده. نساء مجانيات ! هكذا أحس وشعر يجيد المرء معهن تبادل النكات أو الهدايا أو إيماءات الغزل الحسي الشامل إلى أن يصل فراشهن، لكي يكتشف في صبيحة اليوم التالي أنه ليس الا غريبا عابرا بالنسبة لهن، وأنهن على استعداد لمبادلة الغرام الحار مع الكثيرين من الغرباء أمثاله. رآهن في المطعم، المدرسة الحزبية، المقاهي، في المترو، وفي طرقات غير متوقع العثور عليهن فيها نساء طيبات، يتمتعن بحمية دائمة لبذل كل ما يستطعنه في سبيل أصدقائهن. إلا أن مجانيتهن

هذه لم تثر ارتياحه بتاتا لم يستطع القبول بأن منبع مشكلته هو انه ابن فلاح جاهل. تمنى في قرارة قلبه أن يعود كي يتزوج ويرزق بأطفالا أن يعثر على إنسانة خاصة تتفهمه وتجيد محادثته لم يستطع أبدا أن يتقبل عالم الصمت الذي عاشته أمه الريفية طيلة حياتها ولهذا أحب هذه الفتاة وبدأ في الإهتمام بها حب؟ إعجاب؟ غير مهم. المهم أنه يرتاح اليها، ويتحرق شوقا لسماع ثرثرتها المحببة كانت ابنة فلاح لاجىء، عمل في تجارة التوصيلات الكهربائية، واستطاع أن يوفر لعائلته استقرارا ماديا كفل للفتاة تدليلا وعناية يفوق ما تحصل عليها مثيلاتها في المخيم. وبفضل موقعها الأسروي المميز تسنى لها حق المساهمة في اختيار شريك حياتها، وهو الشيء الذي قد يصعب على من كان في سنها الحصول اليه بعث لها مراسيل عديدة، لكنها لم تقبل أن تلتقي به على حدة، مما أثار ارتياحه لكنها وافقت، مهدت الطريق أمامه، ولم تخذله.

هناء، كانت على العكس تماما مما تمنت أمه له جمالها الحيوية والصخب تبث نسغها الدافىء حيثما اتجهت تتحرك وتحكي وتضحك طيلة الوقت تروي النكات وتستقبلها وكأنها لم تخلق إلا للبهجة والتواصل. تماحك من حولها، تمازحهم، تنط وتقفز، ويعلو صوتها على الجميع، وكأن كل الناس ليسوا إلاّ أفراد عائلتها، وهذا العالم ليس الا بيتها الضيق. تلقي بلمستها على أغلظ الأشياء فتصبح أليفة في التو، وكأنها لم تخلق إلا في انتظار حضورها. لكم كانت خليقة بأن تدجن أشياء الجماد، وأن تحل أعصى العقد وأكبر المشكلات التي

تواجه من حولها تثور، وتخانق عندما لا يعجبها شيء وتخرج عن نص البرقية التي يكون عليها إرسالها عبر جهاز اللاسلكي لترمي بتعليق أو شتيمة للعدو الذي يلتقط الكلام الملغز لا يهمها تأنيب المسؤول اذا أرادت أن تلقي بالتعليق الذي يروي غليلها تتضاحك وتحول أية ملاحظة إلى مجرد مزحة صغيرة لا تثير ضغينة أو رد فعل عليها. تقول ما تريد، وللمسؤول أن يؤنبها فيما بعد كما يود. المهم أن تعبر عن رأيها، مهما كان شكل التعبير فوضويا.

فكر جورج بأن حياتهما سويا سوف تشذب ردود فعلها وتذكر كيف أوصلت له رسالتها الملغزة بتجاوبها مع الولع المكتوم الذي يُكنه لها أشعرته نظراتها أنه مميز أكثر من غيره. ظلت تضحك له كلما أتى إلى غرفتها ورمى بنكاته الفاشلة أمامها ففي الحقيقة أن طابع الجد الذي يميز حياته منعه من إجادة القاء النكات التي يتفنن الآخرون في حكايتها أراد أن يقترب منها حسب طبيعتها هي، ولذا بادر الى إخبارها بالقصص الهازلة أو الساخرة التي تدور حول أناس قريبين، فلما أشعرته بانفعالها الشديد بما يرويه خبر بؤرة مزاجها حتى لو حكى أي شيء سوف لن توفر اعجابها بما يقوله التقط إشارتها وذهب بالوساطة إلى أهلها هي من جانبها صارت تعامله على أنه خطيبها الرسمي حتى قبل إعلان خطبتهما على الناس. نسقت مواعيد دوامها في المكتب مع مناوبته تحضر له سندويتشات الفلافل وحلوى الحلبة التي تجيد أمها إعدادها، وتسهر معه متحدثة عن الأوضاع والأخبار كلما صمت الجهاز صارت العلاقة بينهما الآن أكثر

طبيعية وتلقائية، وما عاد بحاجة لإفتعال أحاديث تثير اهتمامها.

صديقه حسن، الذي يعمل على الجهاز، أخبره أن لهناء اسمها السري الذي يتندر به الرفاق تعليقا عليها يسمونها "الكاسرة" لأنها تتصادم مع كل من لا يعجبها. قال:

هي بنت منيحة، ممتازة، لكن كاسرة. صحيح تنظم البنات ومسؤولة جهاز الإشارة، بس لازم أقولك إن سمعتها شرانية كتير اذا حدا ما عجبها ما حدا يسترجي يقرّب عليها كثير قبلك حاولوا وما قدروا دير بالك يا أحمد. لأ جورج قصدي!

ولم يكن حسن ليناديه باسمه الحقيقي إلا لأنه الوحيد المخول بحفظ استمارات الأسماء السرية، التي كان يستخدمها أحيانا في مناداته لأصحابه المقربين.

لكن جورج هو جورج، ولعل اسمه الاخر كان أحد أسباب فرادته والحقيقة أن حسن كان شبه متأكد من أن جورج هو الإسم الأصلي، وأن الإسم الآخر لم يكن الا نتيجة خطأ وقع في تدوين سجلات الأسماء. ففي عالم المقاومة يمكن للمرء أن يعيش عشرين سنة دون أن يعلن اسمه الحقيقي، لأنه يستطيع الإحتفاظ به داخل السجلات السرية حتى إعلان الإستشهاد.

أراد جورج أن تتم هذه الزيجة كي يكتشفها، ويرتاد دفء عيشها وحميمية عاطفتها التي لا تكشفها أمامه وجدها يوما في المكتب وحدها في العشية. احتفظ بكفيها بين كفيه، ولم يطلقهما أصابها جزع من أن يراهما أحد ، فارتجفت نبرتها ارتعشت، فكأن خوفها من وحدتهما طغى على سرورها المزهر على بشرة وجهها بدا شيء من الخشية على تقاطيعها، قال:

- بحبك أكثر من ما كنت أعرف. متى تتجوزيني؟

- وأنا كمان. لكن ليس بامكاني أن أعمل شيء حتى يرتب أهلي أوضاعهم.

حدقت فيه بايماءة طفولية، وعلى وجهها اختلاط الرغبة بالذعر، التفتح بالتوجس، واليقين مع الخوف.

* * *

لم تعرف عائشة ان كان ما تسمعه في هدوء الفجر هديل يمامة أم ترداد طير آخربعيد بدأت تستفيق فجرا على صوت الهديل يأتيها من مكان قصي وكأنه صدى المجهول الذي لن تعرفه أبدا حاولت معرفة مصدر الصوت فلم تفلح. لم يكن في الزقاق أو الحارة من يربي اليمام. في وهج الصباح دققت النظر في الحوائط القريبة، وفي فتحات الأسوار، وعلى أسيجة السطوح المجاورة، فلم ترها. كانت اليمامة مختبئة في مكان ما. تترغل، وتهدل، وتبكي في الساعات الأولى لإنبلاج

الصباح، ثم تصمت تماما حين يعم الضياء تســـتلقي عائشـــة على الفراش قبل أن يشق النور طريقه الى خـــروم الشـــباك. تنصت طويلا، وكل يوم لما تحسبه حديثا فجريا يشارك فيـــه قلبها المكلوم. يصير الهديل حوارا ملغزا، يفتح صفحات القلب، ويجعلها تحس بأن هناك أخيرا من يعاني مثلها ويشـــكو لـــها ويتشاكى معها صحت عائشة يوما واستغرقت فـــي شـــؤون الدار فجأة رفعت رأسها وانتبهت إلى حافة النافذة. كانت هناك حمامة بيضاء ذات طوق بُني لامـــع، مـــدت عائشـــة يدهـــا، وأومأت لها بالدخول. ثم تذكرت أن بإمكانها أن تنثر لها بعض الطعام، ركضت عائشة الى المطبخ فلما عادت وفـــي يدهـــا حفنة قمح لم تجدها.أقلعت الحمامة، ولكنها عادت كانت دائما تعود في الفجر، وإن لم تعاود عائشة رؤيتها أبدا الـــى حيـــن مغادرتها التل.

لكن الذي لم يتوقعه أحد كان خطف والد هناء وهو فـــي طريقه الى المنطقة الغربية في بيروت عائدا الى المخيم فـــي ظهيرة يوم اعتيادي، وهادىء جدا كل الناس كانوا يتوقعـــون انتهاء الأزمة بشكل أو بآخر مع نهايات الصيـــف، والبعـــض الذي بالغوا في التفاؤل صاروا فريسة الحواجز الطيارة التـــي تزرعها الميليشيات المسيحية رغم إنكارها التام في تصريحات قادتها لوجودها كان الكهربائي العجوز عائدا الى محله ومعـــه بعض قطع غيار السيارات ثم.وقعت الواقعـــة.

عندما وصل الخبر إلى بيتهم، دقت أم جلال على صدرها بهلع وتحسّب:

- يا كشلي على غلبْنا. ما صدّقنا تـهدا الحالة ليروح ينخطِف الزَلمة. طِلعَت الفلَةْ براسنا. يا ويلي على هالمصيبة كيف جورج المسخم يتجوز إلا لحد ما تنحل المشكلة. يا ريتهم استنوا يومين ثلاثة وبعدين خطفوه، عالقليلة ما تفركشت جوازة بنتهْ المسكينة. لن يصير العُرس الآن إلا اذا بَين الرجَال.

اصطحبتها أمها إلى بيت هناء، وهي تردد على الطريق بتلعثم وتأثر

- يخرب بيتهم. يقطعهم ويقطع كل الحواجز معهم. قال حاجز ! قال! يعني ما بيكفينا كل النكد والهم حتى يأخذوا عم جورج ! يا ويلي عالحزين الشلبي، ول! ول! قالوا للحزينة تفرح ما لقيت مطرح.

تجمهر الأهل والجيران في دار هناء. اكتظ الصالون بالوافدين الذي جلسوا على الأرائك وكراسي القش الصغيرة المستعارة من بيوت الجيران. اقتعدت العجائز الطاعنات في السن طراحات ممدودة في البهو الخارجي. ووقف رجال الميليشيا بأسلحة الكلاشنكوف المعلقة على أكتافهم على باب البيت. كان الحشد يكثر ويقل. يزداد وينحسر داخل الحجرة التي تصير مثل موج يعلو وينخسف كلما ذهب حشد واحتل

مكانه أخر ينفس الجميع عن غضبهم وانزعاجهم باطلاق الشتائم مع عبارات التأثر والعطف على أبي هناء. يعاود أهل البيت رواية التفاصيل، وكيف أن الرجل المسكين نزل دون أن يخطر له أن تحسن الوضع إنما هو كبرقوق نيسان.

العبارات الحزينة والحاقدة تتناثر، تضيع بين فناجين القهوة الكثيرة التي تلف على الضيوف، وسحابات دخان السجائر تحجب وجوه شباب الحارة الذي تهافتوا على مقر الإستضافة المباغتة السخية اهتدت أم جلال الى طريقة للتعبير عن تضامنها مع أم هناء اقتربت من أم هناء المنتفخة الجفنين، الممعطة الشعر، وهمست بالسر:

- شدّي حيلكْ يختي مصير المشكلة تنحَل. جورج راح على لجنة الإرتباط يشوف طريقة يفتشوا عليه عالقليلة لا تخلي بيتك سايب في هالحالة، القهوة وفهمنا، لكن السجاير يا خسارة. شو هالمصروف ضبّيها بغرفة النوم أحسن.

نظرت أم هناء الى الصينية المعدنية "الستينلس"الطافحة بعلب السجائر المهربة المختلفة الأنواع. والتمعت عيناها المنطفئتان بفعل بكائها المتواصل:

- يا حسرة! هي وقفت عالسجائر ياريت صحابنا وعدوينا يدخنوا كل سجائر البلد ويرجعوه يا أم جلال.

البركة في جورج يختي. ولو هو يعمل.
شدّي حيلك ولا يهمك. مصيره يكون عندك بعد يومين عالكتير.

وعائشة التي تنتظر جورج الغائب. جورج الذي لم يحضر اغتمت، وتمزقت بين طوفان الحزن حولها، وبين ولعها المجنون بفكرة تأجيل العرس الى ما لا نهاية لأنها لأنه. تريد. أن. وليس من حل آخر بيت آخر ومكان مختلف أو فتاة أو عائلة، أو، أو انتظرت عائشة لم تتململ ولم تطلب من أمها المغادرة. فلربما يأتي جورج.

تضايقت من كثرة الداخلين والخارجين، من السوداوية التي تحف الجو، من التوجس المأتمي بأن يقتل الرجل المخطوف وأن لا يعود. كرهت نفسها بسبب تحبيذها الباطني لفكرة أن لا يرجع الرجل كي لا يكون عرس. يتأجل إلى أجل غير محدود، ينتهي قبل أن يصير. يبقى الجاكيت في قعر الخزانة فتشمه طويلا، طويلاً دون أن تخشى رحيل صاحبه وأن لا يظل لها تمتد أصابعها لملامسة نسيجه بشغف ويغص قلبها لأن صاحبه سوف يبقى في مكان آخر بعيد. تلبس الجاكيت. تتجلل به رغم أنه أكبر من مقاسها تسترق إليه النظر لترى كيف هو عليها. تحمله، تهدهده بين ذراعيها تفرشه على جلدها، وتنام داخله. تنام. ويظل صاحبه لهم. لها.

الرجل. الفدائي. الشاب. الهالة النورانية، والضحكة التي تلتمع في الحدقتين الجذلتين.

يظل لها، هي التي ليتها لم تكن هي. ليتها كانت مثل تلك الفتاة هناء. تحجل، تقفز، وتنط كما الفتيات الصغيرات تحكي مع الشباب، تثرثر معهم، تتدلل، وتعلك المستكة بإمالة فمها إلى جانب دون أن يعنفها أحد، أو يزجرها، أو يحبسها أو يمنعها عن الخروج. تتجه إليها النظرات باعجاب ومودة ثم جورج - يأتي. ينظر اليها يحبها. ثم و.. ويا ريت!

ليت انها تكف عن أن تكون عائشة التي يفرض الأهل عليها وضع الإيشارب في الطريق، والتي تسير وصدرها منحن الى الأمام يكاد ينطوي على جذعها خجلا وضعة لو أنها لم تكن هي، لأنها لا أحد يراها أو ينتبه لها موجودة على ظهر هذه الأرض وغير موجودة. كأنها موقف باص يتوقف المرء أمامه لشراء علبة كبريت، ثم يدير ظهره ويمشي.

ليت أنها ظلت بعيدا، بعيدا، هناك.

(٧)

منذ زمن طويل لم يدخل السيد الى البيت وهو يترنم بمقطع من إحدى أغانيه القديمة التي يحبها كما في هذا اليوم من نهاية الخريف اضطربت عائشة وسقط قلبها بين ضلوعها خطر لها أن أبا هناء عاد، وأن موعد العرس تعين مرة أخرى. ناداها السيد، فأتت من المطبخ دون أن يتسنى لها غسل الدُمغ البنية المتخلفة على أصابعها بسبب تقشير البطاطا. تعلقت قطرات الدمع التي أثارها البصل المقطع على رموشها وهي تنظر الى السيد مترقبة ما سيقوله لها مازحها السيد، ناداها عَيّوش. وضع سبابته على ذقنها، وأخبرها بحنو أثار شكوكها:

– ولكْ بنتي عايشة. ياما أحلاك وإنتِ كبيرة. صبية ولا كل الصبايا.

تقهقرت الى الخلف، وهي تنشف كفيها بقماش فستانها من الخلف. تجمدت في وقفتها، ولم تعاود التحرك كي لا ينتبه الى جفولها. نادى زوجته بصخبه المعتاد:

- حضّريها يا أم جلال، حضري بنْتك عشان الخطيب جاي الليلة.

فغرت أم جلال فاها. لكنها ما لبثت أن رفعت صوتها متسائلة

- خطيب ؟ يعني جايين يخطبوها، الليلة ؟

قال وهو يصفق كفيه على جيوبه مفتخرا:

أيوه. ليش لأ ؟؟ مش بنتي صارت صبية كبرنا يا خديجة، وآخرتنا نصير جْدُود وإحنا مش حاسّين.

ذهلت عائشة توسوست حملقت عيناها وأحست أنهما ستخرجان من محجريهما.

جرجرت قدميها عائدة الى المطبخ حيث لحقتها أمها:

- شو القصة؟ شو السيرة؟ هو جوزك جنْ ؟؟ مين قال له عايزة أتجَّوز؟؟

وتجيبها أم جلال بمزاح طيب، ويداها منشغلتان بإكمال فرم البندورة:

- وطّي صوتك أَحسن ما يسمعنا. يا بنتي هالخبر بيفرح، ليش زعلانة؟ كل الصبايا بيتمنوا يتجوزوا.

- مين. قال لكم أتجوز؟ هي الجوازة كيف ما كان:

- وإلاَ يختي شو بتعملي تصيري دكتورة جامعة، والّا أستاذة فرنساوي ؟ شو هالحكي ؟ الولد شبّ ومحترم، وما ناقصه شي.

- بس أنا قلب لا، يعني لا

- يمّا العريس محترم وظريف هوطالب جامعة في...بدي أتذكر أسمها الجامعة العربية قال بيدرس اكتصاد. وبيشتغل في الجبهة كمان. شافك يوم ما كنا في بيت هناء وقت خطف أبوها راح لجورج وحكى له. الليلة "اسم الله ما شاء الله هُم جايبين بألف عافية وهنى.

- يمّا هو الجواز طُبّ طبتَك العافية والله ماني قابلةْ.

اسم النبي محمد عليك. شو السيرة؟ بدك أصير ضد جوازتك ؟ مصير البنت تتجوز أول على آخر

لا والله لا

- ما تغلّبي حالك. إذا أبوك قال يعني شو يطلع معك؟ ليكون ناوية تعنسّي وتقعدي في البيت علشان الناس تقول بنتكم بايرة؟

- طيب. أتجوز لكن مش هلأ ومن رجل لا أعرفه.

أحلى نعملك "لاندفو عشان تقبلي؟ بعدين.شايفة الحالة، من وين نجيب أحسن منه؟

- طيّب. روقوا. لتهدأ الأحوال. لشو تتخلصوا مني؟

- إنضبي ولهِ. إنت بنتنا على عينا وراسنا. أبوك رضي عن الزلمة معناه منيح. وإذا ما عجبك روحي قوليله، أنا لا أمون على أحد حتى ولا على حالي. بعدين إذا جورج يقول عنه منيح...

- فهميني يمّا شو خص جورج ؟ شو اللي دخلَه بالنصّ؟

أف بلا حكي. هو أعز رفيق عنده. صاحبه الروح بالروح.

- شو دخلُه ؟ باقي علي جورج كمان!

لا تعملي من الحبة قبة. صاحبه حسن طلب يخطبك ويجي معه عند أبوك. يا حرامِ أبوك شو فرحان.خلّيه يشوف يوم حلو في حياته ما فرح بإبنهُ يفرح فيك.

بكت عائشة انفعلت وأطلقت فيض دمع، شهقات وأنينا مكتوما لكي تحزن عليها أمها، وتطلب الشفاعة من أبيها لكن أحدا لم يسمعها فيما توهمت أنه عقاب لها، وفيما رأى الاخرون أنه تكريم ومسرة. أهملتها أم جلال كما يفعل المرء مع طفل شقي أراد التمرغ في الطين. لم تكن هناك فائدة من الكلام، والأم تنتقل بين المجلى والبابور المحمل بالبطاطا المقلية بالزيت لم يكن هناك أي جدوى. استجمعت عائشة أطراف شجاعتها ابتلعت دموعها، وخرجت إلى أبيها كي تتكلم معه. كان لا يزال مستندا على الطراحة بكوعه ،

والدخان يتصاعد من لفافة التبغ المستدقة بين أصابعه الجلفة، ونظره يتابع الدوائر الغائمة الصاعدة في فضاء الحجرة. لم يكن حولهما إلا صوت البابور الذي يُسكت الأصوات الأخرى بنحيبه المتواتر انتبه السيد اليها..التفت، فالتقت أعينهما دون كلام. رمى بنظرة متوعدة ألجمتها وأخرسب فمها بدا بحدقتيه العسليتين مثل ذئب على وشك الإنقضاض على فريسته أطفأ سيجارته وهو ينظر إليها سحق العقب المشتعل على البلاط وهو يتطلع في وجهها أنشأ في فك حزامه خلعه ثم مدده على الأرض قربه أصر على إضفاء إشارة حول امكانية "القتلة" التي ستكون من نصيبها بواسطة الحزام الجلدي الجاهز للضرب. انها لن تنسى يوم رفضت اعطاءه السلسلة الذهبية التي أهدتها الراهبات لها جلدها بحزامه، فأوشكت على الموت الى أن أبعدته الأم عنها انتزع السلسلة الملتفة حول رقبتها بحركة عنيفة، ومضى دون أن يتلفظ بكلمة واحدة. لفترة طويلة بقي الوشم يدبغ جلدها، خطوط طولانية عريضة تحولت من القرمزي إلى الأزرق، ومنه إلى الأخضر المسود، ثم إلى البنفسجي الذي ما لبث ان اختلط بالبرتقالي الشاحب

عندما خلع الحزام، تذكرت عائشة، ونسيت ما كانت تريد قوله في التو والساعة. لم تنس، لسانها، هو الذي عجز عن الكلام. أيتكلم المرء مع وحش. واذا تحدثت فماذا ستخبره؟ أتقول له إنها لا تريد ؟ ولكنه، هو يريد. ارتخت ركبتاها، تضعضعت مفاصل الساقين وعجزت عن حملها. الوجع. مرة أخرى، تغيم الرؤية أمام عينيها فتركض خارجة إلى السطح.

جرى كل شيء بعدها في حركة دورانية، وكأنه أنشوطة تحيط برقبتها. كل شيء دار، التف مثل حبل، واستدار حولها كي يشد وثاقها في المساء أتى الخطيب وكلّم أباها. أصرت على المكوث في المطبخ طيلة الوقت، ولم تر سوى صحارة العنب التي أحضرها الرجل معه، قالت أمها:

- شوفي يختي شو مذوق! نيالِكْ عهالأخلاق انشالله ما يخلي شي الا ويحمله لبيتك.

وعائشة تحدق إلى عناقيد العنب الخمرية، فتراها دماءها المسفوحة في عز شبابها لا أحد يسأل عنها أو يهتم بما يؤرقها الكل سعيد عداها، الكل فرح في عيد ذبحها. والوليمة الليلة، هي وليمة جسدها ونفسها التي تباع بقطوف من العنب الشهي. الخسيسة ابتسام تلف وتدور حولها

هلأ يصير لنا كمان عرس، نحن وجورج. نيّالنا

هي ..هي.

والأم تعقّب وهي بسبيلها الى الخروج بصينية أكواب الشاي

- يا رب تفرجها علينا، وتسهّل رجعة أبو هناء. هو ما لقي ينخطف إلا قبل الجوازة!! أعوذ بالله وهالمسكين شو دخله ؟؟ يمكن انقتل، لا حس ولا خبر وما نفعْ شيء لا لجنة إرتباط ولا من يحزنون

كان جورج يحادثهم في موضوع لم تستطع سماعه بسبب ضجيج أخويها، وعراكهم على المخلوطة التي أحضرها الأب ظهرا.

جورج. حتى هو. كأنه لم يكفها أن يكون الجميع ضدها! توشك الحيرة أن تزلزل صوابها. هو؟ جورج؟ ماالذي أدخله في ورطتها؟. انها لو استطاعت فسوف تهرب، إلى أي مكان. تصير صانعة في المنطقة الغربية الناس يتخلون عن حاجتهم الى الخدم حتى في أيام الحرب. ستذهب الى رأس بيروت حيث يعيش الناس الأكابر تخدم في أي بيت ولا تخرج الى الشارع كي لا يجدها جلال. يسحبها من كتفها، ويعيدها إلى الزواج رغما عنها إذا لم يستح هؤلاء الأوغاد فستهرب لا محالة حتى وإن كان جورج! جورج الذي يحب صديقه كثيرا، وإن كلفه ذلك أن يدمر حياتها كم كانت تحلم بانتهاء الإشتباك كي تخرج من التل وتدبر أمرها والحبيب يا لها من بلهاء يريد مثلهم تزويجها. والله ان ما تردده أمها دائما في عبارتها الشاكية ينطبق عليها "اللي ما إلو بخت لا يتعب ولا يشقى

كانوا يشربون القهوة الحلوة الآن، ويأكلون صحون "الرز بالحليب التي جهدت أم جلال في صنعها والعريس اسمه حسن. رددت الإسم أمام نفسها بهمس فربما تستطيع أن تعرف ماذا يريد هذا الحسن منها.

حسن شقيق فايز الذي استشهد في حوادث صدام الجيش بالمقاومة في أيار ٧٣ من في المخيم لا يعرف البطل الذي

رد الهجوم على المخيم بجسده وحياته. لم يدخل حسن الميليشيا الا بعد استشهاد أخيه كان عنصرا طلابيا فعالا في جامعة بيروت العربية وكان يدرس على حساب "الأونروا الوكالة" التي شطبت اسمه من لائحة الإعاشة مقابل تسديد الرسوم والأقساط. يوم استشهاد الأخ حمل حسن بندقية أخيه الشهيد، وحلف أن يأخذ موقعه لم يصغ حسن إلى توسلات العائلة بأن يواصل الدراسة، ويكفيهم شر التوجس الدائم تجاهه كل أخواته بنات، وحسن هو الشاب الوحيد المتبقي لها منذ ذلك الحين أرادت أمه تزويجه وحسن يرفض، ويتهرب دائما فما الذي دفعه الآن للإلحاح على أهله أن يخطبوا له ويزوجوه؟ لماذا لم يخطر له أن يعجب بها إلا الآن، وفي أحلك ظروف حياتها؟ تساءلت عائشة ستهرب، ما في ذلك شك ستترك المنطقة إلى الأبد. لكن. الطرق مغلقة فمتى ينتهي كل هذا من هو هذا الرجل الذي لا تعرفه، الذي يندفع اليها دون تروّ، فقط، لأنه رآها في مناسبة حزينة ؟ من هو كي يصير بكل بساطة زوجها؟

حدقت إليه خفية من شق باب المطبخ، ولم تر سوى أنه لا يختلف عن بقية الشباب الذين يملأون شوارع المخيم. شيء يميز سماته أو كلامه فهو لا أسمر ولا أبيض. لا شاب ولا مسن. غير مهتم بحلاقة ذقنه أو اطالة لحيته، كأنه غير ملتفت الى العناية بنفسه عيناه بنيتان، ليستا فاتحتي اللون ولا داكنتين. شاربه غير مميز، فلا هو بالرفيع ولا بالكثيف أما قوامه، ففي منتهى العادية، فلا هو بالطويل أو القصير إن من

يراه ينساه بعد لحظة أو لحظتين في أفضل الأحوال. فما هو الداعي لجذبها الى الزواج الان؟

انها ستهرب.

بداية أيلول.

الإشتباكات مرة أخرى. لم. لم. تمهلها،.ما الفائدة المعارك. الحرب المصيبة من جديد.

حدثت الإشتباكات من جديد، ولم تمهلها لتهرب لتتنفس. أو لتفعل أي شيء.

كرت المعارك مثل الكريات الزجاجية "الكلل التي يلعب بها حسام. كريات براقة تلتمع بين أيدي الصبية تدور بخدوش مثلمة تحز قطرها الشفاف الملون. تكر على التراب، تلتقط حباته السوداء تتجلل بها ثم. تنزل في الحفرة. سيموتون جميعا بهذا. خفقان قلبها يقول لها يحدثها شحوب الوجود الخائفة في الحجرة بلون الطباشير وأمها التي تدق على صدرها بأسى. وهي تحشر الولدين في الزاوية:

- يا الله، شو عملنا لك؟! أي بكفيش المر في حياتنا حتى تنقلب الدنيا فوق روسنا ؟ من وين بدي أشتغل هلأ؟ كيف بدنا نروح ونجي ؟ كيف؟

الكريات. القذائف الكلل. النار تئز فوق رؤوسهم في السماء. تلتمع. حرب من البرق والرعد. عربات صخب تقرقع فوق الأسطحة. تنفجر. تطير مع الصاعقة وتحرق اللحم الآدمي. تفني. الناس. البشر الحمام. الماء. الطين. الماء. الدم وكان السيد صامتا تماما على غير ما هو متوقع. يجمع جسده مثل قنفذ قرب حافة السرير لا يرى أحدا لكنه يصغي إلى كافة الإذاعات بانتباه شديد.

كان يحتسي كؤوس العرق واحدا إثر الأخر واجما، كمن اتخذ قرارا بينه وبين نفسه هادئا دون شتائم أو لوم أو تعنيف لا ينكش سيرة الوضع إلا في ساعات الهدوء القليلة مع جيرانه الذين يطلون على الأسطحة آنذاك ينطلق تأنيبا وتعنيفا ولوما على مصر التي تعقد الإتفاقيات مع الإسرائيليين مخلفة الحرب والجروح لمنْ هُم هنا وحين كان جاره النجار يطلب منه اثبات هذا، كان يعجز عن إيراد حجة أخرى غير تلك العائدة إلى سماعه المتواصل للإذاعات:

ــ هذا إبن الحرام السادات مش سائل عنا وعن مشاكلنا كله من اتفاقية سينا لأنه بعدها عمرنا ما عرفنا الراحة وما شفنا غير النيران والمشاكل والهم، يمكن ولعَوا الحرب عشان نتلَهى وما نعارضها أنا متأكد.

أيام استغرقتها الإشتباكات ثم انتهت.

أول ما فعله السيد لدى انتهاء المعارك، هو أنه أخطر حسن، خطيب ابنته شفاهيا، بأن يحضر الشيخ في صبيحة

اليوم التالي. وأن يستعد لكتب الكتاب فورا، على أن يتم العرس بعد أسبوع. بعث له أنه إن لم يوافق فإن أبو جلال، سوف يلغي الخطبة نهائيا. احتجت أم جلال، قالت ان فترة أسبوع غير كافية لتجهيز ابنتها. بل انها لم تتمكن من إرسال أي خبر لأهل حسن حتى الآن، فكيف يمكن للأشياء أن تتم دون أن تأخذ التقاليد والأعراف مسارها المعتاد. أخبرها السيد بتصميم:

لا تتدخلي يا مرَة. حلّي عنا وشوفي شغلك. بُكرة كتب الكتاب. والعرس بعد أسبوع. عجبَك، ما عجبك، مع السلامة انشالله عايزة يصير معنا متل ما صار في خطبة جورج وهناء؟ هاي البنت المسكينة "لا معلَقة ولا مطلَقة .مش عارفة أبوها عايش ولا ميت ولا عارفة متى تتجوز أو تتسخمط ! قلت إنه رح يصير هيكْ، يعني هيكْ.

ماذا كان بامكان عائشة أن تفعل اذا ؟ سيلومونها في المستقبل، ويقولون إنها حشرت نفسها في المأزق باختيارها فلا هي قادرة على أن تستمر في قصة الغرام السرية، ولا هي قادرة على أن تجد خلاصها في مهنة أو عمل. إنها، في مواجهة قدرها الأنثوي المكشوف، سوف تعامل على أنها امرأة أبدية مثل ملايين النساء أمثالها. حتى النساء المؤهلات ذوات المهن والإمكانيات ينطبق عليهن ما ينطبق على عائشة في بلادنا. إنهن أيضاً، لا يعرفن كيف يتمتعن باستقلالية قرارهن، مهما أسبِغ عليهن من التقدير الإجتماعي الشكلي.

المهم، أن عائشة لا تستطيع الهرب المغامر طبعـــــا، مداخـــل المخيم مغلقة بالإستحكامات والمتاريس. ولن يكون بامكانـها أن تجد وسيلة نقل الا بالإتفاق مع سائق تعرفه، وهي لا تعـــرف أحد. فما الذي ستفعله عائشة إذن ؟

أبداً لن.

لن. لأنها لا تستطيع.

لأنه دم. وحرب. واشتباكات.

وكالعادة، بكت طويلا ولم تستطع النوم.

دفنت رأسها تحت الغطاء محاذرة أن تصـــل نهنهتـها، وحشرجات تنفسها إلى مسامع أبيها منذ أوائل الليل، وهـــي تفكر في طريقة ما تقتل بها نفســها، دون أن تجــد الوســيلة المناسبة ليس معها نقود لتشتري كمية كافيـــة مــن حبــوب الأسبرين، والصيدلية أصلا بعيدة على الطريق الشـــرقي فـــي أول المخيم. إنها تكره كل شيء حد الموت. تكرههم، وتكـــره هذا المكان، وحسن، هذا الذي طلع في وجهـــها مثـــل ورقـــة يانصيب سوداء. تعرف تماماً أنه لا مجال للإختفــــاء عنـــهم، لكنها ليست مقتنعة تماماً بضرورة الموت، لا تحب، ولا تريد، مهما أقنعت نفسها به. مددت نفسها مثل جثة متخشبة وأمضت الليل منسطحة على ظهرها، يخزها الغطاء بأوباره وبأنفاســـها الساخنة التي ترتد إلى وجهها أتاها هديل الحمامـــة، ســـجعها المترنم مثل مياه عذبة تطفيء حرقتها، لكنها رغبـــت للمـــرة

الأولى عن سماعها. كأن هذه الحمامة حنجرة أخرى لبكائها وهي التي ضجرت من كل أمواج الأحزان التي تلطمها منذ عودتها إلى المخيم.

في ليلة الهدوء الأولى، وبعد توقف الإشتباك، تسللت عائشة إلى السطح تاركة الجميع يغطون في نوم منهك. فجراً، صعدت عائشة الدرجات الإسمنتية المتعرجة، مثل شبح هارب من كابوس قريب. السماء بين البنفسجي والأسود. ملمس الهواء نضر وخفيف. نباتات السطح مازالت محنية الأعناق غارقة في نومها الذي يستمر حتى اللحظات الأولى من الضوء. شجرة الفتنة تقبع مثل هيكل عظمي لطائر الرخ الأسطوري، وهو يتطلع الى باقي البيوت والعشش. البنايات الشاهقة تطوق المخيم من بعيد مثل أبراج حراسة معسكر اعتقال في أحد مسلسلات التلفزيون عن الحرب النازية فجأة، سمعت عائشة خشخشة وراء ظهرها أجفلت، وقَف شعر راسها.

"دستور وأدارت عنقها لترى الكتلة السوداء التي تمد يدها لتمس كتفها

قالت أم جلال

- يختي. بسم الله. ما شاء الله. لا تخافي. أنا جنبك.

ابتعدت الى الخلف دون أن يفلح الصوت في طمأنتها. لكن أمها اقتربت ولفت ساعدها حول ظهرها. كان بياض

الفجر يتصاعد مع زقزقات العصافير حولهما أمها تشدها اليها، وتحيط بكفيها وجه ابنتها. تقول بحنو غير مألوف ذكر عائشة باليوم الذي أتت فيه لاستقبالها وهي خارجة من المدرسة

- اسم الله على الوجه اللي زي القمر زعلناَك يا بنتي.

والكلام يتعثر في صدر عائشة، فلا يبقى بإمكانها غير أن تحني وجهها إلى الأسفل، مفسحة المجال لدموعها كي تهطل على صفحة الوجه المرنخ بآثار البكاء الطويل. كانت لا تعرف ماذا تقول. تحكي ؟ ولماذا؟

والأم تزداد اقترابا من ابنتها، تشدها اليها، وتحتضنها فلا تبتعد الفتاة كما فعلت طيلة عمرها، وإنما تتهاوى على كتف الأم وسط سيل دموعها للمرة الأولى في حياتها كانت عائشة تستقبل رائحة جسد أمها دون تقزز أو نفور تتقبل عطونة العرق في امتزاجها مع رائحة البن، والسجائر، والملح التي يختزنها الجسد الثقيل المكتنز بأمومة خالصة:

- يا دلَي عليكِ يا عائشة. فضفضي عن حالك يختي. ما تزعلي. إنتِ بنتي حبيبتي. لا تبكي. هَدّي حالك يخُتي.

وعائشة التي تبتلع الكلام، تشربه مع دموعها، تتأتيء، وهي تحاول أن تقول:

- إذا كنتِ تعبانة لا تحكي. أنا حاسّة معك وعارفة ليـــه تزعلي ؟ يمكن يكون نصيبك في بيت تـــاني، أحســـن مـــن نصيبك عندنا

- لكـــــن! أنا يَما بديش أتجوز.

أنا عارفة إنتِ خايفة من الجيزة. كلنا كنا متلك قبل ما نتجوز كل البنات هادي القســـمة والنصيـــب. كـــل البنـــات مصيرها تتجوز

- بس يمّا أنا ما بعرفه. كيف أتجـــوز رجّـــال غريـــب خلوني معكم. أظل عندكم.

- يختي عيشة حبيبتـــي عيشـــة الولـــد منيـــح ومـــش بطال.إحنا عارفينه منيح، وكمان جورج عارفـــــه.

انطلقت عائشة باندفاع نسيت خلاله بكاءها

- جورج. جورج. جورج شو دخلّه بهالموضوع؟

هو إنت مثل أخته لو تعرفي معزتك عنده. لو تشـــوفي كيف يسألني عنك دايما هو كان قلقان عليك لمـــا مرضـــت، وهو شجعني وشجع أبوك نقبل حسن الأستاذ آه يختي، يخلص الجامعة ويصير أستاذ قد الدنيا. الولد الذي طلب يدك محـــترم. يمكن يعوضك عن القعْدة في بيتنا لا شغلة ولا عملـــة يمكـــن تجيبي أولاد تتلهي فيهم، ويمكن لمّا تشوفي ضُحكتـــهم تنســـي الدنيا واللي فيها. ويمكن لأنه في التنظيم، يخليك تشتغلي متـــل هالبنات! مش أحسن من عصبية أبوك وجنونه علينا ؟

يعني؟ هيك جورج يفكر:

يختي. هو بشوف مصلحتك. بعد ما صارت قصة الباص في نيسان هو شجعنا نجيبك من المدرسة.كان حامل همك. وخايف عليك تظلي بين الغربية.

- لو بقيت هناك كان أحسن لي.

- كنتِ بقيت هناك مقطوعة من شجرة. ويمكن هُم ما يقبلوك، ويقولوا:" الله والنبي معاك. روحي على بيتك الخواجات عمرهم ما حبونا يا عيشة.

- طيب ضروري أتجوز

- اقبلي يا عيشة القسمة والنصيب. هذا المكتوب ولازم يصير خلص، اليوم يجيء الشيخ ليكتب الكتاب ليه تقتلي حالك بكى وغلب ليه؟! وآخرتك لازم تتجوزي؟

لم تقتنع عائشة بما قالته أم جلال، لكنها فكرت: أمن الممكن أن يتغير شيء في حياتها لو تزوجت حسبما تقول توقفت عند كلام أمها حول جورج. أهو مثلهم يتصرف بحياتيا دون أن يسألها؟ أهو أصل البلاء والمصيبة، وإخراجها من المدرسة ؟ ألا يستطيع إلا أن يفكر بالسياسة، فلا يقدر الويلات التي جرتها عليها سياسته هذه؟.سمعته يتحدث عن الخواجات باسم غريب رددته بعض نشرات الأخبار، سماهم الإنعزالية هذا يعني أن جورج لم يرد أن تظل مقيمة في المنطقة الشرقية مع هؤلاء الإنعزاليين. لكنه، عجبا! ألم يدرك

أن عزلتها هناك كانت في مصلحتها ألبس من الأفضل لو أنها بقيت معزولة هناك إلى أن حصلت على شهادة ووجدت عملاً؟

جورج. جورج. إنه مثل يهوذا. يسلمها اليهم لقمة سائغة، ثم يدّعي العمل في سبيل مصلحتها لم تكن تريد أن تصدق. ولم يكن باستطاعتها الفهم في الوقت ذاته: لماذا يحدث ماحدث؟ لماذا تكون ابنة لهؤلاء الناس؟ ولماذا يسكن هؤ الناس المخيم ولماذا يهب الخواجات لإطلاق النار على السكان وكأنهم يريدون إفناءهم لماذا هي الآن داخل هذا المكان. لماذ تحب جورج فيخطبها حسن ولماذا يساعد جورج حسن على خطبتها ولماذا يخطبها حسن الآن والطرق مغلقة، والمداخل مسدودة، وكل قدم تخطو إلى الخارج تتعرض لمئة رصاصة قنص. وهي؟ ماذا تفعل ياالهي؟ ماذا تفعل أمام خيبتها وفجيعتها بجورج؟ وبهم؟ بها؟ وبنفسها؟

أما في بيت هناء فقد كان ما يدور مذهلا حقا أم هناء التي كانت تعاني دائما من صداع الشقيقة لم تستطع أن تفتح عينيها المغلقتين ألما إلا بعد أن استهلكت ابنتها كل ما حصلت عليه من ثمرات الليمون المتبقية لدى الجيران والمعارف. نهار كامل من الألم الرهيب الذي جعل كل من يرى أم هناء يظن أنها على وشك الإحتضار وجعا، إلى أن فرجت النوبة

وتناست أوجاعها ورجت ابنتها أن تقيس فستان الزفاف كي تراه عليها. كان الأمر في منتهى الإعتيادية لو لم يكن البيت يعيش حالة التعاسة المشابهة للحداد. أسلمت هناء، أمرها الى الله، وعزمت على الإستجابة لرغبة أمها رغم معارضتها الداخلية لفكرة قياس الفستان في هذا الجو القاتم. أحضرت أمها جميع مستلزمات الزي من فستان التول الأبيض الناعم الى الحذاء المفضض والقفازات البيضاء. نكشت خزانتها وأخرجت منها عنقود زهر البرتقال الشمعي مع أقراط الكريستال المزيف التي استعملتها يوم عرسها وطلبت من ابنتها أن تلبسها كي تراها وتختبر رونقها تمهيدا لإعادة استخدامها لبّت هناء رغبة أمها على مضض، ووقفت أمام المرآة بالطرحة الموشاة وتاج العروس على رأسها إلا أن الباب لم يلبث أن دق، وتسللت عبره مطالب متلاحقة على لسان أم جلال، التي أعربت عن رغبتها في استعارة الثوب الأبيض غدا، وعن توجيه دعوة خاصة لحضور العرس. تضايقت أم هناء، وأفعم التشاؤم روحها إلا أنها لم تسفر عن غيظها من أم جلال وتجاهلها الفظ للأصول التي تقضي بعدم استعارة ثوب عروس إلا بعد أن تستخدمه صاحبته أولا ونظرا للصلة الوطيدة التي تربطهم بأم جلال فقد رحبت بالموضوع وإن تظاهُرا، مما أفسح المجال أمام هناء للتحرر من المهمة الخانقة التي فرضتها عليها أمها، والعودة توا إلى ارتداء بنطلون الجينز الذي لم يعد بمقدورها الإستغناء عن راحة ارتدائه، دون أن يخطر ببالها طبعاً تطّير أمها المروع من هذا الفال.

ظهراً المأذون.

أناس كثيرون. وليمة في بيت العروس. عائشة السيد حسن بطقم كحلي مخطط. وليمة من أقراص الكبة. صواني من البرغل المسحوق المعجون مع اللحم غير المطبوخ (كبة نية). معمول مدّ على صينية مربعة مستعارة من فرن الحارة. نساء من بيت أهل العريس. من الجيران. المعارف. نساء متجمعات من كل حدب وصوب كأن المخيم فرغ وألقى بهن داخل البيت ذي الغرفة الضيقة الأفواج تتوافد ثم يبتلعها المكان، يلفظها، فتستبدل بأفواج أخرى. الخروف المذبوح صباحا ملقى داخل دست النحاس الضخم فوق الحطب الموقد على باب الحارة. جلبت رائحة اللحم جميع من استطاعوا شمّها واستحلابها من الهواء. إلا أن الجميع يتصرفون وكأنهم لا يرون القدر الفائر بالمرق وبقع الدهن البيضاء بعض النسوة حملن مغارفهن وانثتين يحركن قطع الخروف التي يسيل لمرآها لعاب الأولاد لا أحد يهتم أو يلحظ بقع الدماء القرمزية المتجمدة على الجدران.

لا أحد يرى أو يهتم. وهي. تصغي اليهم، ولا تسمع. بكاء الرضع الصغار وهم بين أذرع أمهاتهم يتناهى اليها صوت الطبلة تدوي بين يدي نجاح الخياطة بايقاعات رتيبة وقوية يتأرجح الحلق الذهبي المشابه لجرس صغير على أذنها وهي توالي الدق المنغم على الطبلة الأكف تصفق بحماس خيالي. لا يعرفونها، لكنهم، جميعا مسرورين.

على دلعونا   على دلعونا

دخلك يا حبيبي يا أسمر اللونا

دخلك يا فدائي. يا مرج عيونا

ثم ! فجأة. سمعت عائشة ما أثار شجنها

قديش قــلتلك غــير وبدّل   والدهــر مايل ماهــو متعدّل

يا للي شعرك دايما بتجدل   جرحت القلب بخنجر مسموما

ولكنهم جميعا لم يكونوا هناك وكانت وحدها تقف بين الرمال. تصمت الأشياء لا شيء إلاهـا والسـماء والرمـال. ضربات الطبلة الموقعة، وقطع الكبريت الأصفر التي تـهطل عليها توشك أن تدفنها تتمدد عائشة على الأرض، والنـدف الأصفر يتكاثر فوقها يكسو جسدها المستلقي، يعلـو ويصـير على شكل ضريح. تبدأ طبول بعيـدة فـي القـرع اسـتعدادا لجنازتها. تحاول أن تقوم عن الأرض قبل أن تنطمر، وقبل أن تموت. فلا تقدر.تتزايد دقات الطبول.

بـــم. دم. دم. بوم.

تصحو عائشة من غيبوبة الروح التي دخلتـها تتطلـع حولها انصرف معظم الناس استعدادا للعشـية حيـث موعـد الزفاف. بقيت وحدها فوق الطراحة على الأرض. أختها تـدق

على جلد طبل فخاري صغير أخوها يرقص ويتشقلب كـالقرد أمها في المطبخ مع بعض النسوة ينظفن الآنية بعد الوليمة.

الآن. فقط، علا ضجيج الزقاق في أذنيها الآن اكتشـف بقايا الوليمة المنتهية آثار الضيـوف الذيـن كـانوا والعقـد الشرعي الذي وثق.

الآن انتهى كل شيء. ذهب العريس ولم تره، رغم أنـه صافحها لم تسمعه مع أنها خاطبها.

حسن! يا حسن لكم يرن الإسم غريبا في أذنيها فمـن هو هذا الذي صار زوجها ! عندما دفعتها أمها لأن تمد يدهـا وتسلم عليه بعد كتب الكتاب، كانت وكأنها ميتة لا تريـد أن تلحظ أحدا. أو ترى أحدا. تريد الآن استجماع شظايا صورتـه المفككة يجب أن تتذاكره وأن تعاود تثبيت صورته في ذهنها

حسن: اسمرار بشرته يميل إلى العسلي. شـعر أكـرب مفروق جانبا. أنف متناسق مع الفم مثل معظم الرجال الذيـن يضمهم المخيم. هل أن معظم الرجـال الفلسـطينيين هكـذا شفتان غامقتان يحيطهما خط داكن بلون القهوة يصنع انطبـاع سمرة صاحبها شارب. جرح خفيف فوق حاجبـه الأيسـر يقطع منبت الشعر ويمنعه من الإمتداد للصدغ. يضع يده علـى خده ويسرح. أين تذهب أفكاره ؟ ابتسامة خفيفة مطبوعة على وجهه، وكأن بينه وبين نفسه حسرة خفية على شيء مجـهول. لمعة عينين مع ابتسامة إعجاب عميق كلما رآها.

- المجنون، يا ويله من ربه لم لا يعتقها؟

حضروا، ورجعوا. وسوف يعودون قريبا لأخذها ولم تعرف عائشة سوى أنهم أحضروا الشيخ وكتبوا شيئا على ورق ثم نادوها. جرتها أمها رغماً عنها كي تقول نعم. للشيخ المعمم. وقالتها لأنها خافت من الحشد المكوم داخل الدار، وعلى أبواب البيت وفي الحارة. انهم جميعا يثيرون ذعرها، فلا تملك إلا أن تحني رأسها، وأن تقول نعم لجنازتها ستقتل نفسها، لا بد من هذا. تصب الكاز على نفسها وتحترق. لكنها تخاف النيران. وترتعب من البابور إذا عطب واضطرت إلى تسليكه السكين؟ ثم الدم؟ لا لا إن كل هذا يرعبها بل انه يسبب الغثيان والهلع لمجرد تصوره. أحسن الحلول هو أن تحظى برصاصة خلال الاشتباك القادم. تطلع الى السطح. تقف في مهب الهواء، ثم تتلقى رصاصة في صدرها وتموت.

لكن، أكان بامكانها أن تفعلها حقا

كانت عائشة خلال هذه الطقوس كلها عاجزة عن الإحساس بأي شيء عدا بعض أبيات من الأغنيات التي ترنمت النساء بها في عرسها:

يمّا اندهي لُهَ شوقي مرق خيّال وأنا بحكي لهْ

تنطلق أصواتهن الشجية آخذة بمجامع قلبها. فتتمنى لو أنها العروس فعلا. لا صورتها الجامدة على الكرسي المزين بالزهور الاصطناعية. انثالت أصواتهن كحباب البلور

المضيئة في قناديل كنيسة مدرستها القديمة أعادهـا شـدوهن الى حيث هي. شقَت الكلمات صدرها، وتغلغلت داخل ذاكرتـها الغارقة في النحيب والتحسر هن يغنين لها، وهي تطرد الغناء بعيدا عنها

يا أُمـة محمـد صلّوا عالرسـول

عائشة مرْة النبي ورقها ورق زيتون

ورقها ورق حنة مرسوم عباب الجنة

فيما بعد، كانت تنظر إلى نفسها طويلا، تقف أمام مـرآة المغسلة المثبتة على الحائط، تتـأمل انتفـاخ جفنيـها، وتمـد أصابعها إلى خصلات شعرها القصيرة تتحسسها لو أن أحـدا رآها قبل شهر لظنها صبيا. وجهها وجه ولد حزين، مذعـور، شاحب القسمات لكن حلق الذهب المشنشل يقطع ريبـة مـن ينظر إليها تماوجت السخرية في الإبتسامة المعوجـة علـى شفتيها، وفي عينيها المتسائلتين داخل المرآة طفحت المـرارة من أحشائها إلى السطح المعدني المخرش الذي تتملـى عليـه شكلها. العرس! ليلة الدخلـة! وعائشـة لا تريـد أن تتحنـى. أحضرت النساء اللجن النحاسي الكبير ممتلئا إلى حافته بذلـك المعجون الشجري المختلط اللون بين الفحم والطيـن. ألقيـن باللجن وسط الحجرة المكتظة بالشحاطات والبوابيج البلاستيكية العائدة لنسوة الحي وأطفالهن. وغنين لها:

يا مُحَنية العرايس وامشي في الليل

وادعسي عالمكينة وسروج الخيـــل

يا مُحَنية العرايس وامشي في النهار

وادعسي عالفرس وسروج المـــــال

معجون الحناء الرائحة النفاذة تشبه الطـــلاء المعدنـــي. اللون الأصفر الشبيه بالكبريت.انها لا تريد. وعبارات الإقنـــاع تنهال عليها يغنين:

مَرقني يا بنـــات   تامني أحَنيـــــــها

والوجه ديرة قمر   والنجم حايـــط فيــها

مدي أيـــدك مدَيها   تامّني أحنيـــــــها

الغرة ريشة نعـــام   والهوا يرفرف فيــها

لأنها هي العروس. تتحنى. يجب أن. هي؟ لم تبق فتـــاة أو امرأة ممن ازدحم بهن المكان دون حناء، وهـــي ترفــض ولا تقبل. حتى أنبتها سليطات اللسان منهن:

عيب عليك. إتحني. حدا ما بيقبل يتحنى ليلة الدخلة؟

وأخيرا مدت اليهن أصبع يدها الصغيرة وحده غمســـن الأصبع في العجينة البنية، وضحكن في وجهها وغنين:

سبَل عُيونُه ومدّ آيده يحنونه

ويش هالغزال راحوا يصيدونه

يضحكن. يرقصن. وهي تبكي. تهامسن عليها:

البنت خِربْت من يوم راحت على مدرسة الأجانب. يا ويلي عالعريس. الله يعينهْ.

آنذاك هطلت دموعها من جديد، وكأنهن على وشك ذبحها لذعتها واحدة منهن بتعليق من وراء ظهرها:

دموع الفاجرات على خدودهن حاضرات.

وهي تبكي لأنها لا تعرف أن تفعل شيئا آخر تحتج به على وضعها.

منذ الصباح والجمع لا يفعل شيئا سوى ملاحقتها، ومد الأيدي إلى الزوايا الحميمة في جسدها الأصابع تمتد إليها تحضر معقود الليمون بالسكر، وتروز جسمها تندس بين أعضائها وكأنها لعبة من العجين المباح للأيدي، تنحتها، تعيد صياغتها لتصير شيئا مختلفا. سحبتها سواعد كثيرة إلى الغرفة، جردتها من ملابسها، وعملت على انتزاع الشعر من كامل جسدها بلبخات من المعقود السكري. معطتها النساء مثل دجاجة نتف ريشها، وتركن على جسدها آثار كدمات زرقاء نيلية عميقة خلفت أيديهن الحذقة علامات مرقشة تشبه ضربات أبيها وحزامه الجلدي. بالخيط: حففن حواجبها، وبدأن في انتزاع الزغب من فوق شفتها العليا بدعوى أنهن يخلصنها من شواربها.إعولت. هاجت ومانعت. كانت في سبيلها الى الهرب والتملص من بين أيديهن الكثيرة دون أن تكترث

بارتداء ملابس على جسدها العاري، مما دفع أم جلال الى التدخل وسحبها من بين أيديهن، قبل انتهاء المهمة المطلوبة.جرت الأمثلة المتهكمة على ألسنتهن مثل فيض الدمع الذي جرى على وجهها يبث في قلوبهن الغم من الفأل السيء الذي يخلفه بكاؤها، خلافاً لما هو معهود من العرائس. وتساءلن بمعزل عن أمها: لماذا تندب هذه الفتاة وكأنها ذاهبة إلى جنازتها ؟. تطيرن، وأسمعنها قارص الكلام وهن خارجات إلى ساحة البيت أما عائشة فقد كانت مشغولة عنهن بالعار الذي يترعرع على جسمها مثل وردة جهنمية، لا تلبث أن تنمو تلك الليلة، لتتفجر بالدم الذي يسيل على ساقيها.

في تلك الليلة هو حسن.

كانت أعينهن تبصبص. تنظر بشراهة وفضول إلى جسدها العاري وهن يتضاحكن، ويروين فكاهات وطرائف بذيئة عن لقاء الرجل بالمرأة. وعن تلك الدماء التي سوف تسيل وتغرق ذلك الموضع السري إعلانا عن شرفها. وعائشة تغضي ببصرها، وتشيح بوجهها جانبا حتى تقطع خيط الكلام وتدعي أنه غير موجه لها. كل فكرها يتركز حول حلم غامض بأن تهرب. تفتح عينيها على حين غرةٍ، وتكتشف أنها خارج المخيم. في مكان بعيد عنهم جميعاً.

بين الحين والآخر، تقفز أمامها ابتسام لكي تعلمها بما يجري في بيت العريس، في أول الدكوانة تخبرها عن المأدبة الحافلة، وذبح الخراف وتقديم لحمها مع الأرز واللبن المطبوخ. تتوسل ابتسام اليها أن تسرع كي يلحقن بدار

العريس حتى لا تفوتهن دبكة "الشعراوية و "الشـمالية" فـي أول الزقاق عند شجرة الخروب. هناك أنغام متصـاعدة مـن المجوز والأرغول، وقناني كازوز "بيبسي كـولا" و "فانتـا"، وإبريق نحاسي كبير للقهوة بالهيل. وهناك الفـرح وأضـواء الكهرباء تشع في عز النهار على مدخل البناية. وفرقة شـبيبة كاملة مع الطبل والناي والأكورديون، ونساء يصفقن ويرقصن في بيت العريس بهز الجذع وتحريك البطن.

يا للاّ. يا للاّ. تعالي.

تقول ابتسام وهي تغمز لأختها الكبيرة "العروس"، بعد أن جهزتها النسوة للإحتفال بحمام ساخن مع الكولونيا والصـابون المعطر، وبعد أن ألبسنها فستان العرس الأبيض المستعار مـن هناء، مع طرحة التول وحزام الستان العريض، عائشة لا تفهم عليها ولا ترد.

وشيئا فشيئا اقترب صخب موكب الزفة الذي سـيأخذها الى بيت العريس، قامت امرأة من قريبات جـلال البعيـداب، وأنشأت تزغرد

يا حمام بروس العلالي يصيح   مـا خمنت الحبيب يفارق صحيح

يا حمام بروس العلالي بكـى   مـا خمنت الحبيب يـرد النقـا

فر قلبي كما فر طير بريـش   حسرتك ياطريح الهوى كيف يعيش

وابن عمي ضربني بشبرتيـه   لامسـح الـدم وأمشي على نيته

أخذت عائشة على حين غرة. اضطربت واندفعت الـى الحمام هاربة من الموجودين. لم يستنكر قيامها أحد. انـهمكت

النساء في اطلاق الزغاريد حول وضع العروس التي ستغادر بيت أبيها إلى بيت رجل آخر. اندفعن يغنين بشجن:

يا يمّا حشّي لي مخداتي

طلعت من البيت وما ودعت خيّاتي

يمّا يا يمّا وندي لي مناديلي

طلعت من البيت وما ودعت أنا جيلي

في الحمام حشرجت مثل ديك ذبيح. حطّ بصرها على مقص ملقى على حافة النافذة. التقطته، وبدأت تقطع خصلات شعرها أمام المرآة المكسورة المثبتة فوق خزان الغسيل التنكي المقلوب الفوهة، ذي الحافة المحترقة قصت شعرها بذعر وجزع، ونشيجها يتصاعد فيغطي على الزغاريد والتهاليل في الخارج. خرطت الخصلات مثل أوراق نفاية زائدة. تحول بكاؤها الضعيف الى تأوهات عالية، الى نشيج يزداد تواتره في أذنيها سمعت دقات كفي أمها على الباب لم تكترث ولم تفتح. جنت أم جلال اذ ظنت أن ابنتها سوف تحرق نفسها بوابور الكاز دقت الأم بجماع قبضتي يديها، بكل قوة جسمها البدين، وهي توالي اطلاق صرخاتها ونداءاتها

- ولكْ افتحي شو بتعملي بحالك؟

فتحت عائشة الباب الذي أوشك على السقوط. وقفت أمام أمها تلهث. تنتفض فينساقط البكاء على وجهها الملطخ بالمكياج الذي رسمته الماشطة على وجهها وقفت هناك. تخفق كطير

مبتل. ودمعها المختلط بالكحل يسيل علـــى بشـــرتها فيملأهـــا بالشحبار الأسود هدرت أم جلال

- يا فضيحتنا فضيحة ولكْ ليش عملت بحالك هيك؟

ولم تتمكن من إكمال تعنيفها فسْمعُها التقط صوت دخـــول وفد أهل العريس الى الحارة. اقترب الحشد المطبل الزاعق من البيت ولم يعد أمامها وقت لكي تهجم على عائشـــة، تلطمـــها، وتفش غليلها بضرب لم تحلم به "المزموزيل التي لا يعجبـــها العجب تجمدت بذعر مواجهـــة ابنتـــها بشـــعرها المنكـــوش المتدرج الذي بانت في بعض مواضعه جلدة الرأس. شـدهت أم جلال ولم تعرف ماذا ستفعل أمام ما تبقـــى مـــن الخصـــلات المجزوزة مثل الليف على جبين عائشـــة رفعـــت يدهـــا ثـــم أسقطتها أمام هول الكارثة اجتاحت قلبها لوعة خفية من هوس ابنتها الذي لا رادع له، ومما هيأ لها الجنون أن تفعل. ركضت الى الطرحة المرمية علـــى أرض الحمـــام قـــرب البالوعـــة رفعتها، وأعادت تثبيتها فوق رأس عائشة، نفضت أطـــراف الشعر المقصوص عن فستان العرس الأبيض. تناولت قطعـــة ثياب وقعت تحت متناول يديها بللتـــها مســـحت بـــها وجـــه العروس، فتبددت دوائر الكحل الوسخة عن وجهـــها، وعـــاد رائقا تجلله حمرة خفيفة نثرت بأصابعها ما تبقى من الشـــعر المقصوص الهابط على الرقبة والكتف أعادت شبك الطرحـــة بالدبابيس، فانساب قماش التول مخفيا آثار ما جرى من تقطيـــع ومن قص عشوائي للشعر الذي كان مرفوعا قبلها مثل تـــاج،

فانتهى الآن الى ما يشبه جلد العجول الممزق في دكان اللحـلم. وأم جلال تقوم بكل شيء باستعجال ومهارة، فيمـــا تتحــرك شفتاها بالكلام دون صوت:

- يا فضيحتي، يا فضيحتنـــا.

وها هي عائشة تنظر إلى شعرها الآن في المرآة، فـترى أنه طال قليلا. صار بطول ربع أصبع، وكسا جلـــدة الــرأس تماما. تتأمل تقاطيع وجهها، فتفور الرغوة في معدتها ويندفـــع معها الرثاء والخجل. رثاء لنفسها وخجل ممـــا حـدث ليلــة العرس. أغلق عليهما الباب في غرفة واحدة. المكان! مكانـــه البيت! بيت حسن. أهل حسن. ليس لها أبدا. انها لا تعـــرف هذا الرجل الغريب عنها الذي يدعي زوجها لم تعتد شـــكله أو كلامه، أو تعامله معها جلست على طرف السرير، وهي تحيد ببصرها عنه كان هو يتحرك. هنا وهناك. اســتبدل ملابســه، وهي تتطلع في حجرها صامتة تماما مثل شاهدة قبر حجرية سألها أخيرا بعد أن طال الصمت بينهما:

- عايشة ما بدك تنامي؟

فهمت أن سؤاله لها هو دعوة للغفو فورا تغفو تطير في عالم الأحلام. تمددت على الفراش. أغلقت عينيها وهي ترتجف كلما سمعت حفيف الطرحة حول رأسها وكأنه يخـدش فـروة الرأس فيفور الدم منها لم تقبل أن تنتزع الطرحـــة، أخبرتــه بصوت ضعيف كما أوصتها أمها

- مش قادرة أشيلها عشان الماشطة قصت شعري غلط وخرّبته.

هدأ خاطرها وضحك في وجهها، وقال:

ولا يهمكْ.

تشاغل عنها بترتيب أشيائه، فأدارت ظهرها، ووقفت بين الستارة وزاوية الخزانة اختبأت، غيّرت ثيابها بقميص النوم، رجعت وهي تتثائب، وأعلنت عزمها على النوم فورا. سألها:

هيك؟ بعدنا عريس وعروس وإنتِ مش مصدقة انك تغفي.

وعملتها وضعت رأسها على المخدة وأغفت توا بفعل النعاس والخوف وتوتر الأعصاب.

وحين تذكر عائشة الآن ما حدث معها، لا تتذكر غير ذلك الشيء الثقيل الذي هبط عليها، فاغتمت وضاق نفسها شهقت، ودفعته عنها كان بكل قوة جسده فوقها يا ويلي. لم تعرف أن تهرب، لأن قوته ولثماته اللهوفة ثبتتها في مكانها يا ويلي. يقتلني. يقتل. ينزع. يسحب. يشد، يقيد. كل شيء حدث في غمضة عين لا تدريها، أو ربما استغرقت الليل بكامله شيء شرير مهلك. مقزز لا تفهمه ولا تعرف أن تفسره. اقتحمها الرجل. سطا على جسمها. ضاعت وفقدت نفسها ثم ارتدت إلى حجرتها الجديدة بالخزي والعار الذي سيجللها طيلة حياتها.................

في الصباح. أتاهما الأهل، أهله وأهلها حاملين صينية كنافة. لم تخرج من الغرفة، ولم تقابل أحدا أشاحت بعينيها عن أمها عندما اقتحمت الغرفة عليهم. تريد أن تطمئن على شرف ابنتها، كي توصل الخبر إلى أهل العريس. لم تر عائشة أمها، أو أنها بالأحرى عجزت عن أن تراها. انتبه حسن إلى وجهها الشاحب فسر العار الذي صارت تجده في جسمها على أنه الحياء من أمها وأهله أخرج أم جلال من الحجرة قائلا بحزم ودعابة:

- ما حدا من يوم وطالع يتدخَل فيي أو في مرتي عايشة، كل واحد في حاله.

أجابت أم جلال:

- بس إنت عارف إني لازم أشوف شرف بنتي عشان أقول لأهلك؟

قال:

- بنتك شرفها معها، وما حدا لُهْ عليها بعد الآن. أتركوها في حالها، إنتِ وأهلي.

(٨)

ملعون سما أمي وأبوي قالت لنفسها وهي تواجه المرآة في ذلك الصباح. كانت عائشة واقفة أمام خزانتها تبحث عما سترتديه أسوة بالعرائس الجدد اللواتي يحافظن على تنوع يومي في مظهرهن. شق من صورتها يترجرج على مرآة الباب الأيسر للخزانة، وشقها الآخر يتراءى على الباب الأيمن. نصفها يبدو هنا، ونصفها الآخر هناك. كل مرآة ترسم جزءا منفصلا منها وكل صورة تنفتح على جانب معاكس للآخر فتحت عائشة البابين فأز صرير الخشب الثقيل، واختفت الفتاتان معا عدلت عائشة عن اختيار ثوب مزركش تعجبها نقوشه. ارتدت عباءة منزلية، وتوقفت وراء الباب، تنصت إلى حركات أم حسن الصباحية وهي تعد القهوة قبل أن يستيقظ سكان البيت تكحت الكبريتة، تنزل الطنجرة عن موقد الغاز وتضع الركوة مكانها. تكنس الحصر، وترمي بالمكنسة وراء الباب. خرجت عائشة من غرفتها، فرأتها تقرفص

بفستانها الأسود الطويل، وبحذائها البلاستيكي الرجالي الذي يكشف عقبي ساقيها داخل الجوارب القصيرة.

- صباح الخير يمّا، كيف أصبحتِ؟ بادرتها أم حسن.

- منيحة يا عمتي. لكن. ما عرفت أنام. طول الليل والطّخ شغال. وحسن ما إجى الليلة. يمكن الإستنفار درجة أولى!

هو مين شاف حبابة نسي أصحابه دايما أولادي هيك مع "الموقراطية"

وتوقفت عن الحديث في اللحظة التي كفت فيها عن تحريك القهوة، وحدقت بعائشة في سكون قبل أن تشع ابتسامتها مع وميض شعرها الفضي الذي يضفي على وجهها ألق الصبا رغم الحزوز العميقة المحفورة عليه:

- لكن ما في مثلك عنده أبدا. يا ويلي يا عايشة حسن شو حبّك لمّن شافك. ما عاد عنده عقل براسه. وقال.هلأ بتجوّز أخطبوها والله عزّيت فيه قيلها وهو مش قابل حدا إلا وحدك اللي بدّو إياك. بس. آه، من الزمن بيخلي العرسان مشغولين بالمناوبة والإستنفار.

تنهدت وكأن بقايا زفرتها الخارجة من الصدر اعتذار عن غياب ابنها. خطت الى خزانة استعيض عن بابها المفقود بشرشف أبيض، وسحبت من الداخل صينية نحاسية مع فنجانين قهوة مخططين بأشجار نخيل ذهبية. صبت السائل

البني اللماع، فعبقت رائحة الهيل الذكية. أدارت وجهها الى جانب، ونترت رأسها في حركة بصاق وهمية، وقالت:

- تفو! الله يقتلها هالعرب الخاينة.

إرتبكت عائشة أرادت أن تهون عليها غياب الإبن، فلم تعرف بماذا تخاطبها أتناديها عمتي أم خالتي

- خالتي. ما تزعلي. أنا لا أريد شيء. اذا كان هو يحب يستنفر خليه يستنفر

لأ يا بنيتي مش هي المشكلة المشكلة انه هالأمة العربية ما بتحل عنا من أيام فلسطين لإسَّه وهم لاحقينا شو بدهم فينا! يتركونا في حالنا يخلَّصونا، يكفي كل هالشهدا اللي حطيناهم لحد هلأ؟

طارت نظرتها، وحطت فورا على الإطار الأسود الذي يضم صورة فايز سحّت دمعتان من طرف عينيها اللتين تحمران كلما انفعلت بدأت صورة فايز في التشكل داخل الجمرة المائية التي تكوي الخد الأسمر المغضن. كانت تتملى الشهيد مرة أخرى. ملامح صورته شاب أشقر وسيم. عينان خضراوان مكحولتا الرموش. أسنان عليها بقايا دخان، وضحكة زائدة الحلاوة. كان مكتوبا في أسفل الصورة الشهيد النقيب فايز سمهدان ، مع تاريخ استشهاده "أيار ٧٣"

قالت المرأة بصوتها الذي صار مائلا مثل ظل:

- شو بَدك أحلى من هيك! كل هالشبوبية واستشهد. كانوا بيفكروه ابن أجانب على طول. أصله ولادي نصهم عرب، ونصهم شكلهم افرنج طالعين لأبوهم. إنت جوزك الله يحرسه أسمر. ينعن أبوها فلسطين قد ما مِنْحبّها، وقد ما حطَينا من أعمار ولادنا عشانها.

انتقلت نظرة عائشة الى الصورة الأخرى المعلقة على الجدار الأم واقفة بغطاء رأسها الأبيض وثوبها الطويل في مقبرة الشهداء. تحمل كوز ماء وتصب على ما زرعته من طربون الحبق والريحان على جوانب الضريح. ورخام الشواهد يتمدد خلفها في عواميد لا نهائية داخل المربع المحدود.

- شو بدي أعمل اللي بينزل من السما بتتلقاه الأرض. الله يحفظلي ولادي الباقيين.

حلقت نهاية النون في الفضاء، فتزعزع شيء في قلب عائشة والصوت الرخيم يعبر أطراف الهواء. كأن يدا صلدة فطرت قلبها فتكسّر.عرفت أنها صارت تحب هذه المرأة الضئيلة متينة البنية التي تدعى أم زوجها، والتي يفترض بها أن تكرهها حسب القواعد التقليدية. تحبها أكثر من أمها. من زوجها. أكثر من جميع أهلها تحس أن هناك شيئا غامضا لا تدريه يجمعهما سويا أهو انسياب الدمع ؟ أم النزوع الى زمن تقضّى، ومكان لن يعود؟

تربعت أم حسن على الجنبيات المكسوة بقماش الكريتون الخشن، مدت يدها بفنجان القهوة الى عائشة التي جلست مقابلها. من وراء ظهرها تلوح إشعاعات الضوء الفجري الطالع. رشفت رشفة من فنجان القهوة. وتهيأت للكلام. عرفت عائشة أن جليستها المكابرة قررت الإقلاع عن صمتها بعد الليلة الليلاء التي قضتها دون أن يصلها خبر من حسن.

- يمّا يا عيشة أي هاي أيامكم أيام! وهي عيشتكن عيشة أخ يا حبيبتي إنتِ شو شفت والاّ شفت؟ أي هذا اللي صار عرس ؟ الأعراس راحت يا ضناي وضاعت من زمان زمان من هاديك الأيام. لو أحكيلك على عرسي ما بتصدقي.. أيام ما كنا بفلسطين.

أصلحت أم حسن توازن ساقيها المتربعتين، وتنحنحت:

لما أخذني جوزي كنت عالبزّ صغيرة سالي صدر، ولا بزاز لبسوني قبقاب عالي، وغمضوا لي عيني. البلانة حطت لي كفين شمع مضوي على أصابعي، حتى صاروا يوجوا متل التريا الكريستال كانت تاخذني وتوّديني ببدلات العرس السبعة حمام العرس ظل شغال على حسابنا يومين قبل العرس يتغسلوا فيه المعازيم والحبايب. والحِنة ! يا محلاها. نقشوا يدي، ونقشوا رجلي. ويا ريتك تشوفي العود، الطبلة، والدف. وإلاّ يختي الجنكيات اللي جابوهن يرقصوا واحدة منهن حطت لي شوية فطاير دهب على راسي متل المخمسات. أغراض الجهاز اللي جابه عمك ما في مثله :

لمبتين مع مشربيتين زهر موديل فرط الرمان. قمقم بوزه رفيع ومن تحت لهُ شكل بطة بيرشوا فيه ميّة الورد. شاف أزاز مع كبايات. تخت نحاس للنوم. وتوب البفت للشراشف صار لـــي غرس وغرس.

أول ليلة معه حطيت اللحاف على راسي، وخفت. خفت ياكلني. هجم علي متل القط. لكن بعدين، تعودت عليه عريس أبيضاني وملآن. لما كنا نقعد عالعشا كنت أقولّه خـــذ يـــدي واعطيني يديك شو كان أشقر وعيونه شهل.

لم تصدق عائشة أن الشاب المليح الـــذي تـــروي عنـــه حماتها، هو الشيخ نفسه الذي مازال يغط ويشخر فـــي نومـــه الآن. الختيار الذي يضع عدسات مقعرة سميكة، ويعاني مـــن الماء السوداء في العين. انه هو هو نفســـه الـــذي ترتجـــف شواربه الصفراء، وأطرافه الثقيلة فلا يحســـن الـــنزول الـــى الطابق الأسفل والقعود في دكانه الصغيرة.

أمالت أم حسن رأسها مع الذكريات التـــي بـــدأت تشـــم الغرفة بضياء مرافق لأشعة شمس الصباح:

كنا ساكنين في "علما" في البر بين البســـاتين. بيـــن شجر الزيتون. بين الخير بين الزهر زهر البرتقال. أخ! مـــا أحلاها بلاد الفلاحين. العرس أيامها كان للجميع..... لكل أهـــل البلد، مش لناس محددين متل إسّه. النسوان تحطـــب حطـــب بالمناجل. تجيب حملات على روسهن وهن بيغنوا مبســـوطين. النسوان الكبار في العيلة واحدة تدق عالمزهرْ، اللي تـــتهاهي،

واللي ترقص قدامن. الرجال كانوا يجيبوا من حطين شباب يقولوا عتاب، يسحجوا، يقولوا "أح. يوه يضلوا جمعة يعللوا الرجال ترودح، النسوان تغني، وأهل البلد عروس البيادر شو بدي أحكيلك.. لأحكيلك.

حركت أم حسن يديها وكأنها تدفع نسيم الحقول عن وجهها، ألقت بعنقها إلى الوراء

كان عنا تين، عنب، زتون. تروح المرة تحقّل يدها ويد الزلمة. مثلها مثله يحصدوا عدس وقمح. ما كان أيامنا مدارس. وكانت العيل تجوز أولادها لبعضها، مش متل هلأ يكونوا غربية ولا يتعرفوا الا عند الجواز ولدت ابني البكر عبد الله وعمري أربعتاشر سنة حسن جبته وعمري ستاعش الشهر اللي خلّف فيه هجينا وطلعنا

وبقوة تلقائية لجمت الحديث الذي أوشك أن يتحول الى حجر تماحكه أصابع يديها وهما تفركانه، محاولة ثقبه وعصره لإخراج ما فيه من الماء. لكن قوة الحزن الطافحة اخترقت وجومها، ودفعتها للكلام مرة أخرى:

إيه... طلعنا من فلسطين. كنا تحت الزتون عم نفرط زتون لمن سقطت الصفصاف البلد اللي جنبنا عصابات الهاجاناة دبحوا كتير فيها، وروحوا عرض كتير دبحوا بنت أخو جارتي قدام أبوها نحن ما كان عنا سلاح. قلنا نبعد شوي قبل ما يصير فينا متل "الصفصاف و عين الزتون اللي سلمها الملك عبد الله، والا "دير ياسين طلعنا عالشمال.

ماشفنا شيء، ولا التفتنا خلف ظهورنا ضامنين حالنا نرجع بعد كام يوم. في "بنت جبيل لقينا "الوكالة بتضب الناس في سيارات بتروح ع "البرج الشمالي كانت الناس عايشة من القلّة وبس نزل التلج علينا في "برج الشمالي نقلونا على "نهر البارد في "طرابلس

كانت أم حسن تحكي فتنزاح غشاوة عن وجهها وتسقط أخرى محلها تذكر الأرض والتين والخبيزة، فتنبثق سحب من ألوان قوس قزح الزاهية على بشرتها وعينيها تعود إلى ميعة الصبا، فتشرق بشرتها، ويظللها التمـاع لا يلبث أن يجف ويمتقع حين تأتي على سيرة النزوح والتلج. صار وجهها أبيض اللون وكأن دماءه غاضب تماما.

وشو بدي أقولك وأقولك. ومن العز والخير صرنا على البلاطة لا فوقنا ولا تحتنا صرنا نقعد مع النسوان تحت الخيم، ونصير ننوح ونقول:

دشرنا بلاد العنب والتين وجينا عالمخيم نشحذ طحين

دشرنا بلاد العنب واللوزِ وجينا على الغربة نشحذ زتون

شو الذنب إل ساوينه بعد المعروف.

بس أقولك لمن كبر ابني فايز صار يتعلم بالجامعة إنجبرنا نترك مخيم نهر البارد ونجيء عالزعتر عشان جامعته. وهو في الجامعة العربية صار في الكومبين العرب. خلص وصار أستاذ في الوكالة. ولمن صارت المقاومة انتسب

للموقراطية. حطوه مسؤول سياسي. قبل سنتين في أيار نــــزل الجيش وصار يضرب عالشعب في كل المخيمـــات. استشـــهد فايـــز.

أردفت أم فايز:

حسن كان مع تنظيم فتح في الجامعة كان يشتغل فــي الصيف في المعامل ليحصّل مصروفه. لما استشهد أخوه قـــام حمل سلاحه، وقال بالدم نفديك يا شهيد. ودخل الموقراطية.

اعتلت جسدها رعشة خفيفة كمن أصابته حمى:

فايز كان حياة البيت كان ساكن هو ومرته اللبنانيـــة في الطابق اللي تحتنا الله سبحانه وتعـــالى صـــبّرني. عندمـــا سمعت إنه استشهد، ركضــت عالمكتب. غرِتُ عالباب لبطتـــه برجلي، انفتح، والا هو نايم على ظهره. قرّبت عليه. وطيّـــب وبُسته من هون وهون (وأشارت إلى خدها وجبهتها). رفعت راسي وقلت له:

يمّا أهنيك.

رفعوني عنه. هبت النار في جسمي. صرخـــت. شـقيت ثيابي، وأنا أركض وراهم عالجامع. أركض وراء الســـيارة وأختي تلحقني ومعها دبابيس تشكشكلي ثيابي. رميــت حـــالي عليه لمّا راحوا المستشفى قلت أنا ما أقوم عنه، بدي أمـــوت معه كان القصف دك عالزعتر، ونحن مش قادرين على دفنه اطلعوني معه عالبيت ثلاث أيام ونحن حاطينه فــــي الممـــر

والكل واقف حواليه الممشى بيني وبين الجيران بعرض الفرشة وهو نايم هناك مغطى، وأنا نايمة فوقه دون نقطة دمع واحدة. لو كنت بكيت قدامهم. كان أبوه وإخوته طقوا وماتوا وراه على طول. ومرته المشحرة نشف قلبها وفقعت تلات أيام، والرصاص يلعلع برّا ونحن كلنا حواليه هذا يصفرن أقوم أضبّه. وهذا يبكي أسكته والشهدا مشحّطة في الشوارع، ما حدا قادر يلمّها من يومها صار معي نشاف القلب قد ما منعت حالي عن البكاء. صرت أحس إنه العمر كله ما يكفي ناري.

وهنا، تنبهت أم حسن إلى أنها ذهبت بعيدا في إغراق عائشة وسط بحيرة حزنها، فسألتها في نبرة مراضاة واعتذار

يمّا إذا انسان خرب بيته، وانجرح قلبه، وتشرّد وصفي إخواته بسهلة، وأولاده بسهلة، وهوّه بسهلة بكون مبسوط؟ شبّ حطيته تحت التراب تشمشطنا تشردنا، صرنا متل طحين ونتفة مي، ما عاد ينضب. أيوو اللي مات مات. مصيرها الدنيا تهدا ويصير عندكم أولاد. ما أحلى من الولد الا ولد الولد.

نظرت أم حسن إلى بطن عائشة وكأنها تسألها رد الجواب خفضت عائشة عينيها إلى الأرض متجاهلة السؤال الصامت الذي يجرحها ويحرجها. ولد الولد ألهذا تحبها أم حسن تداريها، وتمنعها من العمل في البيت ملقية بالحمل كله على ابنتيها خزنة وآمنة اللتين تتذمران من عائشة أمامها

وخلف ظهرها لا، آمنة وحدها هي التي تعبر عن ضيقها خزنة لا تحكي أبدا لكن. أهذا ما تسعى إليه أم حسن القوية التي تريد للنسل الذي من صلبها أن لا ينقطع، فتزوج ابنها كي يظل قربها رغم أن الزواج لم يبق فايز لها ؟هل تهدأ الدنيا كما تقول أم حسن وهل تستكين معاناة عائشة، فتركن إلى التعود على هجمات القط التي لن تألفها أبدا.

أبدا. كما تهمس لنفسها كل صباح، وكل مساء. وكما تخبر نفسها الآن بعدما أخذ الهدوء ينحسر، وجلبة استيقاظ النائمين تغمر المنزل.

أحنى حسن رأسه، واختبأ خلف أكياس الرمل بعدما أزب رصاصة عابرة قرب صدغه طوى جورج جذعه وعاود الهبوط بحذر من خلف المتراس المكون من الأكياس وبراميل المازوت الفارغة كان حسن يتأمل المواقع المقابلة بالمنظار المكبر، فيما انشغل جورج بتتبع خارطة المواقع. قال حسن:

طيب ما أنا عارف. من زمان. علي الطلاق ما طالعين من التل إلا بطلوع الروح.

أجاب جورج:

مثل ما إنت شايف المهم... الإستحكامات

وهالحرش الملعون، علي الطلاق كله كماين وقناصين.

نكون في شيء منصير في شيء ثاني. من أين طلعوا هالكتائب أخوات أي والله ماني عارف كيف بدها تتحرر فلسطين مرّة، أيلول، ومرة الكحالة، ومرة بيروت. واحنا مش ملحقين هون والا هون.

وضع جورج يده على ذقنه التي طالت كثيرا، فتذكر ابتسام الطفلة ذات العشر سنوات وهي تعاود السؤال:

- جورج، متى ستحلق لحيتك؟

- حتى تتحرر فلسطين!

فتَرد عليه:

- ليش يا عمي، هي عمرها ستتحرر؟

يخبطها كفاً رقيقا على رقبتها، ويقول:

- ولكْ يا ابتسام. كل الدلال والحب والحكي معك، وطالعة يائسة من هلأ؟

ومن جديد استذكر جورج وجه عائشة. اذا فكر بالفتاة الصغيرة استعاد رؤية أختها الكبرى فورا، كالعلاقة بين العصفور وخيطه كما يقولون. لم يكن يتذكرها إلاّ كعينين سوداوين تخفقان مثل بيارق في ليل دامس. عجيب كم تستدَر في أعماقه شفقة لا يدرك سببها. حتى بعدما تزوجت فانها ظلت على عادتها السابقة في الأوقات النادرة التي يراها فيها. تنظر إليه بعينيها الحزينتين وكأنها تعاتبه، فيضطر الى سحب

بصره، وادعاء الغفلة إنه لا يفهم سر المشكلة بالضبط. أهي تلومه لأنها غير سعيدة مع صديقه حسن ! اضطر أخيرا إلى التباحث مع هناء حول جو الغموض الذي يحيط ابنة السيد التي بدت وكأن التعاسة لا تبارحها قط. وعدته هناء بالذهاب إليها والحديث معها حتى زوجها حسن صار قلقا من نظراتها الساهية، المرفرفة، الطائرة إلى اللامكان، وبدأ يدقق في أحوال البيت أثناء غيابه وكيف يعاملون عروسه. هل إن أحدا يضايقها دون أن يدري؟ تساءل، إلاّ أن أم حسن طمأنته أن السبب في توعك الفتاة قد يكون احتمال حملها السريع. إنها تعاملها معاملة الأميرات فلا تطالبها بعمل شيء، أو حتى بحمل غرض ما. ما القصة ؟ بقي حسن يطوي الأمر بينه وبين نفسه، إذ أنه لم يجد الفرصة أبدا للتصارح مع عروسته الخجولة، فلا يكاد يدخل البيت حتى يحين أوان عودته لا يملك وقتا ليفطر أو يحلق أو يستحم. كان منشغلا بسلسلة من المهمات التي لا تعطيه الفرصة كي يحك شعر رأسه حسب تعبير أمه الإشتباكات لم تتوقف، والقصف يبدأ ما بعد منتصف الليل أو في الفجر، ويستمر حتى الصباح أو ظهيرة اليوم التالي. وساعات الهدنة القليلة يغتنمها الناس كي يحضروا حاجيات بيوتهم، أو يؤمنوا خبز عجينهم المختمر خلال فترات وقف التراشق. أما الآن، ومع بداية شهر كانون الثاني من عام ١٩٧٦، وحيث يبدو الوصول إلى انفراج ما بمثابة المستحيل، فإن العمل يتم عل تعبئة جهود الناس لإقامة المتاريس. تعمل الميليشيا على تنظيم العمل في كل حي. يجمعون الرمل في

شاحنات، ثم يقومون بعبئته في أكياس الخيش. صار الشغل الشاغل داخل المخيم وعلى أطرافه، هو ملء الأكياس بالرمل وبناء سواتر في جميع الشوارع والممرات الإجبارية لتوقي القنص الذي تزايدت إصاباته لكن قلقا ممضا داهم حسن بسبب الحادثة التي حصلت البارحة صوّب مقاتلو منظمة "البرق العربي بنادقهم نحو سيارة نقل مدنية، بنيّة مصادرتها حيث ظنوا أنها تحمل أكياسا من الرز، وبعد جدل مع السائق الذي اصر على الإستنجاد بعناصر الميليشيا في الحي المجاور، فوجيء حاجز "البرق بأن حمولتها لم تكن سوى أكياس الرمل المخصصة للمتاريس، فاندفعوا إلى تبرير الموضوع بأعذار لا تقنع أحدا. حكى حسن مع جورج بصوت عال:

ولكْ يا جورج. هناك دلائل على أنهم عاملين مثل القراصنة. شو قصة المصادرات هذه؟ هل يمكن أنهم يصادروا تموين المواطنين ليتاجروا فيه تحت حجة الوطنية

كان جورج قد غادر مسرعا ليستكمل جولته اليومية على مواقع التحصينات. تاركا حسن دون جواب على سؤاله الملهوف. تكفينا مصائبنا في هذه المعمعة، كي تضاف إليها مشاكل من هذا النوع. فكّر حسن.

أطلت عائشة من الشباك على الجرف الذي يفصل المخيم عن المناطق المسيحية أرادت أن تتنشق هواء نقيا غير ذلك المحتبس الموشوم بخاتم الإشتباك. لا يكاد القصف أن يتوقف

حتى يعود من جديد أكثر ضراوة. يتوقف أزيـــز الرشاشـــات والرمايات، ثم لا تلبـث أن تـهبط القذائـف والرصاصـــات المختلفة الأحجام كالمطر المدرار حتى أجمل ما في الزيجــــة احتجب عنها أن تذهب إلى زيارة أمها وأبيها، وقد اســـتردت عطفهم، وكسبت جدارة الإنتماء بعد نبذ طويل. كـانت خـلال أيام الزواج الأولى تزورهم بشكل شبه يومي. تخطر بحذائـــها ذي الكعب العالي، شنطة اليد المعلقة على كوعـــها، وحمـرة الشفاه البنية الداكنة غير متقنة الطلاء على فمها، كالقطة التـي أكلت أولادها، كما همست آمنة أخت حســـن. كـانت تحـس بالطرب لتلك الساعة التي تغادر فيها إلى بيت أهلـــها، فتعـود منتعشة وقد صبغت حمرة خفيفـــة خديـــها الشـاحبين. تلـك المشاوير اليومية حطمت حاجزا يحجب روحها عــن الدنيـا وعن البشر، فصار التلكؤ في المسير على الطريــق هوايتـــها المفضلة. أرادت عائشة أن تجد شيئا تحبه في كل هذا الوضــع الجديد، فشغفت بالخروج من البيت وإذا بالقيامة تقوم ولا تقعد. كانت قد بدأت في تعلم التكيف مع المزايا التي يقدمها الـزواج اليها لن تكون ابنة لأهلها إلا هكذا. فالسيد يحترمها، ويحـــن عليها وكأن شهادة الزواج أثبتت ابوته التي كان يتهرب منـــها أما أمها فقد صارت تشاورها في كل أمر تعتزم القيـــام بــه، وخاصة في اختيار أفضل الطرق لإقناع موظفي مركز الهلال لإعطائها أجرا شهريا ثابتا لقاء عملها في التنظيـــف، وعـدم الإكتفاء باستخدامها مياومة وابتسام تتذرع بحجج متبدلة طيلـة اليوم كي تبقى معها في بيت أهل حسن، تساعدها في ترتيـــب

غرفتها، وتسرق لحظات تغافلها خلالها للإطلاع على ألــــوان طلاء الشفاه، وصبغ أظافرها باللون الأحمر اللماع. كل هذا يـا إلهي توقف في الجحيم الذي يبدأ ولا ينتهي. وها هي تطل من النافذة كي تشم الهواء النقي فلا تســـتطيع أن تفكــر إلا فــي هشاشة سقف "الأترنيت المغطى بالتوتياء في بيت أهلها لــم تنتبه لهذا إلا مع تصاعد الإشتباكات، وعندما أدركت بعــد أن سكنت في بيت أهل زوجها أن السقف والجدران فــي مــنزل أهلها لا تصد لفحة ريح قوية، فكيف سيكون الحال في خضــم هذه العاصفة؟

في النصف الثاني من الشهر الأول من العــام الجديـد، وعندما بدا أن الإشتباك لن يتوقف، أصرت ام حســن علــى ضرورة قدوم أهل عائشة للإقامة عندهم. لم تمــانع أم جــلال التي أرهقها الرعب بسبب سقف البيت الخرب جــهدت فــي إقناع السيد بضرورة المبيت في مكان آمن. إلا أنه تهكم عليــها قائلا:

- ولكْ يا مرة. اذا بدي أموت، أموت هون ليــش أروح وأعذب المسكينة أم فايز

وأصر السيد على المكوث في البيت.

أما حسن فقد كان يعلِّق ساخرا بمودة على العلاقة المتينة القائمة بين عائشة وأمه وعندما كان يلمح بمــرح إلــى أنــه اكتشف مصدر التشابه بين المرأتين قائلا ان الدمع هو ســرهما المشترك، كانت أم حسن تهب قائلة:

- ليه هوِ البكاء له سبب؟ عند اللزوم كل شيء 'يبكي يا حسرتي علينا.

الصغير حسام الذي لم ينقطع عن اللعب في الحارات في عز القنص صار يأتي إلى بيت أخته المتزوجة يوميا دون أن يبالي بالقصف فقط، ليأخذ بضع فرنكات كي يزرعها في البرميل الذي غرست فيه الدالية على سطح بيتهم، حالما بأن تثمر ليرات ذهبية لا أحد في العائلتين استطاع أن يفهم منبع هذه القناعة الغريبة حتى صار زرع الفرنكات تقليدا متبعا لا يجادل في ضرورته أحدا، وصار تنقل حسام بكنزته الصفراء المخرقة صاعدا أو هابطا بين البيتين طقسا يوميا

أما عائشة فكان شيئا عميقا تغير فيها حين قامت في ذلك الصباح بوجهها المصفر ومشيتها المتثاقلة اقلق وشيش البابور سكينة المكان، وكأنه يؤكد تأخرها عن الإستيقاظ. حبوب الفاصوليا البيضاء تغلي داخل القدر الكبير وسط الصلصة الحمراء. الدوائر الفائرة تعيد إليها مشهد عصير البندورة المطبوخ وقد فرشته النساء على الأسطحة قبل تجفيفه وحفظه. أصيبت عائشة بالغثيان وتقلبت معدتها بفعل رائحة البندورة الحامضية في وسط الغرفة، انحنت آمنة على كتلة العجين في اللجن النحاسي، تخلطها وتضربها بالكفين. تأرجحت الكريات القطنية المشبوكة بحواف منديلها "الأوية كانت تلكم العجينة التي تزداد ارتخاء وهي مقطبة الحاجبين، سادرة في حلم يقظة بعيد.

وعلى حين غرة اتجهت بكلامها إلى عائشة:

- العزّ للُرز، والبرغل شنق حاله.

وزفرت ممصمصة شفتيها، مشيحة باشمئزاز نحو الجهة الأخرى.

قالت أم حسن مؤنبة ابنتها:

- يا فتاح يا عليم. يا رزاق يا كريم.

وأكملت حديثها مع عائشة:

- صباح الفل. شايفة وجهك أصفر اليوم. إن شالله خير

ماشي الحال مرت عمي. وينه حسن؟

علا صوت آمنة مقلدا عائشة:

يختي. نزل. آه.

أسكتتها أم حسن بتعليق غاضب:

- إخزي الشيطان على وجه الصبح. صلي عالنبي يا بنت أحسنلك!

تجاهلت عائشة الهجوم الموجه إليها، وقالت:

- ماشي الحال مرت عمي. هوه حسن فاق ونزل بكير

أومأت لها أم حسن بالإيجاب، وواصلت تحريك الطبيخ، والسؤال الخفي يتلألأ في صدرها. أتكون كنتها حبلى. كان

التفكير بهذا الإحتمال يرطب دخيلتها، ويشرح صدرها. ستقبل بكل شذوذ عائشة عما هو معهود من الكنائن المباركات، وتذبح خروفا نذرا لقدميها فقط، لو لا شيء سوف يضيرها آنذاك، فقط لو تأتي لهم بطفل. اصفرار وجه العروس يبشر بالخير. سلالة رجال العائلة كفيلة بزرع بذرة الحبل حتى لو سلمت النساء عليهم بأكفهن وحدها.

سحبت آمنة كفيها من كتلة الطحين الطرية، ومسحتها بفوطة مبلولة، ثم أتت بقماشة من الشاش الأبيض وفردتها على العجين كي يخمر. بان قوامها الوافر الطويل عندما وقفت، وخطت فوق الحصير بأقدامها الحافية. ارتجفت عائشة بينها وبين نفسها بسبب الإنزعاج الهائل الذي تحسه في حضرة هذه الفتاة الشرانيّة التي لا تصلي علىالنبي كما تقول أم حسن. بدت لها بوجهها الطويل الأبيض وشعرها المالس المنسدل تحت المنديل، وشفتيها الكبيرتين القرمزيتين شبيهة بغولة تلتهم الأطفال. إنها لا تشبه شقيقتها الكبرى خزنة لا تمّت لها بصلة، لا من قريب ولا من بعيد. خزنة الضئيلة العرجاء التي أصيبت باكرا بشلل الأطفال ولم يعرف مستوصف "الأونروا" كيف يعالجها. لم تستطع العودة لعملها في مصنع النسيج المسيحي عقب الأحداث، فصارت تذهب لمساعدة فتيات المخيم في ملء الأكياس بالرمل، وتحضير وجبات الطعام لكمائن المليشيا المنتشرة على حدود التل.أما آمنة فإنها لا تتلهى إلا بافتعال النقار مع من حولها، أو بنزع شعيرات حواجبها وساقيها واحدة فواحدة بملقط الحواجب.

لملمت آمنة أطراف الدشداشة المقلمة التي ترتديها، وفتشت عن فردة الشبشب البلاستيكي الضائعة بين الأحذية والبوابيج على العتبة وانسحبت بغيظ لم تتورع عن إظهاره عامدة. لاحقتها أم حسن بتوسلاتها:

ولكْ يمّا. شوفي أبوك إنزلي أقعدي محله في الدكان خليه يعرف يصلي.

رمقت آمنة أمها بنظرة ولم تكلف نفسها عناء الجواب قبل خروجها أردفت أم حسن:

إذا ما نزلت هي، أنا أنزل أقعد محل الختيار

مسكين الختيار قالت عائشة في قلبها وتخيلته قاعدا على كرسيه الساعات الطوال غير قادر على الوضوء، يتيمم ويتطهر بتمسيد الحجر الذي يضعه قربه يصلي وهو جالس على كرسيه أثناء العمل بسبب عجز عينيه الكليلتين عندما لا يكون هناك أحد يقتاده إلى البيت في الأعلى. يظل في الدكان القائم على زاوية البناء، ولا مؤشر على وجوده غير تمتمات لسانه، وقمبازه الأسود المطرز الحاشية بخيط ذهبي. يشير للزبائن إلى مكان البضاعة، فيتناولونها وحدهم دون أن يتحرك صاحبها، يستدلون عليها بريح صراخه وحركة عنقه الكفيلتين بايجادها.

* * *

وقفت هناء في غرفة عائشة، فانعكس وجهها على جانب مرآة الخزانة، وبان وجه عائشة على الجانب الآخر كانت هناء تحكي وهي تؤشر بيديها:

والسينما! لو تعرفي كم أحبها قبل الحرب كنت أروح مع خالي على سينمات البرج وساحة الشهدا. أكتر فيلم حبّيته كان خلي بالك من زوزو كنت لابسة طقم صوف أزرق جديد اشترته أمي من سوق سرسق. وياريتك شفت البطل شو حلو يعني أشقر! لكن دمه مش تقيل أبدا. المهم، هيّه، سعاد حسني بنت مسكينة وقدرت تحل مشاكلها ومن يومها صرت أحضر كل أفلامها آه! لولا الحرب.

وعائشة صامتة تسند ظهرها إلى المخدة، ويدها اليسرى على خدها قالت هناء:

كان خالي يجيب منشورات حزبه ويخبيها بين كتبي، لهذا صرت أفهم في السياسة كنت أحرق الأوراق التي يخاف أن تنكشف وطلبت منه يدخلني التنظيم، قال لي لازم أستنى لما أكبر في المدرسة اتصلت في إحدى الأخوات وأنا في صف تاني تكميلي، وبدأت أشتغل في خلايا سرية، وعملت عالإشارة. ما أحلى شغل اللاسلكي. لكن يا ريت ترجع أيام الهدوء، وأرجع أزور خالي بالمنطقة الغربية وأروح معه عالسينما.

وأردفت ولو تهدا شوي تشتغلي معنا لأنه يمكن وضعك صعب. يعني عروس ولا يمكن تنزل على خط النار.

كنا نعطي دروس محو الأمية وبطلّنا، لأن الدنيا استنفار في استنفار آه، لو تعرفي كيف المرة الأولى عندما رميت على السلاح الثقيل. كنت متدربة منيح على الكلاشين، والبواريد وحكيت قدام الرفاق انه من الممكن للبنات الرمي بالأسلحة الثقيلة، ضحكوا علي وقالوا إنه المرة مش شاطرة إلا في الحكي. وأنا صممت، وحملت قاذف آر-بي-جي وأنا عند المضادات على تلة المير، ورميت خمس مرات على مركز رماية العدو ياريت لو شفتِ كيف الشباب مش مصدقين حالهم!! عرضوا إنهم يدربوا كتيبة مناضلات. والمسؤول العسكري وافق، لكن بشرط هدوء الأوضاع. ويا خسارة، من يومها والدنيا ما هديت.

هم يجعلوا الناس تتدرب ميليشيا، يعني بس على الكلاشن والقنابل اليدوية.

توقفت عن الحديث، ثم تابعت بمرارة:

كله كوم وخطف أبوي كوم. ولجنة الإرتباط غير نافعة في شيء، مع أنه جورج سأل كتير، كان زعلان من أمي لأنها مش قابلة تكتب الكتاب. العُرس مش ضروري، بس نكتب الكتاب عالقليلة يا حرام، أمي. والله ماني عارفة أسمع لها، والا لجورج، لا لا الحرب شغالة، وبس تهدا شوي يكونوا لقيوا أبوي أو عرفوا شيء عنه وبعدها بإذن الله..

روحت هناء بعد أن روت كل أخبارها لعائشة التي أدركت أخيرا ما هو الفرق بينهما.

الحرش! الحرش الأخضر يطل عليه حسن من شباك البيت فلا يرى منه سوى رؤوس أشجار الصنوبر البعيدة. يلمس شعر عائشة الخشن المضموم بمنديل مزخرف عليه مربعات حمراء صغيرة. يبتسم في وجهها كأب تضحكه فتاته المدللة بغرابة أطوارها يقول:

عيّوش! غير معقول إنك تنزلي للشغل قبل أشهر لساتك عروس جديدة، وما حدا سيفهم الموضوع. ماشي الحال، زهقانة من البيت، طولي الماكينة وخيطي. طرزي. إعملي ما تريدين لكن النزول في الإستنفار!! لأ مش معقول. شو بقولوا الرفاق؟؟ معقول إني عريس، وإنتِ عروس وما لك علاقة بالتنظيم، وتصيري تركضي في الشرق والغرب!! لأ صلي عالنبي أحسنلك. وإلا أهلي والناس يفكروك إنجنيتي.

وأشار بيده إلى مكان الحرش الذي نسمع فيه طقطقات بعيدة:

ويمكن يبدأ الهجوم اليوم على الحرش. ويمكن كان لازم نبدأه من زمان.

واستعاد حسن المناقشة المضنية في اجتماعات القوات المشتركة حول إحتلال الحرش أم تركه.

حرش ثابت خاصرة رخوة تفصل مخيم جسر الباشا عن مخيم الزعتر، وتفصلهما سويا عن النبعة وسن الفيل. كان حسن مع الرأي الغالب منذ بداية الإشتباكات وهو احتلال الحرش، لأن الذي يسيطر على الحرش هو الذي يحكم المخيم برماياته. عندما ازداد تذمر الناس واصاباتهم من تكاثر القنص المركز المنصب عليهم من هناك، باب التفكير في احتلاله جديا. لكن ما دفع القيادة المشتركة للتنظيمات إلى الأخذ الجدي بالقرار، هو احتلال الكرنتينا ففي تموز الفائت شنت القوات المعادية هجومها الأول على الكرنتينا دون أن تتاح لها القدرة على اقتحامها أما الآن وفي الأيام الأولى من العام الجديد، ورغم اتفاقيات الهدنة العديدة، فقد تم سقوط الكرنتينا وقتل العديد من سكانها بأشكال فظائعية رواها قلة من الهاربين. أثار الخبر وجوما بين سكان الزعتر، فاندفعوا إلى أجهزة الراديو يتوسلون بواسطتها معرفة التفاصيل. تجمعوا حول أجهزة التلفون، لكنها جميعا لم تروِ الغليل. الصحافة وحدها تستطيع نقل الحدث بحذافيره دون أن يتحكم بها الرقيب، لكن الجرائد لم تعد تدخل إلى المخيم بعد التطويق. إلا أن ما عرفه سكان الزعتر كان كافيا لإدراك أن مخيمهم يشكل المحطة التالية في خطة محو التجمعات الفلسطينية من المنطقة الشرقية كما أعلن قادة الكتائب باستمرار

مشى حسن إلى موقعه، وهو يعاود تذكر كل ما عليه أن يسهم به اليوم ضمن مهمة توزيع مجموعات الميليشيا كان منشغلا تماماً بتفحص مواقع التحصينات، فعليها يتوقف في الأيام المقبلة كل شيء. الخنادق الوحيدة الجاهزة هي على محاور الدكوانة وتلة المير وقبل أسبوع تم رفع السواتر الترابية العالية على محور "سِلِكْ-حي كركبا" كان حفر الخنادق قد ابتدأ في التلة المواجهة لمنطقة سلاف، وعليه الان التجوال بين المواقع، والتأكد من أن كل ما جرى الإعداد له خلال الليلة الفائتة، سوف يسير دون مشاكل أو إهمال.

كان الطقس صحوا، والسماء لامعة مثل صحن البلور أراد أن يصفر أغنيته المفضلة "انت عمري ترنم في دخيلته، ولم يستطع أن يطلق اللحن كما تعود بالأمس القريب "رجعّوني عنيك... أز صفير قنبلة قريبا منه، فتدارى وراء الحائط، وركض وهو يفكر بأن قرار احتلال الحرش كان ضروريا منذ ساعات التطويق الأولى للزعتر كان لا ينبي يزداد دهشة وتعجبا من موقف مندوبي تنظيم "البرق وهم يعلنون أن الأوامر التي وصلتهم من مركزهم الرئيسي لا تعطيهم صلاحية المشاركة في هذه الخطوة، كونها تزيد في استفزاز الأعداء. استعر الغيظ في داخله بسبب منطقهم هذا هل إن المشكلة هي أن لا نستفِز المهاجمين أم أن ندافع عن أنفسنا قبل كل شيء ومن هو الذي يحاصر الآخر ويرفض وجوده، نحن أم هم ؟؟ عجبي على المنطق الأعوج! يحكي حسن لنفسه. ثم ينسى كل المسألة دفعة واحدة لدى وصوله

إلى عتبة البناء الأول الذي سيبدأ منه الهجوم لاحتلال حرش ثابت. وفي الصخب المتدافع لأقدام الرجال، وصرير تركيب قطع السلاح، التفت حسن إلى الخلف، فرآه وراء كتفه. البريق الساطع، الوهاج، المشعشع. اشعاع شمس الصباح الأولى على أشجار الصنوبر الحلوة في الحرش. كان معجبا بمنظرها دائماً في الأيام الخالية قبل أن تنشب الحرب. كانت مكانه الأول لإكتشاف أعشاش العصافير، وأكواز الصنوبر المخروطية التي تتساقط منها حبوب جافة سوداء. يجمعون الأكواز هو وأصدقاؤه ثم يحرقونها وسط كومة نيران صغيرة، فتنهال الحبيبات لذيذة الطعم داخل أجنحة شفافة، يفركونها فلا تلبث أن تصير صالحة للأكل كم أحنى رأسه تحت جذع شجرة معمرة هناك، ونام على صوت الزيزان. وكم التقط من العناكب ثم أفرج عنها بسبب رقتها ونحافة أرجلها، ورشاقة حركتها كان صوت العصافير يتعالى آنذاك في جوقة منغمة أما الآن، فإن المرء لا يجرؤ على الإصغاء ولو إلى الأغنيات التي تدور في دماغه دون أن تدوخه القذائف الحائمة ليل نهار صرخ حسن وهو يصعد الدرج كما لو كان ينهر أحداً ما "إنت عمري ي فجأة أطل عليه وجه جورج الذي قال:

ـ والله.. عارفين إنك عريس، بس أركض لفوق عشان ندبر جُعب جديدة بدل الناقصة.

وغرِق العريس في عرق الخجل البارد، كأنه كان يرتكب فعلاً مشينا ثم كشفه الصديق.

***

للمرة الأولى تحس خزنة نفسها خفيفة وطائرة إلى هذا الحد. كأنها تحلق فوق حقل ربيعي. الحرش أخضر، لكنه لم يعطها من قبل هذا الإحساس. منذ صحوتها على العالم وجسدها ثقيل. خطواتها ثقيلة تجعلها تحس أنها تسحب نفسها إلى الأمام مثل العربة الغارقة في الطين. أصيبت في طفولتها بحمى شلل الأطفال، ولم تعالجها عيادة "وكالة الغوث" الا بدواء مسكن "أسبرين" وعاشت تجر قدمها وراءها مرارا قطعت هذا الحرش أيام الآحاد وهي تجمع أعشابا مع الفتيات، بقلة خضرا، حميضة، لوف، وخبيزة. تتحول جميعها إلى أطباق لذيذة تجهزها الوالدة التي تجيد ضغط المصروف العائلي. والمصروف العائلي هو حصيلة جهدها كل شهر تحضر المعاش، وتسلمه إلى أم فايز كي تدبر أحوال الأسرة الكبيرة، وأولاد فايز ياه! الحقل أخضر، أخضر رغم أننا في الشتاء ، وأزهار الأقحوان الصفراء تشعشع وتضيء بالذهب وسطه. نط أمامها فرس النبي. لونه أخضر عشبي داكن. يدفع أقدامه المطوية إلى فوق. ويمشي مثل سفينة محلقة لا يمشي، يطير! يظل يحوم، يحلق، يقفز رغم أنه حشرة هائمة سبحان النبي اللهم صل عليه وسلم، حتى الحشرات تتمتع بخفة الحركة أكثر من البشر أحيانا وهي تمد في خطواتها إلى مركز إسعاف الهلال الحسينية على أطراف الحرش، ولا تخاف من قنص الرصاص حولها. تتجاهل الحبات الطائرة التي تتجول بين أذرع القناصين، وفضاء الحرش، وتمشي كما العادة. بل، أفضل من العادة وبداخلها إيمان حاد بالقدر لن

يصيبنا إلا ما كتب الله لنا لطالما أحبت أن تدخل في دورات تدريب الفتيات على المقاومة وحمل السلاح، لكنها لم تجرؤ أن تفعل. كان هناك من سيعيرها بشلل ساقها المريضة حتما أخذت دورة إسعاف أولي منذ عامين. تعلمت دق الأبر على ثمرة باذنجان، كما تعلمت قياس الحرارة والضغط. وها هي الآن مسعفة على محور متقدم. تسير ممتلئة ثقة واندفاعا

ربما مثلهم، الأصحاء، وربما بعنفوان أكثر وأشد فهذا أفضل من أن يظن الجميع أن وظيفتها الوحيدة هي خدمة العائلة ما دامت غير مرشحة للزواج، أو أن تنفق وقتها في تلبية طلبات الكبار والصغار، أو أن تغفو على التكرار الممل للوالد عن أيام سفر برلك وتركيا كيف هرب من العسكرية، وكيف اختبأ عند بحيرة الحولة مع ابن عمه، وكيف خبأ ابن العم الليرات الذهبية في مؤخرته خوفا من بطش الأتراك يظل ينفث دخن سجائره "اللف وهو يردد يلعن دين تركيا ابن العم عبد الله لم يعد قادرا على المشي من الثقل وعندما وصلا الى علما" في النهاية، أصيب عبد الله بإسهال حاد حتى صارت تتساقط منه الليرات الذهبية دون أن يشعر. فيما بعد راحت "مرّة مجيد لتكنس وعثرت على المصاري في كومة زبل الماعز ويظل الوالد يروي بالشغف نفسه، يخبرها ضلينا مختبئين حتى انكسرت تركيا هكذا الدنيا قسمة ونصيب، ومهمة خزنة كانت الإصغاء دائما، وقسمتها أن تظل ساكتة ومستمعة للجميع.

بعد أربعة أيام من الإشتباك والتمركز في حرش ثابت أخذت القيادة المشتركة قرارها بالتخلي عن الحرش كان الحفاظ عليه صعبا، واحتلاله يرهق المليشيا التي تحمي المخيم. صدرت تهديدات شديدة اللهجة عن لجنة الإرتباط، حول العواقب السياسية الكبيرة للتمدد الفلسطيني. لم يقتنع أهل المخيم بقصة التمدد هذه، اذ أنهم عاشوا طويلا دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الإهتمام بما هو أبعد من حواف نوافذهم، لكنهم كانوا يحلمون بأن يكف خطر الرمايات الكتائبية عليهم. وكان هذا شاقا وغاليا، فليس عندهم من القوات ما يكفل استمرار الحفاظ على حرش ثابت الذي يؤمن السيطرة على طرقات المخيم، ويتحكم بحركة كل مخلوق فيه في اليوم الخامس أخذ قرار الإنسحاب ونفذ وفي اليوم الخامس عادت خزنة إلى بيتها، غبراء، مشعثة الشعر، لا تبالي بسخرية امنة منها لإلتحاقها بالقوات العسكرية الشيء الجديد الذي تغير في البيت هو أن خزنة صارت تروي حادثة واجهتها لكل من تشاهده:

جاء إلي أحد المقاتلين، وقال: يا أخت خزنة. في مبنى على زاوية الحرش خمسة جرحى، فهيا بنا. حمل لي جعبة الإسعاف وركض أمامي. لكن لم نقدر أن ندخل من مدخل البناية بسبب القصف الموجه عليه من الطابق الأول مدت لنا أربع نساء منشفة حمام. تمسكت بها جيدا ورفعني الشاب على كتفه كي أصعد سحبت النساء الأربع الحبل، وعندما دخلت ورأيت الجرحى تلبكت. رأيت طفلين وامرأة

وفتاتين. لم أدر بمن أبدأ أولا ولكني تذكرت درس الإسعاف الأولي وهو أن نبدأ بالحالة الأخطر وبعد أن شرعت في تضميد جراحهم، نفذت اللفافات الطبية فمزقت لي النساء شراشف منزلهن، وأعطينني اياها مع مياه مغلية مع ملح.

(٩)

ازدادت المجاعة، أغلقت الدكاكين بسبب بدء نفاذ المـــواد الغذائية السكان الذين كانوا يعتمدون في كسب رزقهم علـــــى العمل المياوم لم يعد بامكانهم الحصول على ما يسد الرمــــق فرغ احتياط الخزين المنزلي من البيوت. مر منتصـــف شـــهر كانون الثاني ولم تهدأ الأمور حسبما وعدت لجنـــة الإرتبـــاط. في بيت أم جلال لم يعد هناك كاز للبابور وجرار الغـــاز لـــم تملأ من جديد، فقد اختفى الموزع، ولم يعرف أين هو، وكيـف يمكن العثور عليه.

عندما يتوقف القصف، ونادرا ما كان. كـــانت عائشـــة تزور أهلها تدخل إلى البيت وتتعجب كيف يمكن أن يتكســـر اسمنته ويلتوي صاج سقفه لو نزلت عليه قذيفة ما تتعجـــب من القصارة الكلسية التي تهّر عن الجدران. من حماس أمـــها الدائم لخدمة الناس الذين تعرفهم والبعيدين عنها. مـــن الولـــد

حسام الذي يطفش في الحارات، ومن السيد الذي يحتفي بـــها رغم ذهوله المتواصل. أرادت مرة من أمها أن تعلمها العجـن، لأن آمنة أسمعتها بشكل متكرر أنها "لا فـــي العـــير ولا فـــي النفير"، وأنها لا تتقن صناعة أي شيء. علمتها أم جلال كيــف تخلط الطحين بالماء، وكيف تنتظر العجين ليخمر، ثم تقطعـــه إلى أقراص. وضعت الأم قطعة شاش أبيض علـــى الصينيـــة كي لا يلوثها الذباب، وحملت ابتسام الصينية إلى الفرن فـوق رأسها الصغير، ويداها مسدلتان بتوازن تلقائي. لم تمض خمس دقائق على خروج ابتسام حتى عادت تركض وبرفقتها حســـام وهما يجرجران شيئا ثقيلا.

كانا يبذلان جهدهما لدفع جسم مخروطي ثقيل.حدقـــت أم جلال وعائشة في الكتلة التـــي جلبـــها الولـــدان بحـــس مـــن الإعتزاز، ولم تصدقا ما تريان. إذ أن ابتسام وحسام وبهمـــة عالية عملا على سحب صاروخ وجداه في البـــورة المقابلـــة. خرج السيد من شروده المســـتديم ليصـــرخ، ويركـــض الـــى الصاروخ، ويسحبه الى كومة القمامـــة، حيـــث كـــان. ســـقط الصاروخ وتعطل صاعقه، لكن أحداً لم يقترب منه عدا الأولاد الشياطين هؤلاء، كما دعاهما أبو جلال. علـــى العتبـــة أثنـــاء خروجها، استعادت عائشة الطعم المر في حلقـــها لذكريـــات أيامها الخالية. لم يعد جورج يحضر إلى هنا بعـــد أن شـــغلته المهمات المستجدة. ولم يكن بإمكانها هي غـــير أن تستســـلم لمقادير أيامها الحامضة ليس وحدها، وانما جميع من يسكنون التل المسمى على اسم النبات الأخضر. الزعـــــتر!

في الأيام الأخيرة من الشهر الأول في العام الجديد، فرجت الضائقة التي فرضها الحصار على المخيم. بغتة، قُتلت امرأة تحت ستر الظلام برصاصة قنص. ماتت وبين يديها فخذة خاروف كبيرة مجمدة. كانت الجثة -الدليل الذي حدا بجيوش جرارة من الناس للتوجه إلى مصانع تبريد اللحوم الواقعة بين المكلس وجسر الباشا. لحوم "سوبكا" المبردة الشهيرة، مع علب السمن، وحبوب الشكولاتة المغلفة بالورق اللماع، مع طحين "لايم لايت" الأصلي، انتقلت كلها إلى الطرق المتعرجة والمتربة، تتخاطفها أيدي الناس، ويركضون بها إلى بيوتهم تحت نار القصف والقنص، فيعيش من يعيش، ويموت من يموت. حتى مسلخ الدجاج وصلته أيدي السكان الجائعة، دون أن يقدروا أن الهجوم المقبل سوف يؤدي إلى احتلال كل المعامل، أو معظم ما تبقى منها. ففي أقل من شهر، ورغم حصول هدنة بين الأطراف لمدة عشرة أيام، بدأ الهجوم الثاني من جهة المنصورية. ولم يتح للسكان استهلاك ثمار التفاح المرمية في الطرقات إثر إخراجها من البرادات، وقد بدأت تتعفن وتتلف رويدا رويداً تحت شمس الشتاء الهادئة.

كان ذلك هو المنظر الذي لن أنساه. فيوم أتيح لي أن أدخل مخميم الزعتر ضمن القلائل الذين استطاعوا الوصول إليه بين حصارين، رأيت ثمار التفاح مرمية في الطرقات وقد

انكمشت، وتجمدت قشرتها لكنها حافظت على لونها الأحمر الجميل. آنذاك قلت في سري الزعتر؟ لم لا يسمونه تل التفاح؟ وآنذاك تراءى لي بيت جدي في وادي التفاح في الخليل. وتذكرت أمي حياة في منتصف الخمسينات، التي أقامت مؤقتا في بيت جدي قبل أن تنتقل إلى علية المدرسة المسكونة بداء الحصبة ولسع الثلج. آنذاك، ويا لبراءتي وقتها، ناديت جدي لأخبره بكل بساطة ما سمعته عن لسان أمي وهي تشكو لسليمة الحاجة مضايقات وآلام السكنى مع زوجة جدي الرابعة قلت له أخبرته. وكان عمري ثلاث سنوات أمي اتهمتني وسليمة الحاجة فيما بعد بأني دسست عليها، ووشيت بشجونها إلى رجل القبيلة ذي الطربوش الأحمر والذؤابة الحريرية لكن. أريد أن أقول إن كل الأماكن التي رأيتها فيما بعد ما برحت تذكرني بمسقط الرأس في فلسطين. وفي تل الزعتر، استعدت وادي التفاح في الضفة الغربية من فلسطين. وازداد عجبي من الفواكه الجافة التي تبرقع وجه المكان مثل النمش في وجه تعرض للشمس. كانوا جميعا يتشمسون الكبار، والصغار جميعهم خرجوا من الملاجئ والممرات ودهاليز البنايات كي يأخذوا لفحة من الأشعة الشقراء. عجائز لهن وجوه مبرقعة بأخلاط من الوشم الذي انطبع منذ زمن غابر قبل أن يحضرن إلى هنا. يجلسن وقد وضعن أحفادهن في الأحضان، بينما انشغلت النساء بتهوية الملاءات والحرامات التي نام عليها الصغار أثناء الإحتباس لم ينظر أحد إلى الثمار التي تملأ الأرض شبيهة بأحجار منسية منذ

بدء الخليقة دارت السيارة وصعدت إلى التل. وهناك في المستوصف أتيح لي رؤية أم جلال، مع الطبيب الذي يعمل في المركز الشعبي لتقديم الخدمات. عندما أخبرتهم بأني حضرت لإجراء تحقيق صحافي حول صمود المخيم وفي مناسبة الإحتفال بذكرى انطلاقة الثورة، تنادوا من هنا وهناك وتكلموا معي. حسن. خزنة جورج. وهناء عاملة اللاسلكي وفي فسحة من فراغ، وعندما تسنى لي النظر من شباك المستوصف إلى بنايات المنطقة الشرقية المقابلة أحسست برعب شديد، واستطعت أن أفهم ماذا يعني الطوق. وبشكل تلقائي، دخلت أم جلال إلى الغرفة الملاصقة التي يفصلها عنا ستار قماشي هزيل. أضاءت البابور، وصنعت لنا الشاي. شرح لي الطبيب المنتدب سوء الوضع، ونقص الدواء رغم الصناديق القليلة التي أفلحت لجنة الإرتباط في إدخالها بواسطة الملالات العسكرية. طالبني بأن أكتب ماذا يعني غياب مستشفى مركزي مجهز بغرفة عمليات للطوارئ.

الطبيب اسمه أشرف محمود بدران. تعلم في الجامعة الأمريكية في بيروت، وعمل مدة سنتين في دولة خليجية ثم عاد إلى بيروت للتطوع في المقاومة كما أخبرني. انتبهت إلى أناقته رغم البؤس الخارجي الشامل. عندما عرفت زوجته دلال في النصف الثاني من ذلك العام، قالت إنه هكذا دائما يعتني بنفسه رغم كل شيء. لا أريد أن أبالغ في وصف هندامه، سيما وأنه أمضى فترة الحصار الثاني في البنطلون والقميص نفسهما. لكن الأنيق أنيق على رأي أمي، ولو كان

يرتدي كيس خيش. شكا لي الطبيب شكوى مُرَّة من نقص الأدوية والمطهرات. من غياب مولدات احتياطية كفيلة بتشغيل غرفة العمليات في حال استمرار انقطاع الكهرباء، ومن ندرة الأدوات الطبية المستخدمة في الجراحة. طلب مني بإلحاح: اذهبي واكتبي أنه من الصعب الصمود اذا استمرت الحالة نفسها من بعيد اقترب جورج. عرفته منذ دخوله العتبة أن أم جلال انتهزت الفرصة البسيطة التي أدار بها الطبيب ظهره لمراجعة إحدى العيادات. واقتربت مني قائلة: يا ريتك تشوفي جورج، ما حدا بيعرف شو القصة متله! شبْ متل القمر، وفهمان. منذ خطوته الأولى على العتبة، استطعت أن أعرفه، فقد شعت أساريرها وتهللت. قالت أم جلال بصوتها المبحوح: ولكْ تقبرني يا ابني.معاك سيجارة؟

بيني وبين نفسي أرجعت اعجاب الكهلة البدينة به إلى أسباب انتهازية تظهرها طريقة تدخينها النهمة، وسطوها على سجائره الواحدة تلو الأخرى أثناء انهماكه في الحديث.

ببدلته الكاكية اللون التي تجسد اجتماع نقيضين: القوة والليونة، حكى لي جورج عن محاولات فك الحصار عن المخيم:

أردنا من الإتصال بمنطقتي النبعة وبرج حمود أن نفتح قناة تفك الحصار كان حرش ثابت هو الوسيلة الوحيدة لتأمين خط يزودنا بالتموين والدعم العسكري. حاولنا ولم نستطع الإستمرار هناك في النهاية ليست لدينا قوات عسكرية

محترفة، المليشيا بإمكانها الدفاع وليس الهجوم. وما زلنا نـــأمل أن يستطيع أخواننا فتح منفذ أو ثغرة عــن طــريق الجبـــل، فالأحوال ميؤوس منها إن لم يدعمنا أحد. لدينا نقص هائل فـــي الأسلحة بالإضافة إلى عدم تنوعها. عندنا كلاشينكوفات فقـــط. وذخائر صواريخ الآر- بي- جي لا تكفينا يجب أن يحس بنـــا إخواننا خارجا ويساعدونا التلقائية التي اعتمدنا عليـــها فيمـــا سبق لا تجدي. سوف يحادثك حسن مســؤول الميليشـــيا عـــن تجربة الحصار لكن أكتبي.أرجوك. أكتبي.

وحينما دخلت خزنة الضئيلة وهي تلهث قائلة:

بعد دقائق يكون حسن هنا.

بدأ الجميع يسألونني عن الأحـــــوال فـــي المنطقـــة الغربية من بيروت

لم يمكنني آنذاك تذكر أشياء كثيرة. فرغم ويلات الدمـــار والقذائف التي تسقط على الشق الآخر من المدينة، الا أنه لـــم يكن ممكنا مقارنة ذلك بالرعب الذي واجهته على الطريق إلى التل، أو بمشاعر الفزع المتوحد، وبحس الهجران والنبذ يتسلل إلى احساس كل من يأتي إلى هذه البقعة حضرت في ســـيارة صديق لبناني. وعلى طول الحزام الفاصل بين المنطقة الغربية والشرقية، لم تشهد عيني أثر لإنسان. أتينا فور الإعلان عـــن توقف الخطف على ذمة "لجنة الإرتباط" بين الجانبين. لم التفت طويلا لاحتمال وجود حواجز الخطف "الطيارة". اعتمدت علـــى

ضمانة مهنة الطبيب التي يحملها صديقنا. هل سيفكرون في إلحاق الأذى بطبيب ؟؟ كان ذلك هو الأمان الذي أعطيته لنفسي، ولم أطل التفكير كثيرا في الموضوع. فأما أن أذهب أو لا !! وقد أردت الذهاب، إلا أن نفسي الداخلية كانت مفعمة بالطمأنينة بسبب حملي راودني شعور ما طيلة تلك الفترة بأن الحرب لن تطالني بسبب يناعة الشعور بالخصب في داخلي. لماذا؟ لا أعلم، ولا أستطيع أن أفهم أو أحلل هذا الشعور على الطريق الفارغة التي كانت تعج ذات يوم بالبشر والعربات، لم تعبر سوى سيارة وحيدة هي سيارتنا ولم نلحظ غير اصطفاف أشجار حرش بيروت الشهير التي تمتد على الخط الفاصل لتؤكد إصرارها على إسمها القديم "الحزام الأخضر لكن قمم الصنوبر الشامخ بقيت الشاهد على خلو السماء والأرض فوقها وتحتها من وجود أي كائن حي. منات من الفيلات والبيوت الفارغة على خط التماس الذي تقطعه السيارات بصمت المتسللين. والعين تشهد آثار مسودة، ورؤوس حفر تركتها قذائف هاون على واجهات البنايات التي احتفظت ملامحها بأدلة على رفاه الشقق ذات الأبواب الخشبية اللماعة، والمعمار العصري. لم نر إنسانا واحدا، أو "صوصا" واحدا حسبما يقولون في هذه المدينة حين يريدون المبالغة قرب بنايات جسر الباشا الفارغة من السكان تعلقت ميكروفونات تصدح عبرها أغاني حماسية لا أدري لأي من الجانبين تنتمي. لكن صخبها العالي وسط الصمت المفترس كان يؤكد وحشتنا الكاملة عن العالم الذي خلفناه وراءنا.

ومضينا إلى حيث لا نعلم. في بيروت يشعر المرء بأنه مركز العالم، وضحيته القادمة لا تمر قذيفة مجهولة إلاّ ويساورك الإعتقاد بأن كل صحف الكرة الأرضية ستهتم برصدها، وتتبع مسارها يكفي حس الدفء الذي تجلبه غابة الإسمنت في "الطريق الجديدة" أو "بربور كل الطرق مغطاة ومظللة في الجانب الآخر الذي أتينا منه هكذا رأيت، ولم أدر كيف استطعت أن أنسى القصف الذي قتل صبيين يعملان في كاراج حارتنا هناك. يكفي أمان المظلة الكبيرة التي فرشتها بيروت الوطنية على جميع من ساهموا في إنشاء حلمها بالديمقراطية والتغيير أثناء الحقبة الأولى من الحرب الأهلية.

أتى حسن أخيرا ليحدثني عن الميليشيا واللجان الشعبية المسؤولة عن معالجة المشاكل الحياتية في المخيم. شاب حيوي الطابع يرتدي بدلة رياضية زرقاء للركض. لم أستطع تقدير عمره، لأن طريقته الرصينة في الكلام المتأني، لم تتوافق مع شعره الأكرت الغامق، ودقة أنفه الرفيع. كما أن استطالة فمه العريض المنطلق، أوحت بتخطيه سن الشباب إلى كهولة من نوع جديد ومختلف. بدا أن وجوده ينشر بين الجمع احتراما مماثلا لذاك الذي يحوزه الطبيب أو جورج مسؤول التنظيم. حدثني حسن كيف شاركت نساء المخيم في خياطة الأكياس التي أعدت للمتاريس، مستخدمات الملاءات البيتية وأغطية الملاحف. كان الجميع يعملون فتيانا أم صبايا. الأطفال وحدهم اكتفوا باللهو بأكوام الرمل والتراب. حتى الشيوخ حملوا المعاول وساهموا في نكش التربة وتحصيرها للتعبئة

في الأكياس وقف حسن كمن يؤدي سلاما عسكريا وقال باصرار

أرجوك، اخبريهم أننا نفتقد إلى آبار الماء الارتوازية. أنهم لم يستمعوا لتوسلاتنا بإنشاء مستشفى مركزي تحت الأرض محصن ضد القصف. إنني لا أعرف ماذا يفعلون هناك. ولماذا هم لا يتعاملون مع وضعنا بالجدية اللازمة!

أخبرته

ليس لدى التنظيمات أموال كافية بالتأكيد، والا لكانوا لبّوا طلبك منذ زمن طويل. لو كان عندهم إمكانيات مالية لفعلوا.

فاجأتني إجابته:

بلى لديهم.دول النفط تقدم لهم الكثير

كان ذلك هو درس الضمير الأول الذي تعلمته إبان تلك الحرب. أن يقول المرء قناعته بغض النظر عن الشعارات. تلك المرحلة التي لم نكن قد وصلنا إليها بعد، حيث كنا في عز رومانسية الثورة، خاصة في الشق الثاني من المدينة لكن حسن كان يعبر تماما عن قولنا الشعبي المأثور: الذي يده في المياه الساخنة غير الذي يضعها في مياه باردة.

وأضاف حسن:

وعندنا مشكلة رهيبة من نقص التموين. فلو كان لدينا مولدات كهرباء لاستطعنا تكديس احتياطي غذائي تحت الأرض. ثم

وتوقف عن الحديث، ونظر إلى جورج كمن يستشيره لكي يصادق على كلامه:

هناك مشكلة السوق السوداء. بدأنا نكبس أجهزة تلفزيون مسروقة ومخبأة في بعض البيوت. ولو توفرت لدينا إمكانيات توفير الحاجات الضرورية للناس، لعملنا على السيطرة منذ الآن على ما يجري من سرقات.

وأضاف شارحا

- يذهبون إلى المحلات والدكاكين مستغلين حالة الفوضى.

ولم يكمل.

استوقفتني شخصيته من قبل لم أشاهد مسؤول ميليشيا بهذه الجرأة والتلقائية ففي معظم المواقع التي زرتها أثناء تحقيقاتي كان مسؤولو الميليشيا واللجان الشعبية رجالا طاعنين في السن، نشيطين لم تفارقهم حمية الشباب، إذ انهم يكونون على الأغلب من مناضلي فلسطين القدماء قبل خروج عام ١٩٤٨ لكنهم كانوا يبدون طاعة شديدة وانطواء مرتبكا في علاقتهم بمسؤولي التنظيمات، خاصة العسكريين منهم. حسن هو الوحيد الذي بدا له حضور متميز، أمام جورج القائد التنظيمي والعسكري. ما زلت أذكر نبرة صوته الحارقة ترن في مخيلتي حتى الآن وهو يخبرني:

- روحي وقولي لهم. بدّنا مستشفى ومولـــدات كـــهرباء. بدّنا أغذية ومؤن ومعونات بدنا أدوية ومطهرات. وأهم مـــن كل شيء. بدنا مازوت الوقود أهم الأشياء. الصمود لا يجيء من الهواء. خليهم يفهمونا قبل ما يطالبونا ببقية الأشياء.

مشكلة ذلك النهار بالنسبة لأم حسن تركزت في شـكوكها الخفية حول ضعف صحة كنتها التي قد لا تؤهلها لأن تحـــافظ على استمرار الحمل. وفي الحقيقة أن أم حسن كانت عـــاجزة عن فتح السيرة أمام عائشة لذا كانت تذهب خطفا إلـــى بيـــت إحدى قريباتها لتفشَ قلبها، أثناء فترة الصباح، وعندما يخفت القصف أو يتوقف بفعل فترة هدنة شكلية كما حدث ذلك اليـوم. تواصل أم حسن المباحثات النسائية مع نسوان في مثل عمرهـا يفهمن عليها، ولسن مثل جيل هذا الوقت. قالت قريبتها:

لازم تجيبي حص لبان. بتغليه مع المية وبتشرب منه المرَة أربعين يوم معلقة على الريق.

قالت أم حسن:

طريق "سوق سرسق مسكر ومفـــش فـــي المخيـم عطار. الله يسّهل على مشايخ أيام زمان كانوا بيسووا الحجـاب في خيطان حرير بسبع ألوان. كان الشيخ يلف الخيطان علـــى

بعضها فتصير قد العشر قروش. وكان يقرى عليها آيات قرآن. ويغمسها بالزيت ويحطها في جلدة غزال.

أضافت المضيفة:

ديري بالك عليها لا تخليها تروح على دار فيها فرح وإلاّ كره. وخليها هادية ورايقة وأوعك تحمل شيء تقيل أحسن ينفتح ظهرها، وتطرح الولد.

لأ يختي لأ الأولاد شمعات الدار وأنا دوبني صدقت حالي أن الولد تجَوز وسوف يلتهي بالبوبو الصغير اللي متل القمر والله، والله إني ركعت لربي مية ركعة حتى تجوز وآخرته يركزْ بدل ما يظل طاشش وصايع مع الفدائية الله يحميهم ربي بإذن جاه النبي محمد. الله يجعلك يا عايشة تحبلي وتخلفي ويعطيك الصبيان بحق العين اللي لا تغفل ولا تنام.

وهاهت أم حسن بصوت منخفض:

يا حبل اللولو على الحيطان أريته حسن وحداني يعمَر بيته

وأردفت شارحة

هُو الوحداني قُطف في عب دالية

يا حسرة على اللّي خلاّه وحداني بعد ما كانوا اتنين.

والتفتت صوب قريبتها شارحة: هاي كنا نغنيها على أيام ثورة ٣٦ لمّا كنا صغار.

ولم تكن المرأة هناك بل في المطبخ القريب تعد الشاي الذي صار عملة نادرة. أكملت أم حسن الحديث مع نفسها غنت

يا أم الاثنين ابكي على واحد منهم ويا أم الواحد إبكي عليه

شرقت بأنفاسها وطفحت دموعها، وصاحت تنادي قريبتها:

بس يا أم سليمان. والله ما احنا جايين نجرب كرمك وطيبتك .وفرٍي الكاز لليوم الأسود أحسنلك. تعالي يا حبيبتي، واقعدي معي شوية قبل ما أمشي.

كالسهم المارق دخلت هناء إلى مقر العيادة. عرفوها لي:

هناء أجدع عاملة إشارة في كل المخيم. والله ما في مثلها أبدا. تسهر في مناوبة اللاسلكي، وترافق الفتيات الى المواقع.

تطلعت إليها. عيناها خضراون، وشعرها مربوط في تسريحة ذيل الحصان. طلتها أنثوية رغم الصرامة التي تضفيها عليها المهمات الصعبة المسندة لها، سألتها:

ليس مألوفا أن تناوب الفتاة وحدها خلال الليل

أنا بخافش الليل. مرات كنت أداوم بالليل وما أخاف. ينشغلوا الشباب على المحاور أظل عالجهاز أهلي رفضوا

بالأول لأنهم بيخافوا علي. لكني عاملة دورة ميليشـــيا ثلاثـــة أشهر من يوم ما فاتت الثورة عالمخيم، وصار تدريـب ومـا تدريب. وعملوا دورة للبنات. كان عمري أربعتاشر سنة. دورة قاسية كتير. كنت في التالت تكميلي.

ـ هل تواجهك مشاكل معينة؟

ـ الواحد بيعاني من الوضع بشكل عام. كل هالحصـار والخطف !! صح الواحد عنده مشاكل شخصية. بس هـادا لا ينحل إلا إذا تحسن الوضع العام. أنا أسرع واحدة فـي حـل الإشكالات. في المخيم بقولوا أني قوية أمي ربتني هيك وأنـا صغيرة. تخليني أعمل كل ما أحب. أشتري كل شيء أريده. أنا لم أكن قريبة من الناس. لكـن عملـي أشـعرني بضـرورة الإحتكاك بهم حتى أعرف كيف يفكرون. أنظم بنات ونسـوان وأطور مفاهيمهن، وأوضح لهن أشياء. هاي خزنة كانت عاملة في المصانع، وهلأ صارت مسعفة علـى المحـاور خليـها تحكيلك كيف أسعفت في مركز الهلال فـي معركـة حـرش تابت.

طأطأت خزنة رأسها إلى الأسفل بحماس، للإعراب عـن موافقتها على كلام هناء قالت:

كنت عاملة في مصنع غندور. أخذت دورات تدريـب على الإسعاف الأولي في المخيم بعد أحداث ٧٣ قبل معركـة حرش تابت طلب منا المقـاتلون الإسـتنفار والإسـتعداد لأي عمل. ويوم الإقتحام كان عملنا تأمين نقاط إسعاف للجرحـى.

وفي أوقات فراغنا كنا نعد المخازن لأسلحة المقاتلين في المواقع. يوم الإقتحام تسلقت الحائط مع الفدائيين. فقفزت باتجاه مستشفى الحايك، دخلتها، وبدأت أعطي إخواني المقاتلين الأغراض. وبعدها انتقلنا منصورين إلى الهلال. وأكملت:

أثناء معركة حرش ثابت تحاصر بعض الإخوان، ولم يستطيعوا الذهاب إلى المخيم، أخذنا لهم الأكل أنا وباقي الفتيات في الطريق لاقينا كثير من الصعوبات لأن القذائف كانت تتساقط مثل مطر الشتاء. لم نهتم لأن همنا الوحيد أن نوصل الأكل للإخوان.

لم تفرغ جعبة خزنة بعد. قالت:

بعد معارك حرش ثابت واستشهاد عدد من المقاتلين، شكلنا مجموعات لرفع معنويات الإخوة. أشارك في... فرز وتوزيع التموين، وأداوم في مركز الرعاية الطبية عند اللزوم.

نظرت إلى هذه الفتاة النحيلة العرجاء ذات الوجه المصفر، الذي تنفر منه للوهلة الأولى تشققات البشرة البارزة قرب الفم. هل يمكنها فعلا أن تقوم بكل هذه الأعمال كان جميع من في الغرفة ينظرون اليها بعطف أكد ظنوني بأنها لم تصبح على تلك الدرجة من الحيوية الا خلال الحرب.

ودعتني أم جلال قرب باب السيارة. سألتني:

- لماذا لم تصورينا؟ ولا مؤاخذة، ابني جلال في الغربية، ويمكن يطمئن علينا ثم اقتربت مني قبل أن تسمع

سبب عدم تمكني من جلب آلة التصوير، وقالت وهي تمط عنقها الثخين إلى الأمام تحسباً من أن يسمعها أحد رغم أنهم ظلوا جميعا في الداخل:

- اذا شفتيه يوم! قولي له أن أبو جلال حالته بالويل. عايز شوية مصاري عشان الدخان والمشروب وتعلق الكلام في سقف حلقها وعاودت القول:

أيوه! شو بدي أعمل هَو تعود عالمشروب أيام العز، وهلأ مش لاقي فرنكين يردوا العين. وأنا من أين أجيب له؟

وتركتني دون أن أفهم ماذا تود أن تقول عن جورج الذي تفوهت بالحرف الأول من إسمه أدارت رأسها ولحقت الصوت الذي نده عليها من الداخل. وتهيأ لي أن هذا الطبع هو شيمة أصيلة فيها، أن لا تردّ عنها نداء أي كان ممن تحبهم.

أثناء فترة الهدوء القلق التي شهدها المخيم دون أن يجرؤ سكانه على الخروج من البيوت والمخابئ مكتفين بالأمل الحبيس معهم في تحسن الوضع من جديد، في ذلك الوقت، عاود أبو محمد الدوخي اختراق الحصار الخارجي المحكم لتفقد أحوال أبنائه التسعة أو العشرة، أو الثلاثة عشر كما ذكر لي وهو يصلح نافذة مخلعة في بيتي. سألته عن أولاده، فأجابني العبارة المغناة التي قالتها أم حسن لقريبتها حول أم

الولد وأم الولدين. خفت آنذاك، وتعجبت. ما هذا الحس التراجيدي العالي الذي نعيش به نحن الفلسطينيين حياتنا سألته: أبو محمد ألأنت متأكد؟ فضحك، حتى بانت نواجذه المكسوة بالذهب مثل أطقم أسنان "النور"، وقال: طبعا يا بنتي. طبعا يجب أن أرجع إلىالتل بأي ثمن. سمعت أن محمد وعمره ست عشرة سنة قد التحق بقوات المايشيا، وأنه يبلي بلاء حسنا. لم أعرف ماذا أحكي معه، إكتفيت بأن ذهبت إلى الخزانة وأحضرت له كنزة صوفية، ومنشفة مع أشياء أخرى، لا أدريها، تهيأ لي أنها تساعد من حُبس في غير بيته أو مكانه.

في تلك الفترة، جرى حديث عائلي حول زواج آمنة من جلال، شريطة أن تتحسن الأحوال، حتما.

في تلك الآونة أيضا، بدأت لعبة القط والفأر بن عائشة وحماتها فأم حسن تعتقد بكل ثقة أن عائشة حامل. وعائشة لا تعتقد أنها كذلك، لكنها تنساق في اللعبة وتؤديها بمهارة لأن ذلك يعطيها امتيازات غير متوقعة من الدلال والاهتمام. كانت عائشة تفهم أم حسن في كل شأن عدا تشبثها الأعمى بقصة الطفل هذه، وتجيب بإيماءة غامضة حين توجه لها أسئلة ملغزة تتخذ شكل استعادات بريئة لأمثال مألوفة، على غرار ما بسند الحجار إلا صرارها، وما بسند الرجال إلا صغارها" كانت الحماة تجلس على الأرض متربّعة أو مقرفصة أثناء

الخبيز كمن يشيد عرشا. وكتلة الطحين بين يديها، تنقلها من يد الى يد. تفردها وتمدها، إلى أن تصبح رقاقاً مستديرا كبيراً

كانت تترنم بينها وبين نفسها برجع أيامها الفلاحية والميجانا، إلى أن صارت مؤخرا تنتقي الأغنيات المختصة بالحنين إلى الأطفال وكأنها تريد أن تشعل قلوب من حولها برغبتها هذه. حتى أن عائشة صارت تعتقد بأن جنونا ما صار يسكن حماتها. كانت تغني

دارهم يا ناس ما فيها حدا سافروا منها كما طير الندا

دارهم يا ناس ما فيها صغار سافروا منها كما طير الحمام

وأحيانا كانت أم حسن ترفع رأسها عما يشغلها، وتلقي بنظرة صقرية على عائشة وفمها مزموم، مع تجعيدتين طويلتين بين حاجبيها، فينفضح فورا ما تفكر فيه وتكتفي عائشة بالتجاهل وغض النظر. وتفكر من جديد بأن اضطرابات جسدها الأخيرة إنما تعبر عن تغير أحوالها كلها بعد زواجها أكثر مما تعد بالحمل المنشود. كانت تعاني بين الحين والآخر "من لعيان في منافسها"، لكنها كانت ترجح أن هذا الغثيان ليس له علاقة بالحمل فقد كان يراودها مذ كانت في بيت أبيها.

(١٠)

قبل عشرة أيام مما يعتبره الناس موعدا لدخول الربيع، ابتدأ الحصار الكبير، الثاني والأخير أغلقت الطرق والمداخل نهائيا، وانعدمت فرص العبور بتاتا حتى تلك التي كانت تتم بكثير من المجازفة قام الجنرال الأحدب في الجيش اللبناني بتنفيذ انقلاب صوري، دفع الأمور إلى حافات تأزمها، مما أغرق السيد في موجة جديدة من الاكتئاب حين تأكد له أن مخيم تل الزعتر –الرهينة لن يفلت من القبضة أبدا هذه المرة. اعتمد السيد على نشرات الاذاعات التي تعيد نشر وبث عناوين الصحف ولم يكن صعبا وصوله الى الاستنتاجات نفسها، بأن هناك ما يُحاك خلف الستار. بات يعيد قول ريمون اده في الأيام الأولى من آذار عن أن الكتائب في جبيل يتسلحون. مشيرا إلى ان المؤامرة الكبرى لاقتلاع المخيم سوف تتحقق إثر ما سمعه في منتصف الشهر ذاته عن اجتماع وفد كتائبي في دمشق بخدام والأسد. طوّف الحي مؤكدا أن

ظنونه قد تحققت، وان النُقل اكتمل بالزعرور أخيرا، مشيرا إلى خبر إذاعي عن اجتماع في القصر بين فرنجيه، شمعون، الجميل وقسيس يُعلن عن أن سورية اعتبرت ورقة العمل الكتائبية مرتكزاً لحل الأزمة. وقبل نهاية شهر آذار حين تأكد من دعم الأردن الوساطة السورية. ومن اعلان واشنطن عن أسطولها الجاهز لنقل الرعايا الأمريكيين. صار يحوم في الحي زاعقا أنه الأول الذي اكتشف المؤامرة. ظل يضمّن حديثه اليومي عبارات لوم وعتب على البلاد العربية لم يستغربها منه أحد، كما يحدث حين يذكر السياسيين الأجانب باسمائهم الشخصية كأنهم بعض معارفه لم يكلّ لسانه عن ذكر الأمريكي دين براون الذي وصل بيروت كي يقدم تقريرا لرئيسه فورد يدعم فيه المبادرة السورية. هل نيسان، والسيد يذرع الحي بيتا بيتا مؤكدا صدق تخميناته ها هو الملك حسين يؤيد التدخل السوري في لبنان، وحزب الكتائب يحتل مرفأ جونية ويشكل شرطة محلية، ومحاكم، ونظام خدمات شامل. وكيسينجر لا يكف عن اعلان معارضة أمريكا لأي تدخل أجنبي في لبنان، مكيلا الثناء على سورية ودورها في كبح جماح المتطرفين.

المؤامرة! مؤامرة. يقول السيد وهو يبرم يده على شاربه الذي برز مثل شوك الصبار يلفظها، ويقلّص عضلات وجهه وكأنه يبتلع السم الزعاف.

لم تكن عائشة تفقه شيئا مما يدور ويذاع حول دور كيسنجر وغير كيسنجر كان يكفيها الشقاء المتواصل الذي

تفرضه المجاعة على الجميع. التهت عنها أم حسن بعشرات أرغفة الخبز التي تصنعها في بيتها لمقاتلي المحاور. يجلبون لها الوقود، وتقضي جل وقتها في الخبز على الصاج في مدخل البناية. تقرفص فيبين رداءها الداخلي، ويظهر الجورب الرجالي الذي تلبسه تحت حذائها البلاستيكي. لم يعد العجوز ينزل الى الدكان، بعد أن فرغ كل ما فيها، وبعث بمواد الإسعاف البسيطة مثل الأوكسجين والشاش والميركركروم مع حبوب الأسبرين الى مركز الرعاية الصحية أما آمنة فكانت تتسكع بالبيجامة الفانيلا طيلة الوقت مع التنورة الملونة التي لا تخلعها أبدا. وتذهب إلى بيت زينب أرملة أخيها باستمرار لكي تساعدها في رعاية أولاد فايز الذين يمضون معظم وقتهم في الملجأ القريب. قبل الحرب كانت أم حسن تستاء من العلاقة الوثيقة بينهما خوفا من أن تقوى شكيمة الأرملة فتتشجع على الزواج، وتأخذ الأولاد معها أما الآن فقد صارت ترحب بمراقبة آمنة شبه الدائمة لها.

في نيسان، أينعت الطبيعة، وعرفت من أخويها أن الورد فائر في الكنيسة القريبة من الدكوانة. كان الولدان يعرفان المنطقة بشكل دقيق لأنهما كانا يجوبانها طولا وعرضاً بحثا عن أعقاب السجائر كي يدخنها السيد. وعندما تتوقف الرمايات المعادية بين الحين والاخر، ينطلق الولدان آنذاك للتفتيش عن أوراق جرائد قديمة يلف السيد في داخلها القنبز المطحون أو الملوخية المجففة المسحوقة

النسيم العليل. ربيع بيروت رغم القصف المتكرر، والهواء الشهوي الذي يعجز الإنسان عن مقاومته، فتح في روح عائشة أحاسيس الحب للخارج من جديد ليس خارج المنطقة، وإنما خارج البيت نظرت إلى خزنة بتدقيق وحسد ودي. فحتى خزنة المطفوسة كما يسمونها تغيرت، وصار لها حقوق لم تكن تملكها من قبل. تمنت عائشة لو استطاعت أن تكون مثلها، وأن تستطيع التحرك خارج البيت ولو في عز القصف وحينما كانت أم حسن منغمسة في إشعال قطع الحطب تحت الصاج، بادرت عائشة إلى الخروج من البيت مع حسام وابتسام بحجة زيارة بيب أهلها. وهكذا بدأت رحلتها في ذلك الصباح المشمس مع أخويها لرؤية ما يكمن خلف الطريق الواصل ما بين البيتن. رصاصة من هنا ورصاصة من هناك. في البدء أخذها حسام إلى معمل البومبون. تسللوا من خلف السواتر الترابية الممتدة على طول الشارع الفاصل بين الفريقين. كان المعمل واقعا في المنطقة الحرام. لذا فضّل الولد الذهاب إليه في حدود العاشرة صباحا، أثناء غفوة المحاربين الصباحية، حينما تسنح هنيهات قليلة يستمتع فيها أناس المخيم بالدفء والضوء خارج الملاجى. ومع حركة الناس الخفية بين المطارح انسلت أقدام الولدين مع عائشة التي تتبعها في شبه هرولة. ركضوا أحيانا، وزحفوا أحياناً أخرى إلى أن اجتازوا السور الزينكو الذي يحيط المصنع المهجور. ومن باب جانبي لا يمكن لأحد اكتشافه سوى أولاد الداهية هؤلاء، حسبما يدعوهم الأب، دخلوا إلى

فضاء دخاني لعنبر طويل وممتد. تقزمت الماكينات المنسية وسط الغبار، وصارت مثل أناس تجمدوا أثناء نومهم. الهواء واقف في منتصف المكان وكأنه تصلب منذ ألف عام ولم يعد هناك أحد كي يخضه، أو يحرك سكونه. اشمأزت عائشة من الفراغ الذي يدّوم في المساحة المهجورة. لكن أخويها لم يباليا بتعبير الامتعاض الذي بدا على وجهها. ناديا عليها، سحباها إلى غرفة جانبية عريضة، وتقدماها إلى حيث يكمن عالم خرافي من الملبس والطوفي والشكولاتة المغلفة بورق ذهبي ملون. عندما مدت عائشة راحتيها لتغرف من نبع الحلويات الخيالي ذاك، هلّل شيء في داخلها للتوحد بعيدا عن البشر ومع أخويها، جلست تأكل وتتلمظ دون أن يتوفر لها الوقت الكافي لالتهام كل ما تشتهي، لأنها لن تجرؤ على حمل حبة واحدة ولو في فمها، كي لا يعرف أحد بخروجها، وخوفا من افتضاح سر المغامرة التي ينفذها الولدان بانتظام. وعائشة مذعنة لهما تماماً كما لم تفعل طيلة حياتها، إذ ظهرا أمامها كخبيرين في معرفة المكان ومنافذ التسلل والخروج. وذاب مع حبات الشكولاتة التي وحدتها معهما مظاهر التعالي الذي كانت تبديه إزاءهما.

المحطة التالية التي توقفوا فيها كانت مصنع العدس ومخازن حبوب غزة لم يكن المصنع في المنطقة الحرام مثل معمل البومبون. وقع اكتشافه من أهل المخيم عندما أشرفت مؤونهم على النفاذ بعد استهلاك مخزون برادات اللحم والتفاح، وبعد أن أخذت قوافل من النساء المستورات اللواتي

اقتصدن وطبخن من براد الخواريف لحم قاورمة وحفظنه في المرطبات لأوقات السوء، تفتش عن مصادر أخرى للغذاء. لم يكن الدخول إليه صعبا مثل المصنع الأول. بحيث أن الأمهات حينما كن يستنفذن وسائلهن في ترتيب أوضاعهن كن يبعثن بأولادهن لجلب ما تيسر دون خشية، وهنا كانت مفاجأة من نوع آخر

لم تصدق عائشة ما رأته أمامها، فعلى الأرض جبال صغيرة من الحبوب البنية التي تشبه رمال الشاطى في انسجامها تداخلت الحبوب بين بعضها ولم تظهر سلسلة ألوانها إلا حينما اقتربت عائشة منها وفرشتها على كفها إنسابت الحبات الرقيقة شيئا فشيئاً من بين أصابعها، وهبطت فوق الجبل الصغير مرة أخرى. انتبهت عائشة الى تواجد أولاد آخرين في عمر إخوتها، يعلو صياحهم وتزاحمهم وهم يمارسون لعبة غريبة فبدلا من أن ينشغل الأولاد بتعبئة الآنية والعلب الفارغة التي يحملونها، توزعوا فوق أكوام الجبال الصغيرة في العنبر الضخم، يتزلقون عليها، ويقفزون. يغسلون وجوههم بها وكأنها مسحوق سحري. يغطسون داخلها كما لو في بركة سباحة ويعتلونها كما لو على زلاقة في مدينة الملاهي. شدهت عائشة أمام المشهد، وأرادت أن تصرخ عليهم كي يكفوا ويبادروا إلى الانصراف مع زوادتهم. لكن الصوت تجمد في حلقها ضمر، وتقلص،ولم ينطلق. لبثت محتارة برهة من الزمن ثم ما لبثت أن أصغت إلى النداء الفوري الذي انبثق في دماغها فتسلقت الأكوام، وفعلت مثلما يفعلون، وانغمرت في صيحات لهوهم وعبثهم.

ليس هناك من يأتي ليسمع عذوبة الصرخات والألعاب التي تجري هنا، لو حدث أن أتى واحد من الكبار لما صدق نفسه. صليات رشاش الخمسمائة التي انطلقت نبهت الأولاد الى ضرورة المغادرة، فانسحب بعضهم وتجاهل الآخرون خوفهم محاولين كسب ثوان اضافية داخل ساحة اللعب. عندما غادروا المكان والأسى يتأكلهم بسبب خروجهم القسري، اقترح عليهم حسام تفتيش أكوام النفايات المحيطة بالسور عن أعقاب السجائر كي لا ينالهم في ذلك النهار "علقة من السيد. انحنت عائشة على أكوام القمامة المرمية خلف المعمل، ولشدة دهشتها عثرت على مرآة صغيرة. مسحتها بأصابعها، وحدقت فيها كي ترى وجهها بان في المرآة وجه ملوح بالدفء واليقظة لصبية سعيدة. فانكرت عائشة ما تراه ولم تصدق نفسها أدارت المرآة من جديد كي تحدق مرة أخرى، فالتمع بريق خاطف في الهواء. قفز حسام الأزعر يريد انتزاع المرآة منها ثم همس في أذنها بنبرة مختنقة:

ضبيّها أحسنلك والاَ بتفضحينا وبيقوصوا علينا.

حملت عائشة المرآة ودستها في صدرها.

توقف القصف هنيهة أصغى حسام وكأنه جندي عتيق أكسبته الحرب بصيرة وحسن توقع لحظة الاشتباك القادم. مد أذنه الطويلة التي تشبه الحمار الصغير، وقال:

مش راح يبلشو لسه ملحقوش يرتاحوا. هادا واحد زهقان وبيرمي من غير فايدة. ما حدا راح يشترك معه قبل ساعة. تعوا نروح على الكنيسة.

ولدهشتها الشديدة والمتكررة هذا اليوم وافقته عائشة توا دون تردد أو جدال. كأن حسام تغير في ناظريها وتحول إلى إنسان عاقل ممتلئ بالحكمة والمهارة. نسيت عائشةِ تحذيرات أم جلال للولدين بأن لا يذهبا الى معمل العدس قبل إخبارها وتغافل حسام عن تذكر تحذيرات العلقة المُرّة التي نالته عبر حزام السيد لأنه تجرأ وذكر عرضا قبل عدة أيام ما يشير إلى أنه قد زار المكان.

ذهبت عائشة مع أخويها إلى كنيسة يوحنا ! ماريوسف! لا كنيسة مار جرجس. في منطقة الخروبي. غير بعيد عن بناية دلال الشمالي. آخر طلعة الشارع باتجاه معمل الزعتر خلف الكنيسة كانت هنالك مدرسة احتلتها القوات العدوة واستخدمتها كمقر دائم. وفي الطابق الأول من المدرسة الذي تخفيه أكوام الرمل والبراميل الاسمنتية، كان المتراس المعادي. ولكنهم نائمون. طمأن حسام أختيه. لم تصدق عائشة نفسها وترددت في السير. الورد الجوري يتدلى أطباقا على السياج. الورد! أحمر، وأبيض، وزهري. وكل واحدة بحجم طبق البورسلان. الورد يفج من عين أمه. يتعمشق على السياج. يلون وجه العالم بيناعة طال انتظارها. يشرئب حاملا في بتلاته كل الأسرار الورد! انها لم تصدق نفسها. كل هذا القصف، والدخان الأسود، والديناميت المنفجر هنا وهناك. كل هذه الدماء تتطاير وتلطخ الحيطان، وهذا وحده! يرقد، وديعا، هادئاً، بريئاً، لم يعرف الحرب بعد. الورد نازل من عين أمه. يبث عطره السري متخللا غبار الموت، ولا يلطخه اللون

الداكن الذي طغى على جميع الأشياء في التل. الورد. وامتدت يدها إليه كي تقطعه لولا أن وقع نظرها على بناء الكنيسة شبابيكها مفتوحة، ولألاء الذهب يتوهج في رسوماتها. انحدر إلى لسانها الطعم المتخيل للقربانة المغمسة بالنبيذ. يصلون عليها، ويغمسونها بزيت "العذراء ، وهي تمصصها لا كم تحسست طعمها على لسانها، ولم يتح لها أن تتذوقها ولو مرة واحدة. إذا مصصتها تصيرين مسيحية، ونحن لا نتحمل مسؤولية تعميدك. قالت الأخت ماري. وتذكرت كيف حضرت زفافا أقيم مرة في الكنيسة، فلما سألتها امرأة هناك: من أين أنت؟ أجابتها فلسطينية بان الاشمئزاز على وجهها فورا، حتى أن عائشة ظنت أنه من الأفضل لو أنها لم تحضر إلى العرس بمعية الراهبات. لكن. عيد الشعنينة ! ويحملون الشموع وسعف النخيل. ولكزها حسام بكوعه:

تطلعي! هون في سجاير لِمّي معنا.

قالت ابتسام: لأ أحسن نحوش حميضة.

وبين هذا وذاك امتدت يدها إلى الورد تقطفه، وتتلمس قوامه المخملي بأصابعها انطلق صوت أجش على حين غرة، من مكان لم تتبينه:

يا بنت الشر...ولهِ مسترجية تلمّي ورد.

تسمرت عائشة في مكانها، وهي ترى رجلا ملتحيا يطل عليها من وراء السياج، وبجانبه تعلو فوهة بندقيته:

قالت بجزع:

- ليش هيك عم بتحكي؟

فأدار وجهه عنها هازئا وقال مبتعداً:

هالمَرة ماشي الحال. المَرة الجاي راح أخنقك.

وأطلق رصاص بندقيته في الهواء.

تاقت عائشة لو كان بإمكانها أن تخبر أحدا عن سرها لم تجد من تحادثه سوى نفسها:

- ظل يقنص علينا علينا يضرب الرصاص، لكن بالهوا.

في المرة التالية كان مع عائشة وأخويها جالون ماء فارغ. طلع الرجل نفسه أثناء نوم رفاقه الصباحي. لم يعد هناك أعقاب سجائر في حديقة الكنيسة المعشبة سالته ابتسام:

- خلّينا نعبّي مي.

كانوا قد حملوا الجالون معهم ليحضروا ماء من أسفل الدكوانة، حيث كسر البعض أنابيب الماء المارة تحت اسفلت الشارع المنحدر إلى البنايات لم تذكر عائشة أمام أمها أنها سوف ترافقهم. ولم يذكر الأولاد أي شيء يحدد المكان الذي سيطيش صواب أهلهم لو عرفوا بنيّتهم في الذهاب إليه. كل الأمور سارت عال العال. لولا هذا الرجل الذي يقف عند

الصباح الباكر داخل حديقة المدرسة ويلعب بنبريج الماء، موجهاً رذاذه إلى الهواء.

قالت إبتسام: من شان الله. بدنا نقطتين مي، لأنها مقطوعة عنا من زمان.

أجاب الرجل: ليش أختك اللي أكبر منك ما بتحكي. اذا هي طلبت أعطيكم مي.

لم تتبس عائشة بكلمة واحدة. تندى ظهرها بعرق رطب، وأرادت أن تطلق ساقيها وتهرب. لكنها تسمرت في مكانها.صرخ الرجل الذي كان يرتدي طاقية قش افرنجية:

للكْ. شوفوا لو بتطلبوا ليل ونهار ما منعطيكن قطرة مي.

ورمى برشاش الماء عليهم فأغرق أبدانهم مطر كبير القطرات. خافوا، وركضوا عائدين.

الورد! الورد! لكن الورد صار عصي المنال.

ازدادت وتيرة الرمايات إثر نسف المجارير التي تربط المخيم بالنبعة وبرج حمود، عبر سلاف. الصالومي. حاول أهل المخيم العثور على منفذ أو آخر لفك طوق الحصار بعد أن كانت تلك المجارير آخر شريان يصلهم بالمناطق الصديقة الأخرى.

قررت القوات المشتركة للفصائل أن تحاول خرق الحصار بأسلوب آخر سمعوا من حسن عن محاولات إرسال رجال يقدرون على الزحف مسافات طويلة داخل المجارير نجحت إحدى المحاولات، ووصل رجلان إلى النبعة، لكن العودة تعسرت إذ أن المجرور طفح لسبب مجهول، فصار الخوض فيه مستحيلا.

رجعت عائشة إلى الإحتباس داخل هواء البيوت من جديد. يتزايد القصف يوما بعد يوم، وهي تنام وتنام وكأن صدى المدافع يشبه حقنة منومة أدمنت عليها تنزل تحت اللحاف الخفيف وتحلم. الأغاني تتصاعد على المذبح الرخامي الصقيل. إنها طفلة ما تزال، وهي تعدو على الأدراج الباردة بقدمين حافيتين. الورد جوري. لونه أحمر زهر أبيض. الواحدة بحجم الكف الكنيسة لها لون ذهبي في ذهبي الترتيلات في الداخل الورد على السياج. الورد!

يلبسون البنت ثوبا أبيض الولد ثوبا بني اللون طويلا مع زنار أسود. مثل القديسين. البنت! لباس مريم العدرا ويزفونهم بالصلاة. وعائشة ! ممنوع. تقول الراهبة:

بدّك تتفرجي، اتفرجي من برّة.

ويُعلِمْنها الأدب. يعلمنها الأخلاق، دائما.

كل يوم يصلها فنجان قهوتها إلى زاوية الغرفة حيث استبدلت موقع الفراش، واستعاضت عن السرير بالأرض توقيا

للقذائف. يطل حسن بإيماءة خاطفة، يحادثها يذهب يروح. يجيء. يأتي. وهي صامتة أو متثائبة أعماها غضب الاحتبلس فلم تعد ترى شيئاً أو تنتبه إلى كائن. خروجها النادر في عز المعارك، أو وقت توقفها، أشعرها أن هناك عالما في الخارج مع أنه ركام. الكل يختبئ باختياره، إلا هي. العروس الصبية ذات الخمس عشرة سنة صاحبة أحذية الكعوب العالية المركونة في زاوية الخزانة ليس لديها شيء. حتى ولا نعمة التسلل تحت القصف متى أرادت. الدنيا تهتز وهي مختبئة تحت الملاءات تغمض جفنيها فترى الظلام. تحدق في الظلام مليا فلا ترى أي شيء. عتمة، وعتمة، وأصوات التراشق المدفعي.

لاذت أم حسن بالصمت فقد كانت متأكدة أن عائشة تعيش أطوار المرأة الحامل لم تجرؤ أن تفتح أي موضوع مع الكنة التي لا تستيقظ إلا لتنام، ولا تصحو إلا لتنام من جديد لكن تلك الرجّة الهائلة التي تشبه زلزالا، أرغمت عائشة على أن تهب فزعة رأت عائشة الخزانة وهي تميل وكأنها سوف تهبط فوقها قفزت مذعورة، وصرخت سائلة عما يجري. لم تعرف إلا بعد حين أن الأعداء ينسفون المجارير تحسبا من استخدامها لفك الحصار أما أم جلال التي عرفت فورا بحكم تواجدها مع المقاتلين في مركز الرعاية الصحية، فقد ارتاعت وخرجت راكضة بحثا عن الإتجاه الذي يمم صوبه الولدان الباحثان عن أعقاب السجائر للسيد الذي جن جنونه حتى أخلى البيت من كل قطرة سبيرتو وكولونيا انطلقت إلى الشارع

للبحث عنهما وهي تتمتم ما تعتقده تعويذات لحفظهما: دستور حاضور بسم الله خالق الجن والانس. اهتزت الأرض من جديد، وعاودها زلزالها هرعت أم جلال إلى الولدين اللذين لم يبتعدا كثيراً. كانت الشظايا تتراشق حولهما مع عجيج الغبار، سحبتهما، واندست معهما داخل براميل فارغة على جانبي الطريق إلى أن هدأ الدخان والديناميب.

في بداية الأمر فرحت نساء المخيم بنسف فوهة المجرور انساب الماء سلسا، صافيا لونه مثل البفب" لم يكن مجرد ماء، كان طيورا بيضاء تحط على الأنقاض، والحجارة المكسورة، والتراب هرولت عائشة مع النساء الآتيات لرؤية المعجزة التي جلبها الانفجار هللن وجرين إلى البيوت ليجلبن أوعية، وجالونات بلاستيكية كبيرة. رمين بالزغاريد والمهاهاة في الفضاء المنهك ببقايا الانفجار وعندما تحلقن حول الماء من جديد، تشنجت أساريرهن المبتهجة وانقبضت من جديد. أفصح الماء عن منشئه العكر، وصار مختلطا بالقشور والفضلات وقطع الخراء وضعت النساء غدفاتهن البيضاء على وجوههن، وكممن فتحات أنوفهن قرفا واشمئزازا، وانصرفن وهن يتمتمن باللعنات على الكتائب سبب البلوى.

في تلك الاونة، أنشأت أم جلال صناعة الشموع في البيت كي تساعدها على كسب أودها، فخلال اشتداد الحصار وتعطل خطوط الكهرباء اكتشف المخيم مصنعا يحوي كميات من الشمع الخام. لم يكن معملاً مختصاً بتصنيع الشمع، لكن

الكميات الخام الموجودة داخله كانت لدعم صناعة أخرى ما تشنفت حاسة الناس للتفتيش عن كل ما يساعد الحياة، وإلى هذا المصنع وصلوا أيضاً المعدمون الذين لم يحصلوا على وقود الغاز أو الكاز صار باستطاعتهم إنارة الليل بهذه الشموع، يفردونها على صحن توتياء، يضعون فيها فتيلا من القماش، ويحصلون على الضوء الذي أراد محاصروهم إطفاءه. مشكلة أم جلال الحقيقية تمثلت في استغناء مركز الخدمات الطبية عن عاملي النظافة المياومة، والاكتفاء بالمتطوعين. لم تذهب أم جلال إلى بيتها، ولم تغادر المركز ظلت متطوعة تطبخ، وتعجن وتقوم بكل الخدمات مقابل الحصول على بعض التموين من الطحين والفاصوليا الجافة، وعلب المأكولات المحفوظة لكن مشكلة الحصول على الغذاء تضخمت بعد استئناف الطوق، ولم يعد هناك ما يشير إلى أن الأمور آخذة في التحسن. برقت بادرة أمل في حل مشاكل الطعام حينما شكلت الفصائل لجنة مشتركة للتموين. تم الاتفاق على أن يفرز كل تنظيم قسما من مؤونته للجنة كي توزعها على الناس. لكن التجربة لم تستمر أكثر من شهر لأسباب عديدة. نفد التموين الاحتياطي عند بعض التنظيمات، ولم يفرج عنه لدى أكبرها بدعوى أنه فاسد وعطن. إلا أن أم جلال وبحذاقتها المعهودة اكتشفت الأمر عندما لاحظت آثار تفريغ الطحين أمام بيت المسؤول، مرسومة على شكل خط طويل على الأرض من الشاحنة التي كانت تحمل السلاح. هكذا

واظبت على إعطاء حسام وابتسام كيلا صغيرا يلمون به الطحين المتخلف على الأرض أثناء النقل.

لم تقبل أن تفشي سرها لأحد ممن تعرفهم، كي تحافظ في اسوأ الأحوال على تموين الصدفة والاهمال. وحين حاولت الذهاب إلى اللجنة الشعبية للحصول على بعض التمر المخزون، فوجئت بمن يخبرها أن منظمة "البرق سطت على التمر، وقامت بنقله إلى عاصمة عربية، كما حلف البعض، لتسويق تلك الإعانات الخليجية التي دخلت المخيم قبل الحصار فتحت أم جلال صدرها، ودعت عليهم بأن يعميهم الطاعون ويشلهم الفالج، رغم معرفتها أن العناية الالهية لن تسمعها لأن بلال حسون ظل متمترساً على محور المصانع، لما في ذلك من خيرات يجنيها من المعامل التي أغدق أصحابها عليه قبل الحرب، وصارت الآن مشرعة الأبواب أمامه.

بلال حسون قبضاي لا يعرف أهل المخيم من أين أتى. بدأ كعنصر عادي في تنظيم البرق. راجت شائعات كثيرة حول عمله كمرافق لأحد المسؤولين الذين اشتهروا بالغنى من عنصر عادي، إلى مسؤول محلي، إلى سلطة جمع الخوة من المعامل والمحلات المسيحية الداخلة ضمن حدود المخيم. كان ذلك هو الرجل الذي فتحت أم جلال صدرها، وكشفت عن ثديها من فوق سطح بيتها كي يسمع الله صوت امرأة كسيرة ويعاقبه. في تلك الليلة التي صعدت فيها إلى السطح، عزمت على أن تحل مشاكلها بنفسها إلى أن يفرجها سبحانه وتعالى.

وبوحي من عذابات تلك الليلة التي أمضتها مقرفصة تحت الدالية التي أطلقت براعم عنقودية صغيرة، خطرت لأم جلال مسألة صناعة الشمع وتسويقه في عيادة الرعاية الطبية للعاملين ومن يتردد على العيادة. بعدها اشتهرت أم جلال بصناعة الشمع بشكل متقن لا يُعلى عليه فهي تجمع علب اللحم والسردين الفارغة، وتسيخ الشمع وتسكبه فيها وتضع خيطاً بداخلها، وبعد جفافه تقص العلبة وتخرج الشمع منها ومع تقدم الحصار تقدمت صناعة أم جلال، فصارت تحضر صور الأشعة وتلفها ثم تربطها بشكل محكم، وتصب الشمع المذاب فيها. وبعد فكها تحصل على شموع رشيقة وجميلة، حتى أن جورج تعجب من دقة إبداع هذه المرأة السمينة غليظة الصوت، التي لا يخطر للمرء أن ثمة شيئا رقيقا فيها عدا حلقها الذهبي الصغير الذي يبرق على وهج الشموع وهو يتأرجح قرب رقبتها السميكة لكن تحسن وضع أم جلال لم يمنعها من أن تواصل الشكوى والتذمر فور التقائها بجورج. تظل تتشكى وتقول إن زوجة المسؤول، الذي كانت تبعث بأولادها لملء الطحين من أمام بيته سراً، لديها الكثير من الكبريت والسكر والشمع الجيد. ولم يكن جورج ليفهمها ما الذي تريده أم جلال؟ ولماذا تفش خلقها بامرأة غريبة لا تعرفها! كان حس التعاطف بين سكان المخيم سائدا، فبان صوت أم جلال نشازاً. لم يكن يعرف ما الذي يغيظها فيما يتعلق بالشمع على وجه الخصوص. ولم تكن أم جلال تستطيع أن تشرح له ما الفرق بين شمعها الذي يذيب جلد يديها لشدة

سخونته، وبين الشمع المحترم ابن الأصل الموجود دوما مع بقية المواد التموينية عند تلك المرأة.

قال السيد في الليلة الخامسة والألف من ذاكرته المعبأة بالقصف أنه سيكف عن الشرب حالما تنتهي المعركة، ويُفتح طريق التل ليذهب إلى المنطقة الغربية ويرى جلال.

قال جورج في عز المعركة لأولاد السيد الصغار أنهم يشبهون إخوته الصغار

قالت ابتسام لأمها ليش عايشة بتتكبر علينا؟ فأجابتها أم جلال:

إخرسي ولهْ ! خلّي أختك في حالها.

فيما بعد أخبرتني ابتسام قالت:

- شو حلوة أختي ! أختي فعلا مثل القمر ومحدش عارف فينا إلا لمن نزلنا عالحاجز والحاجز كان بعد الكنيسة، قرب بناية عالية، وخلف المدرسة التي يتحصن المسلحون الانعزاليون فيها

أما عائشة. فتطمر رأسها تحت المخدة وتنام. ترى جرفا هائلاً تحتها من الصخر المكسور، من قطع الكبريت الأصفر تتساقط عليها، وهي تدخل إلى فناء الكنيسة، وتمر عابرة المدخل إلى المذبح. تدخل، تصلب بيديها وتنحني أمام السيدة الجميلة التي تحتضن ابنها القادم من الناصرة. المولود تحت نجمة بيت لحم.

إنه فلسطيني. اكتشفت عائشة وخافت من أحلامها التـــي تظهر جورج وهو يخطو في فناء الكنيسة باتجاهها يفتح يديه، ويتقدم صوبها وعلى وجهه انطباع لم تشاهده في حياتها

خافت عائشة، وطمرت وجهها تحــــت اللحــاف أكــثر فأكـــثر.

(١١)

تلة المير! المير يعني الرجل صاحب المنزلة العالية أيام العثمانيين. والتلة، لم يكن لها أية أهمية لولا أسلحة المضادات للطيران، التي نصبت عليها. تقع التلة في نهاية المخيم قرب المناطق الصناعية. عندما كانت المضادات تعمل على تلة المير كانت زينب زوجة الشهيد فايز تخرج مع أولادها من الملجأ الذي يحتمون فيه معظم الوقت. لم تكن زينب وحدها وإنما معظم الأهالي الذين يشعرون آنئذ أن ظهرهم محمي ببطولة الشباب "الزكورتات" على تلة المير أبو ابراهيم هو قائد تلة المير وعندما جرح، طفق الناس يتمترسون داخل الملاجىء بفقدان أمل لا نظير له الطلاب والعمال كانوا يطلّون كل يوم على أبي ابراهيم ورفاقه، كما لو أن الحج الرئيسي داخل المخيم لم يكن إلا ذلك التل الذي جهل الأهلون اسمه زمناً طويلا ؛ لولا الحصار. وأبو ابراهيم يتمخطر بين الخنادق بذقنه الخفيف والبيريه الكاكي والبوت

العسكري المعقود جيدا. كان اليوم التاسع من الجولة الأخيرة هو يوم استشهاده. نزلت قذيفة على المضاد وحطمته بالكامل، وشالت أبو ابراهيم تماما من الحياة كلها مع مجموعته

تلمظ حسن بلسانه إثر أكلة المجدرة التي يحبها رمى الصحن من يده، محاولا نسيان حس المصيبة الذي انهمر عليه عندما تأكد الخبر صار الأعداء في تلة المير وصار بإمكانهم التحكم التام في كل حركة حياة داخل المخيم الذي تشرف التلة عليه لم يتكلم كثيرا مع أهل البيت، وإنما ذهب توا للبحث عن جورج وعن مسؤولي التنظيمات كافة كي يتم عقد الاجتماع الذي سيحسم أمر توزيع مسؤولية المحاور من جديد. كأن المخيم صار بؤرة رعب بعد سقوط التل الذي أعقب استشهاد أبو ابراهيم خرج حسن دون أن يحكي مع أي من أهل البيت، وطعم الأسى يحتل صدره وهو يتذكر التلة التي أوشكت على السقوط قبل شهر، والناس الذين ركضوا إلى مكاتب التنظيمات بالسخط والاحتجاج. صار وجهاء المخيم يتوافدون إلى مكاتب الفصائل معربين عن الغضب والخيبة تجاه من ائتمنوهم على أرواحهم. النساء الكبيرات خرجن من الطوابق السفلى في البنايات والملاجيء، وذهبن وفي عباراتهن ملامح الشتيمة غير المصرح بها اذا.. اذا هان على المقاتلين أهل المخيم وسمحوا بسقوط التلة. لم يكن لهذه التلة المنسية مثل هذه الشهرة من قبل.

والآن، بعد أبو ابراهيم وإصابة مجموعته والمضادات الثلاثة، فإن النلة ويشرئب البكاء أو ما يشبهه في حلق حسن. ويقول لأمه وعائشة قبل أن يخرج

أبو ابراهيم جُرح.

والرجل لم يجرح إنما استشهد. لكن لا أحد يمتلك القدرة على أن يهوي بالضربة الصاعقة دفعة واحدة على قلوب أهل المخيم. من يجرؤ على أن يطعن الأهلين بذكر ما لا يطيقون عن بطلهم؟

لم يتمكن السيد من بث معلوماته التي ينسبها دائما إلى مصادر معلومات خاصة في الحي. صارت القذائف تتساقط بمعدل خرافي على المخيم. ففي ٢٢ حزيران اليوم الأول من إطباق الحصار التام سقط ما يقارب ثمانية آلاف قذيفة في يوم واحد. وشبت حرائق كثيرة في البيوت، وفي معمل "كنيدر للأخشاب، ومعمل البلاستيك استمر القصف منذ الخامسة صباحا وحتى العاشرة ليلا دون انقطاع. وبذلك انتهت فترات الهدنة الصباحية التي كان يستفيد منها الناس في التنقل أثناء نوم المهاجمين، والحرب حرب على أية حال.

اختتمت خزنة ليلتها الأخيرة في الدار بحرق خصلة من شعرها المجعد. نامت مجهدة وظلت تتقلب قرب صحن الشمع إلى أن لقط شعرها شرارة نار لم تلبث أن سرب في إحدى خصلاته. هبت من نومها على صوت آمنة وهي تهزها لتصحو. رمت آمنة فوقها غطاء ثقيلا حتى كادت أن تخنقها

وجعلت تفرك رأس أختها بوبره الخشن، فانطفأت الشعلة وبان مكانها اسوداد وكومة شعر محترقة. لماذا يخلف الشعر الطبيعي بقايا غروية أثناء احتراقه؟ تساءلت عائشة مع نفسها وهي تراقب تشوّه شعر خزنة بتأثير شديد. وعلى كل حال، فإن خزنة لم تقض ليلة واحدة في بيتهم بعدها ظلت مستنفرة في مركز الرعاية الصحية باستمرار

الماء! وجعلنا من الماء كل شيء حي. كان أبو حسن يستمع إلى المقرىء عبد الباسط عبد الصمد بطرب صوفي. تهتز مع حركة رأسه ذقنه البيضاء التي لم يعمل أحد من أهل البيت على حلقها، فظلت تنمو كالعشب الكث مواصلة الزحف إلى وجناته البارزة تحت عويناته. كان القصف مشتعلا والعجوز يترنم ويهلل مع صوت المقرىء عبر راديو الترانزستور وللمرة الأولى في حياتها أحست أم حسن بثقل شيخوخة هذا الرجل الطيب الذي يقضي وقته على الجنابية دون تذمر أو كلام. المسكين! فكرت في نفسها إنها تعمل من أجل الشباب، تخبز لهم عشرات الأرغفة كل يوم، فتنسى نصف همومها، وتتجاهل سماع نصف القذائف الهابطة على المخيم أثناء شغلها أما هو ؟ فماذا بإمكانه أن يفعل كانت تدير فكرها باصرار كي تعلم لماذا أكّد حسن على ضرورة احضار زينب وأولادها من الملجأ وكانت تبحث عن مبرر يكفيها غضب ابنها اذا أتى وعرف أن زينب رفضت الخروج

من الملجأ الذي تستقر فيه مع أولادها تخيلت أم حسن أن ابنها سوف يحكي مؤنبا الأرملة التي تنفق معظم وقتها في إشعارهم باستقلالها عنهم، في الوقت الذي تكلفهم فيه جهدا خارقا وخدمات اضافية، كلما طرأت لأولادها حاجة جديدة. بالأمس، أعطوها كمية من الخبز لأنها قالت أنه ما عاد بوسعها الخبيز أمام باب الملجأ، إثر القذيفة التي أصابت ثلة من صبيان الحي الذين تجمعوا على بابه والآن، الله يعلم ما سوف تطالبهم به في هذه المعمعة إن لم تحضر الأولاد وتأت بهم إلى منزل أهل زوجها.

الماء! وكأنه كان يعلم ماذا بخاطرها أطل حسن في إحدى زياراته الخاطفة، وسألها عن آمنة. كان على آمنة أن تتكفل بإحضار الماء للأولاد في الملجأ لأن أمهم رفضت الحضور والإقامة عندهم كما كان متوقعا. قالت أم حسن إنها لا تظن أن آمنة الخويفة سوف تقبل بإحضار الماء، فأبلغها بأن عليها إخبار آمنة أن الكلام الكثير لا يجدي، وأنه سوف يحضر في العشية كي يرافقها إلى الماء.

وهل كان بإمكان آمنة أن ترفض أتى حسن، وأخذها ليدلها على الطريق الى الماسورة، كي تحضر الماء لأولاد فايز وبناته الأربع.

الدنيا ظلام، وعتم. الدنيا هي غير الدنيا ولا ينيرها سوى قذائف التنوير التي تتساقط هنا وهناك. يمشي المرء ويتمنى لو استطاع سماع صوت الصراصير أو الفئران، لأنها تعني

الحياة الطبيعية وليست مثل أزيز القذائف النازلة أو الهابطة كاللعنات. تمشي آمنة، وأمامها يتنقل حسن بخطوات سريعة وقد نسي أن أخته ليست معتادة على القفز.هي وراءه تجتاز الزواريب والحوائط المهدمة، والممرات الفارغة إلا من الجلن والتراب الأقواس المائلة التي كانت جزءا من جدار أو الشبابيك التي لا زالت تميل بفعل ارتجاج قريب مصدرة صوتاً كالأنين. يقفز قلبها مجفلا في صدرها ألف مرة. توارى حسن خلف بيت متداع فصرخت "أخي.. أخي.. غاب عن بصرها طاش صوابها بدأت تبكي وتولول لأنها لم تعد تدرك أين هي. في الأحوال الطبيعية كانت تعرف المخيم شبرا شبرا، وبقعة بقعة أما الان، وبعد تغير معالمه بسبب القذائف التي لا زالت تهبط كما لو على بقعة من الجحيم، فإنها لا تدري أين هي. صرخت، بكت، ولطمت على وجهها وقد تهيأ لها أنها بعيدة جدا عن البيت، وأنها لن تعود. أبدا لن لأنها ضاعت، وفقدت الطريق. بعد هنيهة ظهر شبح حسن. عرفته من ردائه العسكري. قال لها: لا تخافي. لكن، أسرعي. هذا المكان مكشوف، في هذا الخراب، صار كل شيء مكشوفاً كأنها في عالم آخر. تدور الفكرة ببالها، فتعاود البكاء رغم أنها تتقصاه وهو يتلفت إليها قبل كل انحناءة أو منعطف قرب الدكوانة توجد ماسورة المياة هي الوحيدة التي تنز بالحياة، إثر تكسر كل شبكات المياه داخل المخيم. هناك بدأت آمنة ترى أشباحا يتوافدون وهم يحملون آنية وأوعية. بعضهم كان يعاود الرجوع حاملا على كتفه أكياس نايلون كبيرة

منتفخة بالسائل الثمين، يمشي، وهو غير متأكد إن كان باستطاعته إيصال الكيس قبل أن تنهمر القطرات التي تسيل من جنباته. كان ذلك المشهد الذي سيدمي صدرها أثناء الغروب أو عند العشية فيما بعد وحينما كانت ترى الموكب الحزين، وهو ينتظر ساعات الى أن يخف الضرب على أنبوبة الماء المفتوحة، فيخرج الناس آنذاك متلصصين من ثقوب الخرائب، ومن درفات الأبواب المحطمة، ويتقدمون خطوة خطوة ، واحدا أثر الآخر ليأخذوا ما انتظروه ساعات طويلة كان الوصول إلى الماء يستلزم المكوث في منطقة لا يفصلهم فيها عن الكمائن المعادية إلا شارع واحد. الناس في جانب، والأعداء في الرصيف المقابل، وعلى طول الطريق المؤدي إلى عين الماء قنص وضرب وقذائف.طويلا كانت تسأل نفسها في كل مرة تضطر فيها إلى النزول لجلب الماء إن كانت ستنجز المهمة أم لا؟ يموت الواحد ألف مرة في لحظات ولماذا؟ ألكي يفنى هو ويعيش غيره من ورائه ؟ كانت تعتقد أن الانسان يعّز روحه ساعة الموت عن أولاده، وهم ليسوا أولادها لكنها كانت مجبرة، فهم أولاد فايز على أية حال. على طريقها كانت تقف سيارة محطمة بالشظايا عند أحد المنعطفات. هناك كان قناص شهير بكثرة ضحاياه، ودقة إصابته. كل مرة مرّت فيها آمنة من هناك كانت تتوقف لأكثر من عشرين دقيقة وهي تفكر أيكون بإمكانها أن تواصل الطريق دون أن تموت؟ وإذا حصل معها شيء، فهل ستكون على استعداد للموت من أجل أولاد لم تخلفهم؟. مرارا فكرت

بأن تذهب وترمي الجالون في وجه زينب لو لا خجلها من الناس. ماذا يقولون عنها وهي تفتعل مشادة مع أم الأطفال كانت تدير حوارا وهمياً طويلا مع زينب، وفي اللحظة الأخيرة تجبن عن مفاتحتها به، سيما وأنها تظل طيلة الوقت في الملجأ بين النساء. تبتلع ريقها وتود لو استطاعت أن تخبرها كم كان قطع الطريق سهلا وبسيطا في الأحيان الاعتيادية أما حين يحمل المرء التنكة أو الجالون على رأسه، فإن العملية تصير مهلكة، وقاتلة.مرارا وقفت آمنة على زاوية الطريق تقلب الرأي بالقرب من السيارة المحطمة، هل تكمل أم تعود؟ ومراراً كثيرة عادت، بعدما أعجزها شبح الموت عن الاقتناع بضرورة الاستمرار ترجع، وهي تعلم أن الأولاد سيزعلون وأنهم سوف يبيتون بالعطش إلى أن تتمكن من العودة من جديد لكن حادثاً واحدا فيما بعد غيّر الكثير في حياتها، ويا ليته لم يكن!

على الماء، على عين الميّة، وفي يوم قائظ الحر، برز على حين غرة رجل طويل، عريض المنكبين، قدرت آمنة بأنه من أفراد ميليشيا المحور الذي توجد فيه ماسورة الماء. كان لذلك المحور اسم بديهي انبثق من اسم مسؤول المحور المعروف بشراسة دفاعه عن موقعه. محور علي سامر كان ذلك هو اسم منطقة تعبئة المياه. برز الرجل بغتة من بين الخرائب وأمرها مع امرأة أخرى كانت هناك بأن ترجعا بسبب توقع تركيز القصف على عين الماء. بهتت آمنة، ولم تستطع أن تعرف اذا كان ذلك الرجل يتمتع بصلاحية الأمر،

أم أنه أفاق يستغل المناسبة لكي يصل الماء قبل اشتداد القصف. كان هناك الكثيرون ممن يزاحمون على الدور، ويزيحون الفتيات بقوة الأذرع والسواعد، وفي مناسبات نادرة، بقوة السلاح. لم تصدقه المرأة الأخرى، فأنشأت تحكي معه في زجر واستهزاء

- حِل عنا يا شيخ. عندي أولاد وإذا ما شربوا بيموتوا من العطش.

كان الرجل فظا لا يتمتع بأثر من روح المجاملة، لذا صرخ بهما من جديد:

- ولهْ ! إنتِ وايّاها ! قلت إبعدوا من هون.

وأيضا لم تقبل المرأة الأخرى، رغم اشتداد القصف، واقتراب القذائف من منطقة الماء. لكن! الذي يرى الماء سائلا، فوارا عذبا، متدفقا، براقا برغوته البيضاء، ينسى الدنيا وما فيها. فكيف بمن قطع الأهوال إليه. لم تبتعد المرأة الغريبة، وابتدأت تملأ التنكة التي تحملها إلا أن آمنة ابتعدت شيء ما بداخلها انحنى انصياعا للنغمة السلطوية التي يتحدث بها الرجل وتشي بأنه يعرف ما يقول حق المعرفة. شيء ما بداخلها أصيب بطرب غامر من الفظاظة التي بدت في لهجته الآمرة. لم تكن تعرفه، ولو كانت فلربما خطر لها أن تجيب:

- أمرك يا سيدي.

عجيب! إنها تتذكر أغنية عبد الحليم حافظ وتنسى اشتداد الهجير، والقصف، الغبار الذي يشبه الذباب، والذباب الذي يشبه الغبار تنسى الموت المحلق فوق الرؤوس، وصوت ماسورة المدفع التي تتجه صوب كل الزوايا بما فيها عين الماء. تنسى كل شيء ولا تفكر إلاّ بأنها سوف تسأل عن إسم الرجل الفظ الغريب وكما لو كان ذلك حلما خالصا، ابتعدت وهي تنظر إليه.تحدق. وخلفها، الحائط الذي تستند إليه ماسورة الماء، الذي يتدارى به الناس اتقاء من عين القناص. آنذاك، كما لو أن زلزالا هائلا خبط الأرض التي يقفون فوقها. غبار وتراب كثير يتقلب أمام بصرها تطلعت. أمعنت النظر كان الحائط مردوما فوق المرأة. تلك الأم الغريبة التي لا يعرفها أحد، كانت أعناق الناس ورؤوسهم تطّل من خلف الجدران والثقوب كي يتعرفوا على ضحية القصف التي لم يروها من قبل. عادوا جميعا إلى الاختباء، واختفى الرجل مطلقا سيلا من اللعنات على كل شيء في الوجود. انثنت ركبتا آمنة تحتها دون أن تقدر على تحريكهما بسبب الرعب الذي أصابها من رؤية مصرع المرأة. تركت آمنة الجالون في عرض الطريق، وركضت دون أن تفكر في شيء سوى العودة إلى البيت. تركت كل شيء خلفها دون أن تسأل عن الجالون الذي سيصعب تعويضه فيما بعد. هربت بجلدها بعينيها وأذنيها وسمعها. ولم تلتقط مما يحيطها سوى عبارة واحدة:

- علي سامر قال لها وما سمعت.

علي سامر ، إذاً، فهذا هو علي سامر الذي طبقت شهرته الآفاق. هذا هو وظلت تسأل عنه شقيقها كلما أطل على الدار.

عادت آمنة إلى حنفية الماء رغماً عنها مرات أخرى. لكن الخوف القديم الذي كان يداهمها اختفى وحل مكانه خوف من نوع جديد. لم تعاود الخوف على نفسها من الموت في ذلك المكان. كأن حمايته التي بُسطت عليها وأنقذتها بفعل المصادفة ذات يوم ما زالت تحوطها لو لم يكن هو فإنها كانت ميتة حتما، فكرت بمتعة خفية بينها وبين نفسها لكن خوفها انصرف إلى معرفة هل هو متزوج؟ وهل تنتهي الحرب كي تلقاه؟

في الحرب تصبح القاعدة هي الاستثناء. لم يعرف أحد كيف عثر المقاتلون على عجل، ولا يدري أحد سر قدومه وسط القصف إلى المخيم. اصطاده المقاتلون الذين نسوا طعم اللحم منذ زمن لا بأس به. شووا لحمه في الملاجىء القريبة من مدخل الدكوانة. وعندما حاولوا رمي الرأس والأرجل والأمعاء ظهرت أم جلال دون أن يعرف أحد منهم كيف وصلها الخبر قبل جميع النساء الأخريات. أتت أم جلال، وفاوضتهم على أن تقدم لهم ما ينقصهم مقابل الأطراف والرأس والأمعاء. طلبوا مِلحا لأنهم لا يستسيغون أكل اللحم بدون الملح الذي لم يعد متوفرا منذ شهر وأكثر وبهمة أم

جلال ذهب الولدان في التو إلى حيث اوصتهما، واحضرا الملح. في ذلك اليوم صارت أم جلال المرأة الأغنى في المخيم. ذهبت وطبخت في بيتها دون أن تحمل هم القصف المنهمر. كان عيدها الأول منذ زمن طويل. أن تقدم الشبع للسيد والأولاد. أما السيد، فقد كان وكأنه ليس هو صار لينا، ومستكينا، يكاد القط أن يأكل عشاءه، كما قالت أم جلال وهي تخبر عائشة عن حالته استطردت لتعرب عن أمانيها بأن تتوقف الحرب وتهدأ الأحوال كي تتمكن من العيش المعقول مع السيد الذي "صلّى على النبي في نهاية المطاف أكدت أن ابنها سوف يتكفل بهم في المنطقة الغربية من بيروت. وأنه قد حان الوقت لأن تستريح قليلا، بعد أن زوجت ابنتها الكبرى وبانتظار زواج جلال نفسه حكت أم جلال أشياء أخرى عن الذي يعملون معها في المركز الطبي، وما لبثت أن تذكرت إيصال السلام الحار من جورج إلى عائشة، ومن هناء إلى عائشة أيضا، وحلفت من صميم قلبها أن يأتي اليوم الذي ترقص به في عرس جورج. حكت أم جلال وحكت، ثم انصرفت مرة أخرى إلى عملها في مركز "الهلال حيث صارت تقضي معظم لياليها تضع كيسا من الرمل أمامها، وآخر خلفها، وتنام وبجانبها الولدان إذا تعذر عبور الطريق بسبب شدة القصف السيد وحده هو الذي ظل في بيته ولم يغادره حتى اليوم الأخير من سقوط المخيم.

لم تتأمل عائشة سابقا كم هي مرعبة عملية الـــولادة، إلا عندما تأكدت من حملها القهري الذي لم تكن تريـــده. ورغـــم عسر الظروف فإنها تقبلت حالتها بتسليم غير مكـــترث، مثـــل التسليم الذي واجه به السكان الكوارث المتتالية. لاحظ حســـن التطور في موقف عائشة ولم يملك إلا أن يبتسم بينـــه وبيـــن نفسه لأن زوجته تواجه شيئا تبغضه ولا تبكي كمـــا اعتـــادت دوما استغرب حسن، وسرعان ما امتصه الفرح - سيكون أبا لكنه لم يكن يمتلك الوقت للبهجة أو توزيع الملبّس كمـــا كـــان متوقعا في الأحوال الاعتيادية المخيم كله ينقلب عاليه ســـافله الناس تتهجر من بيوتها وتتحشر في الملاجيء التـــي تـــزداد اكتظاظا المستشفى لا يستطيع أن يواجه الضغط الخرافي فـــي عدد الاصابات الماء شبه مقطوع. المركز الطبي لا يســـتطيع تقديم الاسعافات الأولية إلا إذا أتى المرضى بالماء من بيوتـهم. حقن التطعيم ضد الكزاز غير موجودة. كل شيء غير موجود. إذا، فهو لا يستطيع الانتباه لنفسه أو عمل شـــيء لـــه طـــابع شخصي. عليه أن يساهم مع البقية فـــي إيجـــاد حلـــول لـــهذه المسائل أولا.

أما عائشة عائشة الحبلى فقد اضطرب للجـــلاء عـــن غرفتها إلى الشقة السفلى من البناية، بعـــد أن تكســـر زجـــاج شبابيك الطابق الثاني مع وفود قذيفة متفجـــرة علـــى البـــؤرة القريبة قذيفة واحدة. لم تنزل على بيب محدد، لكنها أصـــابت خمسة بيوت بالخراب انـــتزعت مطبـــخ الجـــيران الذيـــن خاصمتهم أم حسن بسبب مشاكل مد خط الكهرباء منذ خمـــس

عشرة سنة. إلا أن الكارثة الجديدة تمثلت في احتراق مؤونة جيرانهم مما دفع بأم حسن إلى أن تشاركهم ما لديها صارت تطبخ ضعف الكمية من البقول الجافة أو البرغل أو العدس وتبعث بها إلى بيت أم مازن. وأمام عنف القذائف التي تنتشر كالأفاعي المجنونة صار لزاما عليها وعلى أسرتها إخلاء البيت والنزول الى الطابق السفلي. وهنا عاينت عائشة التي لم تزر ملاجىء حتى الآن كل ما يخطر وما لا يخطر على البال. باتت لا تعرف لمن الشقة السفلى لكثرة ما واجهت أناسا يعلنون أمام الآخرين عن ذواتهم الحميمة. أولاد، وأمهات، ومقاتلون يترددون عليهم فيعيشون أو يموتون بغتة ودون سابق إنذار.

البيت السفلي! أصوات تتردد في جب عميق. أصوات عياط الأطفال المحصورين، وأنوفهم السائلة البابورات التي تشتغل مطلقة السخام، ورائحة الكاز مع وهجها الأزرق البرتقالي. سواعد النساء التي تحرك حجر الرحى لطحن العدس وإعداده بديلا عن الطحين. اكتشاف المخيم الجديد! لم يخطر ببال أحد خارج هذه الرقعة المحاصرة كيف يعيش آلاف الناس بدون المادة الأساسية التي تقيم أود الإنسان. لا أرز لا سكر لا قمح ولا طحين. لكن هناك عدس يجرش ويطحن ثم يخلط بالماء، ويقلى على البابورات أو أطباق الصاج التي توقد تحتها بقايا الأخشاب والأوراق. من مائه كانوا يرضعون أولادهم خلال انقطاع الحليب، ومن خميرة عجينه كانوا يصنعون خبزهم الجديد. صار العدس هو رحمة

الرب التي تسكت صرخات الجوع. بعض الذين لم يستطيعوا تعويض أكياس الرمل التي تتمزق على التحصينات، احتموا بأكياس العدس. كمنوا ورائها إلى أن يفرجها الله. ولولا نعمة وجود معمل تعبئة العدس داخل تل الزعتر لمات المئات جوعاً منذ زمن طويل.

في البيت السفلي راقبت عائشة فتاة شقراء في آخر شهور الحمل. كانت من جيلها حسبما وصفتها أم حسن. تعجبت عائشة من شدة اصفرار شعر الفتاة، وخاصة رموش عينيها وحاجبيها. وتعجبت أكثر من لون بشرتها البض الذي يشبه جلداً شطف بماء جافيل. لم تكن الفتاة تعرف أي شيء عن المخيم وساكنيه. كانت تشبه طفلة ضريرة وعاجزة. غريبة عن المخيم، أحضرها أهلها من الضفة الغربية في فلسطين لتتزوج ابن عمها الذي يدرس في إحدى جامعات بيروت. سكنت الفتاة فترة من الزمن في غرفة على سطوح إحدى البنايات في الطريق الجديدة، وحضرت مع زوجها الطالب المتطوع. كانت الفتاة غير قادرة على التركيز. تروي جورجيت حكاية زواجها وقدومها من هناك، وكأنها لا تفهم لماذا هي هنا. شغلها الوحيد أن تنتظر عودة زوجها المقاتل على أحد المحاور باستمرار، والذي لم يظهر منذ عدة أيام. لم تكد عائشة أن تتعرف على جورجيت حتى داهمها الطلق، فكك عظام ظهرها ومفاصل ركبتيها، وجعلها تتأوه وتلهث حتى كاد المغص الحاد أن يقطع أنفاسها. لم يكن هناك من يتولى أمرها، فعزمت النساء على احضار قابلة من المخيم.

كل المراسيل إلى الملاجيء الأخرى باءت بالفشل، فالقابلات معدودات على أصابع اليد، وهن يقطن مناطق ليس من السهل الوصول إليها وبانتظار إيجاد قابلة ما، أنفقت النساء الكبيرات السن، داخل الملجأ، وقتهن في تقديم مغلي القرفة الساخنة، والشاي وأوراق النعناع الجافة للإسراع في عملية الولادة. كن يحاولن إقناعها بأن لا تخاف لأن المولود يبقى في بطن أمه تسعة أشهر وتسعة أيام، وتسع ساعات. أخيرا، اضطرب أم حسن لأن ترسل في طلب أم جلال التي أخبرتها انه من المستحيل استقبال الفتاة في المركز الذي كست الدماء المتخثرة أرضه بسبب نقص المياه. أصيبت الفتاة بمزيد من الرعب والانكماش الغريزي، فاستغرق الطلق ثلاثة أيام كاملة بلياليها دون بادرة أمل في الوضع. أحضروا خزنة التي لم تشهد ولادة قط في حياتها، فظلت قربها تحاول ما في وسعها من شدَ وجذب في الممر المربع الذي يفضي إلى دورة المياه.

كان يبدو وكأنها بيتت قرارا بعدم الولادة بسبب فزعها من اختفاء زوجها رغم جميع التطمينات التي قدمتها النساء المجتمعات حولها لم تتكلم الفتاة، صار التأوه لغتها الدائمة تحولت إلى معضلة نزلاء المكان المكتظ حتى أن أبو حسن صلى أربع ركعات توسلا إلى الله ليخفف عنها ويفك شدتها صلى أبو حسن بدون وضوء حقيقي، استعاض عن هذا بالتيمم على حجر بحجم الكف كان يحافظ عليه داخل قمبازه. وكما لو أن السماء أشفقت على أنهار العرق الغزير التي سالت عن جسدها، لذا، أنجبت الفتاة رضيعاً استطاع، بفضل

الدعاء الجماعي الذي هلّل به الجميع، أن يرى أباه بعد يوم ونصف. لكن فسحة الأمل كانت تصغر كلما وصل إلى المكان خبر جديد. لا يمضي يوم الا وتسمع عائشة عن العديد من الإصابات والشهداء. قال زوج جورجيت وهو يزورها:

الواحد عارف أنه إذا تصاوب مفيش أمل يعيش. ما في أدوية، ولا علاج. لهذا يهجم الواحد منا... يا قاتل يا قتيل

وكان يعلق على الاشاعات التي روجتها إذاعة الكتائب عن وجود أنفاق تحت الأرض يحتمي داخلها المقاتلون الذين يعجز أعداؤهم عن تفسير أسباب استبسالهم في الدفاع رغم القذائف الهاطلة بالأطنان على المخيم. وتابع الرجل:

- ما هذه تلة المير!! لم ينتبه أحد فينا من قبل أنها ستصير خطرة إلى هذا الحد هي مسيطرة على كل المخيم. والذي عليها يشوفنا كأننا واقفين على كفه.

والطفل! يا ويلي ما أحلاه. مثل اللعبة، رغم صراخه المخنوق بعد أن قطعت النساء حبل سرته بمقص الخياطة، وغسلنه بمحتوى علبة من الماء، وكحلن عينيه بالكحل العربي. تطلعت عائشة إلى كعبيه الدقيقين المرسومين بشحطات وثنيات، يحركهما وكأنه يرفس العالم حوله وضحكت في قرارة قلبها من طرف لسانه الذي يشبه القط عندما يلعق الحليب. دخلت إلى قلبها بذرة الحنان مثل نبتة القطن التي تتمو لتكسو بخيطانها مساحات الحقول. القطن. لا ستشتري لطفلها مرايل قطنية عندما يتوقف الحصار بل الطفلة، فإنها تود أن

تتجب طفلة تربيها كما تحب وتريحها من عناء قسوة الأهل المتخلفين. ستدللها، تناغيها، وتحب حسن من أجلها تنتهي الحرب وتستطيع آنذاك أن تنظر إلى وجهه كي تراه. تتعرف عليه، ويكون صديقها وعدها بأن يجد لها عملاً بعد انتهاء الحرب سألته بجذل رغم تقطيبتها الدائمة:

- وعلى الإشارة؟ بحِّب أشتغل على الإشارة.

قال لها بلهجته المتعجلة عندما يكون وراءه عمل مثير

- وعلى الإشارة كمان. ليش لأ يا ستي؟ ما إنتِ قدّها وقدود.

الرجل الوحيد. أو الإنسان الوحيد الذي صدق أنها تستطيع. الجميع. كل الجميع، عاملوها على أنها بنت راهبات وستبقى هكذا حتى أبد الآبدين ما زالوا يهزأون منها من طرف خفي رغم الحرب التي ألهتهم عنها وجعلتهم عاجزين مثلها تخلف ولدا؟ ليكن. ستقبل أن تنجب قطة مقابل أن تغيّر من حياتها. وهي في هذا تلتقي مع أم حسن، تلك التي تسبغ عليها بعض العطف والاهتمام، وتقدم لها أي غذاء تستطيع توفيره في هذا الضنك الجديد الولد! البنت! لا يهم، سيكون لها يوماً لعبة صغيرة تناغيها مثل وليد جورجيت.تكبر الفتاة وتصير في عمرها الآن فتصبح صديقة لها، هي التي حرمت الصديقات والأتراب غداً، بإذن الله عندما تتوقف المعارك كما تقول أم جلال.

لم تتمالك خزنة نفسها من التقيؤ عندما تطايرت أشلاء ثلاثة وعشرين نعشاً أمام ساحة مركز الرعاية الصحية الذي كان مدخله يصيبها دائماً بالاكتئاب. لكنها لم تتصور أنها قد تعيش لترى نعوشا تتمزق، وتتطاير في الهواء. وضعت النعوش استعداداً للدفن، فلما ابتدأ القصف تركها حاملوها، ومضوا الى مداخل البيوت يحتمون بها لم تصدق خزنة أنها قد تحيا لترى الجثث التي تحولت إلى مزق لحم صغير معجونة بالدماء المتطايرة هنا وهناك. كانت تكره كثبان الرمل الصغيرة الممتدة مقابل المركز لأنها شاهدت فوقها جثث الأطفال الذين أصيبوا أمام الملجأ القريب من دار الحضانة وضعت آنذاك يدها على عينيها، ولم تفتحهما إلاَ عندما صارت في البناء الداخلي بعيدا عن وهج الضوء الأبيض. تحولت الأشياء إلى مسودة صورة سالبة عن الأصل. شاهدت العالم كما يراه المرء على فيلم النسخة السالبة الأطفال! لن تستطيع استعادة المشهد مرة أخرى دون أن تحس بأنها موشكة على السقوط. تسحبها قدمها المعطلة وكأنها تهوي بها إلى ما تحت حافة الأحزان. إلى حيث تموت ولا تولد من جديد.

ولم تكن تلك مشكلة خزنة وحدها، أو جورجيت التي كانت تعاني من نقص الحليب الذي يدّره صدرها البكر، فكان الرضيع يبكي معظم الوقت، لأنه يمص ثديها بشراهة دون أن يشبع أو يرتوي. كان صغيراً لا يقبل على ماء العدس المسلوق، ولا يتحمل هضمه بعد. ولم تكن كذلك أزمة عائشة وحدها، وقد ابتدأت تقلق على مصيرها كلما وجدت أن

القصف يزداد إلى حد الجنون، ولا يتوقف. كانت تنفق وقتها في عد القذائف دفعا للخوف تنظر إلى ساعتها الصغيرة التي حصلت عليها في أول ايام زواجها وتلاحق العقرب الصغير الذي يجتاز الثواني، تلاحظ السباق بينه وبين فوهات المدافع الثقيلة المتجهة إلى المخيم. فتنهمر القذائف أسرع، فأسرع. من ست عشر في الدقيقة إلى ست وثمانين واحدة في الدقيقة حتى أنها صارت مجبرة على أن تستعمل أصابع يديها أثناء العد كي تكون دقيقة ولا تنسى واحدة منها تناقصت فترات رؤيتها لأمها التي انهمكت في تجهيز وجبات الطعام للمقاتلين بالإضافة إلى عملها كل النساء صرن يعملن طيلة الوقت ويساعدن بشيء أو بآخر، حتى العجائز وهي أخذت على عاتقها مهمة مساعدة جورجيت وطفلها الذي لم تتمكن من تسميته لأن أباه لم يستطع العودة من محوره منذ رآه مرة واحدة بعد ولادته وحتى الآن كان يبدو وكأن جورجيت استعادت عافيتها سريعا، فتدفق الدم من جديد إلى وجهها الباهت.

المهاجمون صاروا يدخلون إلى أطراف المخيم، انتشر الهلع بين الناس عندما عرفوا أنه تم اقتحام ملجئين قرب موقف سيارات الأجرة التي كانت تذهب قديما إلى الفاكهاني وصبرا. هناك. تحت أسفل المخيم. قرب معمل الصابون.أتى سكان ملجأ مصنع جورج متّى"، وحلوقهم جافة من رعب

مشاهدة القتلة الذين يحملون البلطات ويضعون السكاكين على خصورهم. استطاع البعض حمل صرر الطحين أو العدس، والبعض الآخر لم يصدّق أنه استطاع النجاة بنفسه حتى أنه ترك وراءه علب حليب النيدو الثمينة. صار الطوق محكما من ثلاث جهات. أما من الجهة الرابعة فقد برز تهديد خطير تمثل في الموقع الكتائبي المتمترس وراء الكنيسة تلك التي يؤمن بناؤها المتين للمهاجمين فرصة اقتناص الناس والتداري خلفها مثل متراس. كان لا بدّ من إيجاد حل. والحل الوحيد الممكن هو تفخيخ الكنيسة بالألغام. تسقط، فتتوفر من ثم فرصة حماية الجهة الرابعة التي تجمع أغلبية الناس قربها.

انتدب فريد من قبل المجموعات المشتركة لكي يقوم بالمهمة.تذهب مجموعة من أفضل مقاتلي المخيم، وتنسف الكنيسة، فيحرم العدو من فرصة الحركة في جميع المواقع خلفها. أما فريد، فهو مقاتل قديم متخصص في الألغام عُرف بمهارته العالية أثناء معارك سابقة كثيرة. شارك في معارك اربد بين المقاومة والسلطة عام السبعين. وفيما بعد ذهب إلى الأحراش، ثم حضر إلى لبنان والتحق بإحدى قواعد الفدائيين في العرقوب. وها هو الآن مع إحدى المجموعات بعد أن استطاع الدخول إلى المخيم بين حصارين. الذي يرى فريد بقامته الضئيلة، وشاربه الرفيع لا يصدق الانجازات الطويلة التي ارتبطت باسمه، بحيث صار عن حق أحد المختصين النادرين في مجال الألغام. عيبه الوحيد على رأي أم جلال

التي رأته مرارا أثناء زيارته لبعض المصابين في مركز الرعاية الصحية، إنه لا يرعوي ولا يصلي على النبي في مسألة التدخين. فمع أن المدخنين هم أدرى الناس ببعضهم وبالحاجة الملحة التي تجول في الدم، الا أن هذا الفريد رغم صمته شبه الدائم، وملامح الرصانة الظاهرة عليه، يشبه قاطرة متحركة تنفث الدخان ليل نهار، لا يطفئ سيجارته إلا ليشعل التالية. لم يكن أحد لينتبه إلى هذا في الأيام العادية، أما الآن والحالة حالة فإن الموضوع كان يلفت النظر من أين يتسنى له الحصول على سجائر المارلبورو في الحين الذي يعيش فيه كل المخيم على السجائر المصنوعة من العيزقان والقنبز الذي هو طعام العصافير، أو الملوخية الجافة أو ورق الدوالي الناشف الملفوف في ورق صحف.

صهرها حسن أشاد بنزاهة الرجل ردا على تعريضها حين ألمحت إلى أنه قد يكون اهتدى إلى إحدى المخازن الغاصة بعلب التبغ دون أن يخبر أحداً. سخر حسن من ظنونها، وقال لها:

– حُر الرجَّال! شو بدّك فيه يا حماتي. مهُواَش شايف من هالدنيا غير السيجارة. أهله كلهم في غزة. ومش متجّوز ولاُ لْه ولاد، ومستخسرة فيه هالسيجارتين. يا ستي خليه يدخن تيشبع، وإلا شو السيرة؟

ابتعدت أم جلال بظهرها الذي تلوح فيه كرات الدهن الضخمة تبرز من تحت فستانها الذي لا يحمل شكلا محددا.

إستعاد حسن سيرة فريد بحنان داخلي خاص. المشرد! الذي لا يستطيع دخول أي بلد بسبب عدم حيازته جواز سفر ساكن المطارات وسائح الطائرات. حاول مرة السفر إلى عاصمة عربية كي يرى أمه التي عبرت الجسر، ولم يستطع. العجوز تنتظر، والمطارات تتسلم الشاب وترميه إلى مطارات أبعد. الوثيقة الفلسطينية التي يحملها أوصلته إلى البلدان الإسكندينافية مرورا ببعض بلدان افريقيا وآسيا يدخل فريد الدولة وسرعان ما يصبح نزيلا في صالات المطار، إلى أن ترفضه السلطات وترسله على أول طائرة مقلعة. حكى لهم فريد الكثيرعن العائلات الفلسطينية الأخرى التي تسكن صالات الترانزيت كان يقهقه وهو يروي كيف ينشرون غياراتهم الداخلية في غرف المراحيض العمومية، وكان يدمع أحيانا وهو يستعيد صور الاذلال التي واجهها مع رجال الأمن والشرطة. صارت قضيته في النهاية مثل مسرحيات العبث التي يشاهدها الناس فلا يصدقونها ظنا منهم بأنها مجرد نوع من الترفيه. أخيرا اهتدى أحد مكاتب منظمة التحرير إلى حل لمشكلته عبر وساطات مكثفة مع شخصيات هامة في البلد المضيف، فقرروا إبعاده إلى لبنان. بعدها كفر فريد بمشروع اللقاء مع أمه، وبرغباته الطيبة التي لم تجّر عليه إلا الأذى. ولم يفكر أبدا، أبدا بأن يعاود الكرة حتى عندما أبلغه إخوته بوفاة أمه قبل حوالي العام.

وعلى الرغم من تهمة فريد بأنه ينتمي إلى تنظيم إرهابي يروع ذكر إسمه المطارات الأوروبية، إلا أنه، لم يؤذ في

حياته نملة عابرة كما يرى حسن. الواجب واجب، وهو واجب على كل حال، يكفي أن فريد كان سيصير ضحية تنظيمه حين ثارت الإشتباكات في أوائل السبعينات حول مفهوم الدولة الفلسطينية على جزء من أرض الوطن. لم يتقبل التنظيم الفكرة واعتبرت تخطيا للميثاق المقدس الذي ينص على تحرير أرض فلسطين من البحر إلى النهر لا يمكننا أن نسلم أرضنا إلى الأعداء، قالوا سوف تثور المنطقة كلها يوما ما، وسنحررها حتى آخر شبر وها هي النتيجة واضحة الان انهم يريدون تحرير الدول العربية من وجودنا أولا، علق فريد هذا الذي لا يكف عن التدخين فيثير حفيظة وسعال النساء الكهلات اللواتي يتحرقن إلى سيجارة "مارلبورو أو أي تبغ حقيقي ملفوف بورق أبيض.

وهذه الكنيسة البغيضة لم تكن سوى سور بالنسبة إلى مقاتلي المخيم، وسيزيلونه لكشف الموقع المعادي الذي يدك الناس برصاص القنص وقذائف المدفعية دكا. لم يفهم حسن حتى الان لماذا تحول الدين إلى سيف ضد البشر؟ وهو لا يفهم حتى هذه اللحظة كيف سيمكنهم نسف الكنيسة رغم أن القرآن الذي يرتله أبوه علمه احترام الأديان الأخرى. أبدا لم يحاول حسن ان يفتح قرآنا في حياته ليقرأ آياته، تعود أن يحترمه من بعيد لبعيد. تعامل مع الدين وكأنه مخصص لكبار السن والشيوخ الذين يحجون إلى مكة ليس له، أو لمن هم في جيله. المشاكل الحياتية المتواصلة دفعت بالأهل إلى التركيز على دراسة الأولاد، قبل أي هم آخر أهله كانوا يقولون إنه لا

يمكن للفلسطينيين خوض صراع البقاء بدون علِم. لا بيت، ولا وطن، ولا أصدقاء فكيف يمكنهم دخول الصراع، أي صــواع، بغير هذا السلاح. من خلاله يكتسبون حماية هم بحاجــة لـــها، ويعاودون تأسيس حياتهم المنهارة إلى ان يرجعوا إلى بلادهــم. الدين! إنه لا يذكر أن أحدا من عائلته كان يصلى عدا والـــده المتقدم في السن. حتى أن أمه كانت تعتبر أن الانصراف إلـــى حل مشاكل اللجوء والنزوح المعقدة هو نـــوع خـــاص مـــن العبادة. إن محافظتنا على الحياة التي خلقها الله هـــي أسـمى أنواع العبادات كانت تخبرهم دائما لذا تعجب حسن بينه وبين نفسه لم يشنّ الأعداء حربهم باسم الدين؟ ألأنهم يمتلكون مـــالا كثيرا، ودورا ومصانع تجعلهم في غنى عن الإنغمـــاس فـــي مشاكل الحياة اليومية ؟ لكنهم ليسوا جميعا هكذا. الفقراء علـــى الجبهات، وأولئك الذين يشنون الحرب يظهرون في الصفحـات الأخيرة في الصحف بصور حفلاتهم الصاخبة.

لماذا يريدون إخراجنا من هنـــا؟ نحــن الذيــن نشــغّل مصانعهم، نساؤنا تكنس بيوتهم ومطابخهم، وبفضـــل عملنـــا يحوزون الوقت والامكانيات للتمتع بالشـــواطىء الأوروبيـــة نعم، هنا المسألة تذكر حسن عطلات الصيف الطويلـــة التـــي قضاها يعمل في المصانع لجمع الأقساط المدرسية عمل مـــرة في مصنع العلكة، وأخرى في معمل السمنة، ومرة ثالثة فـــي معمل "فورموست للجبنة والألبان حيـــث الأجـــور شـــحيحة وساعات العمل طويلة. بل إنه لم يعد يذكر عدد المراث التـــي عمل فيها هنا وهناك، فكأنه استنفد الأمـــاكن كلـــها، وصـــار

يعرفها جيدا إلا هذه الكنيسة فإنه لم يعرفها قط. ولا خطر بباله قبل هذا الزمن أنها موجودة هنا.

تبدو الكنيسة من بعيد مثل دائرة العتمة مهجورة، قصية، منعزلة، كأن الأشباح وحدهم يقطنونها. كل الأماكن المتوحدة تثير في داخله شعوراً بالقشعريرة منذ طفولته يتوق دائما إلى الأماكن المكتظة بالناس، ويستسيغ روائحهم مهما كانت زنخة أو حامضة أخوه فايز كان على العكس تماما. يحب الهدوء، ويروق على نفسه بعيدا عن صخب الجيران وعجقة المعارف والأصحاب لكن، حسن يتمتع كثيرا بالنظر إلى تعبيرات الوجوه، والتمعن في القسمات المختلفة ، والانصات إلى قصص الماضي أو أساطيره. أمه تقول إنه مثلها يحب المعاشرة، ولا يطيق الظلال إن لم ترقد تحتها أصوات مألوفة. لشد ما استغربت من مزاجه غير المتوقع عندما تزوج عائشة. حلق عقله وطار وراء امرأة لا تشبهه فتاة صغيرة، منحرفة المزاج لا يضحك وجهها للرغيف السخن. لم يدر أحد ممن حوله لماذا اختارها هي، وهي بالذات. رغم أن العديد من الصبايا معجبات بمزاجه الضاحك، وطلته المرحة. كانت تلك تسميعات أم حسن الخفية في بداية الخطبة، لكنها لم تلبث أن تخلت عنها بعد أن اجتذبها صمت كنتها التي تجيد الإصغاء لمشاكل حماتها

الكنيسة. تطلع حسن إليها وهو يتقدم مع المجموعة التي تستحكم خلف المتاريس الرملية. بناء أصم مبني على الطريقة

الحديثة التي غزت بيروت في الستيناب. يجلله الحجر الرخامي الغامق الذي يسبغ عليه القتامة رغم القرميد الأرجواني الـــذي يتدلى على جوانبه شبابيكه كثيرة، لا يبدو أثناء غياب الشـمس ما وراءها. وفي البعيد عندما يعبر البصـــر الممــر الطويــل المؤدي إليها تلوح أدغال وبساتين تزيد من الغمـــوض الــذي يسيطر عليها كنيسة الدكوانة هذه، كانت على مفترق المدينـــة والبرية المؤدية إلى الجبل. تحتل حيزا من الفراغ الشاسع الذي يقود إلى جبال لبنان الغربية على جانبي السور الأمامي تبدو الذوائب المتطاولة لشجر السرو، التي لا زالت توحي بالإنتماء إلى مدينة الصنوبر والسرو والحرب.

رغم دراية حسن الجيدة بتخطيط العملية إلا أن نظراتـــه كانت تتنقل ثم تحط تلقائيا على فريد. الكل يتابع فريد بشــكل أو بآخر. قساوة القلب والتحكـــم الشـــديد بالأعصــــاب لا تنفيـــان إحساس المجموعة الحاد بتركز الخطر على شــــخص محـــدد فيها عليه هو أن يدور حول البناء الشاسع الذي بدا مثل عنقاء هائلة في ذلك الحين. الظلال المتداخلة تتحني حــول الزوايـــا، وتلف حول الشبابيك فتزيد من تيقـــظ الأعصـــاب والعيـــون. رشقات متقطعة لرشاشات بعيدة. مدافع الدبابات التـــي تحيــط المخيم تئز، وترتجف إثر إطلاق القذيفة الأرض تهتز حيــــن يضع حسن أذنه ويصغي لما في جوفها أراد أن يطمئن علــــى ابتعاد الخطر عن فريد أتراهم ينتبــــهون إليـــه، ويســـتطيعون إصابته برشاشاتهم ؟ لا يمكن لأكثر من عنصر واحد التســـلل لإتمام المهمة، وعلى بقية المجموعة حمايته. امتدت شـــرائط

التفجير مثل الأفاعي على الأرض السوداء. يسحبها فريد باتجاهه وهو يقفز ثم يحبو ويأخذ طريقه إلى الداخل زحفا توقفت القلوب وكأنها معلقة بشعرة في الهواء. سيأخذ الأمر ساعة ربما كي يستطيع فريد تثبيت الألغام في أساسات الكنيسة. كان دائماً يخبرهم وسيجارته معلقة بين شفتيه: "الغلطة الأولى هي الغلطة الأخيرة" لا يمكن لمن في مثل تخصصه أن يخطئ. وإلا كان يقولها بنبرة هازئة الكل يحاول أن يلتقط أنفاسه، ثم يعّب جرعة من النسيم الليلي، ويقبضها في جوفه، فلا تصدر عنه نأمة.

الجميع كانوا يترقبون وراء فتحة في الجدار اختاروا ساعة الغروب لأن الرؤية تتقلص فيها إلى الحد الأدنى. إنها الساعة الأكثر أمانا، ففي الليل يعتاد البصر العتمة، وتتالى قنابل الإنارة بالعشرات الشيء الوحيد الذي لم يكن بإمكانهم تدبير أمره هو ضوء الشمس الذي كان يواجههم، خلف ظهور القوات المعادية تسلل فريد واستطاع الدخول إلى الكنيسة من شباك مفتوح. بعض النوافذ بقيت مفتوحة منذ بداية الحرب. تنفس المقاتلون الصعداء مع أنهم كانوا يعلمون جيدا أن المرحلة التالية هي الأكثر صعوبة، مرت ساعة والأبصار معلقة باتجاه البناء. لا بد أن الأمور تمضي على أحسن ما يكون. حتى صوت الحفر في الأساسات استطاع فريد أن يخفيه، فلا عين رأت ولا أذن سمعت. إذا تمت الأمور على ما يرام فسوف يرتاح المخيم من مجموعة القنص والقصف التي لم ترحمه أبداً. إن ساعة أو ساعتين من الهدوء لا تعني سوى أن الكمين المعادي يأخذ قسطاً من الراحة.

أطل شبح فريد، في الدكنة الأخيرة المغبشة للغروب، من على طوار النافذة، وهو يستعد للقفز عائدا. ضغط الجميع على أنفاسهم وهو يرون الرجل وقد تدلى نصفه تمهيدا لانسحابه، آنذاك، وفي اللحظة الأخيرة، الأخيرة، دوت طلقة القناص. طلقة.طلقتان. ثلاثة وهوى فريد. ليس باتجاه الخارج، وإنما نزولا إلىداخل الكنيسة. صرخ، ووقع. ربما كانت صرخته تلك هي الخطأ الأخير الذى حكى عنه.فلربما لو أنه لم يصرخ لاستطاع الشباب سحبه خلال الليل. لكن! إصابته الفجائية التي لم يتوقعها جعلته يؤكد ظنون القناص. عندها، اشتعل الجحيم.

نيران. قذائف. أسهم نارية عيارات قنص. قدائف مدفعية. كل أدوات الجحيم اشتعلت على تلك الجبهة التي كانت شبه هادئة إلى تلك اللحظة كأن الأرض انخسفت ونفضت ما عليها. كأنه يوم الحشر، وفي أزيز الأسلحة التي تتراشق كان بإمكان الشباب أن يتخيلوا كيف أن فريد منبطح على أرض الكنيسة دون أن يجد من ينقذه، أو يحميه. تركزت همتهم على استئناف إشغال الأعداء حتى لا تسنح الفرصة لهم لكي يهبطوا إلى داخل الكنيسة حيث يرقد فريد.

(١٢)

خمسة أيام كاملة على هذه الحال. استنفار مستمر على جبهة الكنيسة، وتسقط للحظة الملائمة التي يستطيعون فيها الدخول إلى الكنيسة لجلب فريد الذي كانت أناته لاتزال تتصاعد بين رشقة سلاح وأخرى. بين الحين والآخر يسمع رفاقه أنينه العالي فيجن جنونهم، ويظلون ملتصقين بالمحور الجديد ـ محور الكنيسة. وليس من طريقة لسحبه وإخراجه. كان على أحدهم أن يدخل لإحضاره، وعلى آخر الدخول بأي ثمن لكي يشعل الفتيل. متانة البناء حالت دون أن يتأتى شيء من جدران الكنيسة بما يتساقط عليها. تحطمت النوافذ كلها. لكن فريد مازال هناك. تغيرت الأحوال أمام الكنيسة فقد علت متاريس الشباب هناك بأكوام هرمية. ونخرت القذائف واجهات البنايات المقابلة حتى صار لها طابع المكان الخراب. هاجر سكان كثيرون إلى الملاجئ القليلة التي ازدادت اكتظاظا. كان عليهم إيجاد الحل. لذا أنتدب عنصران هما الأفضل والأكثر

كفاءة للخلاص من هذا الجحيم المتأجج. ذلكما العنصران كانا: حسن المشريفي، وجورج حداد.

"طا طا طا" رددت أم جلال بذهول عندما أخبرها حسام بما سمعه من أحد المقاتلين المتوجهين إلى محور الكنيسة. غيى معقول. تبادر لها. لكن الرعب أخرس لسانها، فذهبت راكضة إلى بيت ابنتها. ثم ما لبثت أن خافت من إثارة الفزع في بيت أم حسن، بالإضافة إلى أنه لا يحق لها التداخل في عمل المقاتلين، بالاستناد إلى الثرثرات التي يسمعها ابنها المندس بينهم.

لم تعرف ماذا تفعل، ولا أين تتجه. احتارت. ولولت. ثم ذهبت وسط هدير القصف إلى مكتب هناء الذي لا يبعد كثيرا عن مركز الرعاية الصحية. دخلت دون أن يعترضها أحد إلى حيث تجلس هناء منحنية على جهاز الإشارة، ومنهمكة في عمل غريب. كانت ترد على شتائم محدثها الكتائبي الذي يعلو صوته واضحا عبر السماعة، وبالطريقة ذاتها التي يكلمها بها:

ــ وله، يا شر

ــ وله يا ابن الشر

ــ أبوك على أبو أبوك يا كلب يا ابن الكلب.

فغرت أم جلال فاهها ولم تعرف ماذا تقول. لم تدر لزوم انغماس هناء في الرد على هؤلاء الأنذال بلهجتهم؛ وخصوصا

تلك الشتائم التي لا يستخدمها إلا الرجال. رفعت هناء رأسها محيية المرأة العجوز، وسألتها:

ـ شو خالتي

فلم تزد أم جلال على أن رفعت ساعديها مؤشرة بيريها، قائلة:

ـ الكنيسة ! طا. طا..

أدركت الفتاة الرعب الذي تشعر به محدثتها، سألتها:

ـ يعني صار فيه شيء جديد؟

قالت أم جلال بلهجة متلعثمة:

ـ يعني حسن وجورج.

فأجابتها الفتاة التي كانت حريصة على عدم الإعلان عن رعبها حيال أية مصيبة، بهدوء، زاد في رعب أم جلال:

ـ هم هناك من زمان يا خالتي.

وهنا عاود العقل أم جلال. خجلت من أن تشكو همها لفتاة في عمر ابنتها.

لهثت وقالت بتعجل لتتهرب من فتح الموضوع:

ـ والله فكري مشغول عليهم كتير. ومش عارفة شو أعمل؟

ـ هدّي خاطرك يا خالتي. آخرتها رح ندبـــر أمورنـــا ونحلّ هالوضع.

شوفي أمي الله يساعدنا على ما هي فيه.

ـ بيعين الله يا خالتي. قالت أم جلال وهي تغـــادر الـــى محور الكنيسة.

رجعت هناء إلى الجهاز لكي تعاود حرب الشتائم بينـــيا وبين العدو على الطرف الآخر ىبما لتنسى الحاضر قليـــلا هذا الواقع الذي لا تجرؤ على التفكير في نهايته. عبر تناســيه المفتعل كرست تميزها عن الرفيقات فما عـــاد فـــي إمكانـــيا التعبير عن فزعها الجارف إلا بعيدا فـــي قعـــر قلبـــيا. فـ الأعماق. هذا الهلع المكبوت، الممنوع من الإعلان عن نفســه. الذي لم يبْقَ لها سوى "فش الخلق عبر الشـــتائم والمســباب. بينها وبين نفسها حسبت حسابا لأم جلال. قد تفشـــي العجـــوز سرها لجورج. إنه لم يتعود أن يراها إلاّ في أفضل حالاتـــيا. فتاة مثالية بكل معنى الكلمة. فماذا لو ذهبت أم جلال وأخبرتـــه أنها تقضي أوقات فراغها حين لا يكون لديها خط اســتقبال أو إرسال في تلقي الشتائم، وإرسال المسبات؟.

أنذاك. ستسبب لها أم جلال إحراجا هائلا يجب أن تفكـــر بكيفية الخلاص منه منذ الآن. خـــلال خـــوض النـــار الـــذي اجتازاه، كل من جانب. عاشا لحظات خطر هائلة. لكن الأعظم كانا بقاء الوضع على ما هو عليه. حـــرب اســتنزاف حقيقية أشد شراسة من كـــل الجـــهات والنواحـــي المحيطـــة

بالمخيم. يجب أن تقتلع الكنيسة. أن تسقط، وأن تترك كي ينكشف الموقع الذي يتخفي وراءها. وإلا

الغلطة الأولى هي الغلطة الأخيرة. كان يقولها بحزم ودعابة وهو يرقد الآن شبه مغمي عليه على بلاط الكنيسة الباردة. على رخامها الأبيض الجميل كما خطر في ذهن عائشة وهي ترتجف لأن طفل جورجيت يرفض الرضاعة، وحليب أمه الشحيح يجعله يلوك ثريها، ويمطه دون برتوي. يسحبه بين شفتيه، ويعض عليه بفمه الخالي من الأسنان، وعندما ييأس يرفضه. يبصقه، ويبدأ في الصراخ والعويل. الرضيع يقبل ماء العدس. بل إنه يطبق شفتيه اللحميتين بعناد كلما ذاق طعم السائل المعكر الأصفر، مع أن العديد من الرضع تعودوا على تناوله رغم طعمه غير المستساغ. في البداية، أرادت عائشة أن تساعد جورجيت حتى يقبل الصبي غذاءه الجديد. لكنها لم تستطع أن تستمر في المزاح والضحك على الوضع لأن "البوبو أرستقراطي من عائلة البوربون. أو أنه قريب ماري انطوانيت التي عرضت تقديم البسكويت للشعب عوضا عن الخبز كانت الأمور تتطور الى حد المأساة مع هذا الوليد الذي يرفض طعم الحياة لأنها لا تعجبه، فيوشك أن يزرع الجنون في روح الأم التي صارت تبكي وتنوح كلما علا صراخه. لم يحضر الأب بسبب صعوبات الحصار أما الطفل فكان يزداد نحولا فيصير أشبه بجلد على عظم. هزيل الجسد. أصفر الوجه. مشقق الشفتين في إحدى اللحظات أوشكت جورجيت أن تفقد صوابها.

وتضربه، لولا تدخل عائشة. يطبق الولد شفتيه فلا يستطيع أحد من بعد فتحمها.

لم تعرف عائشة أن زوجها وجورج هما المختاران لدخول الكنيسة. سمعت بالقصة التي شاعت ساعة وقوعها، عن فريد المسجون بجراحه داخل البناء. ولم تتأكد من التفاصيل بسبب تباعد الفترات التي يطل فيها حسن. بالأمس، زارهم لخمس دقائق بناء على رغبة أمه المشتاقة لرؤيته بعد أن غاب عنها أكثر من عشرة أيام. تناول شوربه العدس التي أعدتها دون أن ينتظرها لتبرد، ومشى. ركضت أمه وراءه إلى باب الدار قالت له:

ـ خلَيك. بعدني مشتاقة لك. ماشفناك.

ظل مندفعا إلى الأمام وهو يقول:

ـ عنا شغل. بس نخلَص شغلنا بنرتاح. يما، ديري بالك على عايشة.

ـ يا عيب الشوم عليك. مهيّه في حبة عيني.

ـ سلامات، يما.

قالها لأمه، ونظر إلى عائشة التي راورها إحساس بأنها الأولى التي يخاطبها، حتى حينما يحدث أمه. ركز نظره عليها وقال:

ـ عايشة. ديري بالك.

ومضى. الوحيد الذي كان يشعر بالانتعاش. في ذلك النهار هو السيد. فللمرة الأولى كان يحصل على السجائر دون عناء شديد. وبفعل المصادفة اتي تشكل سبب كل اختراع عظيم، وجد أن الأزهار هي أجود أنواع الدخان. ضاق صدره لدى اختفاء الولدين مع أمهما في مركز الرعاية الصحية. انتشل وردة من أصيص نبات قريب. ثم، دلف ودار وجمع كل ما حرقته القذائف من ورد وقرنفل، وجاردينيا وفل. قام بتفتيتها، ولفها من ثم في ورق انتزعه من دفاتر الأو وعندما صارت سجائره الجديدة جاهزة، بدأ يفكر في الخروج إلى المحور لعرضها على الشباب. كان المحور الأقرب إليه، هو محور الماء عند علي سامر. لكنه. وبناء على معومات أم جلال التي نقلتها إليه منذ عدة أيام، قدّر أن معظم الشباب سيكونون في محور الكنيسة. لذا، أعد نفسه للخروج، ثم عاد وتمهل عندما لاحظ اشتداد القصف. جلس مقرفصا قرب باب البيت منتظرا سنوح فترة من القصف المعقول، لأنه يستطيع التنقل داخل كل هذا الجنون. عندما كان يدخن انغمس في تخيل الطريقة المرحبة التي سيستقبلونه بها، والتهاني التي سيحصل عليها بسبب اختراعه العظيم. خصوصا من صاحب الكيف فريد. إنه الأول فيهم الذي سيفهم خطورة اختراعه الجديد.

عندما ابتدأ حسن زحفه باتجاه السور العالي دوت أغنية فيروز في رأسه. كان بحاجة لتركيز انتباهه على الطريق الطويل المزروع بالرصاصات المتقافزة فوق أنصال الحشائش

التي لم يثنها شيء عن النمو. نعم. الحشائش الخضراء. حتى أنه عاد بفكره إلى معركة حرش ثابت. ومع هذا، فإنه مازال يستمع إلى أغنية فيروز يترنم بها في داخله ويعجز عن تذكر جميع كلماته لأنه لا يمتلك الزمن أو المكان لهذا. نوى بينه وبين نفسه: عندما يخرج من هنا فسوف يستعيد الأغاني كلها، ويفتش عن هذه التي تتردد في داخله. لابد أن يبحث عن هذه الأغنيد الرائعة، وربما سيسترجعها على المسجلة عدة مرات في اليوم. بغتة لمع بباله توفيق. أدلته لم يمازحه آنذاك. عندما أعاد الأعداء الهجوم على تلة المير كنت مع فارس وتوفيق سويا. صعدنا إلى. لا كنا عطشانين. العطش.

وكان هناك نصف إبريق ماء. كان توفيق مستلقيا على الأرض. قال: اسقيني. صرت أمازحه: مابدي. وأخذت أغرف الماء وأرشه على جسمه. قال: منشان الله، شرّبني قبل ما أموت. أعطيته ليشرب. لكنني فيما بعد ظللت أحس بالحزن عندما أتذكره. كان الكتائب يتسللون إلى التلة. لم تكن أسلحتنا نافعة. الكلاشن وصاروخ البي ــ سفن لا يفيدان. نزلت إلى الأسفل مسافة خمسين مترا لأحضر بندقيد القذائف التي حصلنا عليها بالمصادفة. نزلت راكضا. أخذت الناتو الأنيرغا وطلعت ثانية. كانت الدنيا أول العتم. عندما طلعت ثانية. ناديته: توفيق. لم يرد. اقتربت. وجدته منحنيا فوق بندقيته وكأنه يصلي. كانت قبضة بندقيته مكسورة. الدم يغطي بطنه. خفت. للمرة الأولى أحس الخوف. لكن! الأغنية. حبيتك أنا أنا حبّيتك" بالصيف لاء "بالشتي تتدفع كلمات الأغنيه

إلى رأسه وهو على عتبة السور العالي. الجميل. البشع. الأسود. الأبيض. لكنه سور على أية حال. ليته لم يمازح توفيق ولم يعابثه على جرعة الماء. حتى جرعة الماء الأخيرة في حياته نغصها عليه. الشمس مازالت لم تختف بعد. الغبش المعكر في الفضاء بسبب عشرات الشظايا الملتهبة الهابطة عليهما من فوق مثل رذاذ معدني شرير وصديقه. حبيبه جورج. المسكين لم يلحق أن يخطب حتى تأجل زواجه إلى زمن لا يعلمه إلا الله. في الجامعة لم يتعلق بأحد من أصدقائه مثله. يا شحار عليكم ! تقول أم حسن. "مشحرين يا مساكين. شو شفتو من أرضكم! والا من وطنكم. كلكم فقرا ومعترين. كلكم! يا أساتذة ! يا طلاب! والواحد فيكم عمره سا عرف قيمة الفَي تحت شجرة الزتون أو تحت الدالية. وهياكم مجبورين تقاتلوا وانتم ما انفطمتوا عن حليب أمكم. يا عيني عليكم يا حبايبي. لم يكن يحب الرثاء أو الشفقة. ولم يكن يدري لماذا لا تقدّر أمه محاسن العصر الحديث الذي يسمح أيضا باستعادة الضائع بدلا من البكاء عليه. إنه يعتدّ بجيله الذي يقاتل رغم كل شيء لاسترداد الكرامة التي فقدها منذ خروج عام الثمانية وأربعين. أهله يحلفون أنهم قاتلوا بما قدروا عليه. حملوا الأسلحة، تمترسوا في الجبال. واجهوا المستوطنين الصهاينة في معارك عديدة إلا أن الأعداء انتصروا بسبب من أسلحتهم المتفوقة. أين بواريد العصر التركي من البنادق الحديثة والمدافع المورتر و "البرنات بينه وبين نفسه كان يصدقهم في معظم الأحيان. ويعلاو سبب

بؤسهم وخذلانهم إلى التخلف والفارق الحضاري قبل أي شيء آخر. وعندما كبر وذهب إلى الجامعة، عرف أن هناك حضارتين في العصر الحديث تتعايشان سويا. واحدة هي حضارة القهر التي تستخدم أرقى أدوات التكنولوجيا لقمع وتشريد الناس من أوطانهم كما حدث في جنوب إفريقيا وفلسطين. وأخرى هي حضارة المظلومين الذين يمكنهم الانتصار، يمكنهم ليس إلا ولكن. حينما يكون الانسان في بيته ووطنه. لكن هنا ! بين الغرباء. كيف يمكن الاستمرار بين من لا يهتمون سوى باستيراد السيارات وماكينات الفليبرز، وآخر أنواع مساحيق الغسيل المعروضة على شاشة التليفزيون؟ وهنا؟ في هذا البناء الملعون الذي كرّس لخدمة الله، فمات العشرات من وراء سطوحه قنصا وتمزيقا. الإله؟ إنه لا يعلم إن كان موجود أم غير موجود. تناقش مع جورج طويلا حول المسألة. جورج ماركسي والموضوع محسوم لديه دون حاجة إلى جدل. الدين أفيون الشعوب يقول، وكفى. أما هو نفسه فكان يصدق حكاية الروح العليا، ولا صدقها في أحيان أخرى. يظن أحيانا أن هناك حنانا خفيا في الكون لا يمكن لقوة مرئية إنتاجه. وفي بعض الأوقات يصبه الهلع لشدة القسوة التي تميط اللثام عن نفسها في هذه الحياة. أيمكن أن يكون الإله شرسا وقاسيا إلى هذا الحد؟. كان عليه أن يركز على ما يوجد أمامه. على بلاط الكنيسة المربع ذي اللونين الأسود والأبيض التي وصل إلها الآن رغم سيول الرشاشات المنهمرة في الخارج. هو يذهب في الاتجاه الشمالي للغم

البناء، وجورج في الاتجاه الجنوبي.علي حين غرة لمح فريد مرميا في نهاية القاعة الكبرى، ففوجئ. كأنه لم يتوقع وجوده هنا على هذه الحال. كأنه نسي ما جرى وتوقع أن يرحب به فريد، ويعلامه على سيجارة. كل الأهوال التي واجهها حتى استطاع الوصول، ولم يخطر له أن يكون فريد على هذا الحال. زحف ليصله. المجال الآن مكشوف تماما. نوافذ الكنيسة تطل على الجهتين. فمن جهة تطل على الدكوانة من حيث تم التسلل، وتشرف من الناحية الأخرى على المدرسة التي يتمترسون في الطابق الأول منها. كل حركة داخل الكنيسة تظهر مرئية لديهم بعد أن كسر الزجاج ولم يبق منه إلاّ نتوءات ملتصقة بالإطارات الخشبية على شكل سكاكين ذات رؤوس حادة. عندما اقترب من فريد صار يزحف بصعوبة فوق الردم والخشب والزجاج المكسور تعثرت ركبته بشمعدان مسنن النهايات، وبفتات ورد اصطناعي تمزق نسيجه، واشتبك مع التراب والحصى المقشور الذي يفرش المكان. عاف رائحة جيفة تغلغلت في فتحتي أنفه، وسقطت على سقف الحلق. اقترب من فريد. شاهد رجله المصابة قبل أن يرى وجهه. وعرف من أين تنبعث الرائحة. تحت البنطلون الممزق بأن الجرح مثل فم كبير مفتوح. كان على المفصل مباشرة. الرجل منتفخة، والبشرة سوداء بلون الفحم. وفوق الجرح ينفل دود صغير. أما فريد، فقد كان يتنفس بصعوبة وبصوت أشبه بالشخير. لم يفتح عينيه المنسدلتين وكأنه لم ينتبه إلى ضجيج عملية الاقتحام. شده حسن لحجم

فريد المتضائل. كأن جسمه تكمش وتقلص وضغط تحت مدحلة رصف الطرق.

عندما كان يزحف ويجر بندقيته الكلاشن وراءه. لم يكن يخطر له سوى فريد الأصلي الذي يضحك ويصرخ ثينفث الدخان في وجوه الناس. ولولا أنه كان من الذين سمعوا صراخه وأنينه بعد إصابته لظن أنه سوف يلقاه بالأحضان والقبلات. انتبه إلى شيء اخر أثار شكوكه، فدفعه لأن يدقق النظر فيه قبل أن يحاول السؤال عنه. رأى أسلاكا رفيعة تحيط بالجسد المصاب وتلتف عليه. وآنذاك، فقط مسكته الرعشة في كل أرجاء جسمه. اصطكت أسنانه، حتى تهيأ له أنه سمع صوت اصطدامها ببعضها في قحف رأسه. كان فريد ملغوما تماما. الأسلاك المؤقتة التي تحيطه سوف تفجره إن لم ينزعها الذي جهزها بنفسه. لا أحد في العالم سوى المجرم الذي فخخه يستطيع أن يقدم له الخلاص. دبت الرجفة في جسد حسن. تطلع حوله، وأراد أن ينادي جورج الذي كان في نهاية القاعة يعاين الشرائط الممدودة حول قواعد الأعمدة الرخامية التي تحدد المذبح الذي يقدم عليه القربان. في الخارج، المعركة دائرة على أعنف ما يكون. تنبه الكمين الكتائبي إلى محاولة الاقتحام، وها هو يرمي بكل ما لديه من شراسة وغيظ كان جورج مديرا ظهره إليه وإلى فريد. مقرفصا يتفحص طبيعة وإمكانيات التفخيخ. يلوح من ورائه الأرغن الذي لم يعرف حسن جمال أنغامه إلا حين أسمعه أحد أساتذته الساكنين في رأس بيروت شريطا لباخ. طار عقله،

وانتشى آنذاك. وقال للاستاذ أنه لو كانت الظروف أفضل لدرس الموسيقى بدل التجارة وإدارة الأعمال. كأن أنغام الأرغن التي أطلقها باخ نازلة من السماء. لا يعرف إن كان بإمكان هذا الأرغن المحطم أن يعزف من جديد. قد لا يكون هذا ممكنا. الجماعة. جماعة الكنيسة منشغلون الآن بقتالنا. بيروت القديمة التي كانت تتحمل شاربي حليب وكالة الأونروا اختلفت، وعمال النظافة والمصانع لم يعودوا كما كانوا. المصالح تغيرت. والنفط وصل إلى هنا. والله نفسه سخطنا منذ أن صاروا يخافون منا. يظنون أننا سنستولي على البورصة الذهبية التي يملكونها. أي، شحار عليهم على رأي حسن. تنهد حسن إذ تذكر أمه، وطنت الأغنية بباله مرة أخرى. هل كان يتذكرها عن سابق قصد، كي لا يشم رائحة الجيف الخانقة التي تفوح حوله؟ تطلع إلى فريد. لم يكن فريد يرى شيئا. إنه لا يزال يتنفس، ولكنه أسير غيبوبته لا يعرف أحد نهايتها. ليت أنه أحضر معه شنطة الإسعاف الأولى فلربما استطاع أن ينظف له جرحه قبل أن يعود إلى جورج ليُقدّرا إن كان بالإمكان إخراجه وفك الأسلاك التي تحيطه. مد يده، ومسد جبين الجريح الذي انتفخت ملامح وجهه، فغيرته وجعلته لا يشبه نفسه. من يصدق أن هذا الكائن المصاب المطوي على الأرض هو فريد؟ ثم نزلت قذيفة على بعد متر عني. صرخت ثلاث مرات وفي المرة الرابعة لم يطلع صوتي. كانت شظية قد دخلت في رئتي. لا أستطيع التنفس ولا يسمعني أحد. أخذت بندقيتي ولا أدري كيف ركضت. كان

الدم ينزل من عيوني وأنا أقول جورج. جورج. لم أعد أرى. الدم ينزل من عيني. لاشك أنها شظية دخلت في عيني اليمنى. سمعت صوتا يصرخ: يا حسن. أردت أن أقتل نفسي إذا كان. إذا كانوا هم. ينادونني. يريدونني. وفريد المحدق إلى سماء الأورغ بعينيه المغمضتين. وجورج. وجورج حداد الذي لا يعرف اسمع سواي. أحمد العشي. لا أرى. الدماء غطت العينين. ولا أرى.

لم يلتفت جورج. وما كان بإمكانه أن يلتفت. حملته موجة الضغط وهوت به إلى تحت. إلى أضلاع الأورغ المحطمة. بعيدا عن النوافذ. يتصاعد منها دخان القذيفة مثل بخار حمام تركي. سحبت الضربة جورج من المذبح، وقذفت به إلى جسم الأورغ القابع مثل غوريللا هائلة. طارت الألحان من الأوتار، وعزفت في الفضاء كما لو أنها فرقة موسيقية فالتة من عقالها. خرجت ألحان طويلة مشبوكة ببعضها مثل عش الدبابير الهائج. زعقت القذيفة وصفرت في أذنه بعد انفجارها بحين. الصوت أمواج يتلو بعضه بعضا. وحسن؟ لم يلحق أن يتوازن ويسحب نفسه من مصيدة الأورغ حتى. لم يلحق أن ينفض ثيابه. أن ينظر هناك في الاتجاه الآخر حتى رأى. حسن. حبيبه حسن الذي كان يرعى فريد تمهيدا لإخراجه. حبيبه حسن. الدم يهبط على وجهه ويحجب عينيه. الدم يفور من صدره. ينهمر. مثل النافورة. يخرج ويسيل. يجب أن يخرجه في التو ركض إليه عدوا ووصله في جزء من الثانية. حسن دون صوت. لا يخرج الكلام من حنجرته.

إصابة بليغة. فريد مازال على حاله على الأرض. بنظرة واحدة، أدرك جورج المسألة. شاهد الأفخاخ المعلقة على جسد فريد الذي صارت تعلوه أكوام الغبار المائج والحصى الصغيرة المتساقطة بفعل الانفجار. هكذا. المهم إخراج حسن الآن بأية طريقة ممكنة. المهم حسن. لن ينسف الكنيسة لأنه لايريد أن ينسف فريد معها. يلعن أبوها على أبو أبوها. عواء الكلاب الذي دوى مع نشيج الأورغ هو الذي غطى على المصيبة التي حلّت بصديقه. ركض جورج حداد. حمل حسن على كتفيه. أسنده على ساعده، وجر نفسيهما معاً. وخلفهما ظل فريد النائم ـ الحي ـ الغائب. تحت أقواس الكنيسة المغطاة بوجوه القديسين الموشاة بالذهب. الأقواس العريضة البشعة المتينة التي لا يصير عليها شيء حتى لو مات تحتها آلاف الناس. مساقط الضوء التي تحوم فيها ذرات الغبار ممزوجة بالدماء. والأهم، فريد الذي يحتضر ويشتهي رؤية أمه، دار العالم بأكمله ولم يستطع. لم يكن هنالك وقت حتى للإحساس بالأشياء. المهم أن يخرج حسن من وكر الشؤم الذي لا ينتهي.

لم تشاهد أم جلال حسن لأنها وصلت حين كانوا يحملونه ويركضون به صوب مركز الرعاية الطبية. لم تفهم عليهم. ولم تعرف ما يجري. ظلت تجري وراءهم، إلى أن أدخلوه إلى الطبيب. كان وجهه مضرجاً بالدماء. لكنها عرفت ملابسه. كان الحشد ينادي على خزنة ويبحث عنها في العيادة والطبيب يهرع من غرفة العمليات لينجده. وأم جلال لم تفهم

ما المسألة. كل ما عرفت هو أن نذر الشر التي أحست بها قد تحققت أخيرا. ليس السيد الطائش الهائم على وجهه هو الصريع حسبما توقعت. ولكن حبة عينها زوج ابنتها البكر هرولت إلى بيت ابنتها وهي العاجزة عن الركض. لطمت على خدها طيلة الطريق دون أن تهتم بالقذائف النازلة مثل الشتاء. البكاء وحده يهمها. تعول وتبكي وتلطم على خذها. أطلت على غرفة الطابق السفلي التي يتجمع فيها سكان بناية أم حسن. لم تفكر في أحد كي يساعدها في إخبار ابنتها الحامل بالنبا. دب الصوت في عويل طويل وهي تحدق في ابنتها المصدومة من حالة أمها. هجمت عليها تحتضنها حتى كادت أن توقعها على الأرض بسبب عدم توازن جسدها المنفعل، وقالت:

ـ الله عليك. راح جوزك.

لم تفهم عائشة. تطلعت إلى أمها بتساؤل. ثم بنظرة أخرى فيها براءة عدم التصديق. ثم تغلغل داخلها النبأ. وصل إلى إدراكها. فضاق تنفسها، وعاوت النزول إلى الأرض حيث كانت جالسة. خرت بعدها مغشيا عليها. هجمت نساء الملجأ نحوها، يبكين ويصرخن في عويل جماعي. فيما تحاول بعضهن فتح قبة فستانها كي تستطيع التنفس. ومضت واحدة منهن إلى مطبخ بيتها صعودا رغم الدك المشتد، ونزلت بزجاجة ماء الزهر مع الكولونيا ترشها عليها. لم ينتبه سكان الملجأ إلى أم حسن التي دخلت في تلك اللحظة كي ترى سر

الهرج والمرج، بعد أن تركت فرنها الحديدي الذي تشتعل فيه بقايا الأبواب المخلعة إثر فقدان الغاز. لم تعرف. فقط. من نظراتهم. فرّقت الحشد الذي كف عن البكاء وساده الصمت عند دخولها. رأت كنتها مرمية فاقدة الوعي، وأم جلال قربها هابطة على الأرض مثل الجمل البارك. فهمت الأم الوضع بدقة شديدة دون استفسار

ـ يا كشلي على بختي الأسود.

صرخت. لم تقع على الأرض كما حدث مع المرأتين. عاودت التوجه إلى الباب. شقت الحشد بيدها، واندفعت رغم تشبث النساء بها خوفا من هول الصدمة الدامية. ركضت. طارت بحذائها البلاستيكي وجواربها الرجالية وساقيها الرفيعتين مع غدفتها البيضاء إلى مركز الرعاية الطبية. شدة الكارثة جمدت دمعتها لتصير مثل كرة الصقيع التي تهبط على قلبها. تشكه بدبابيس هي أصل العلة القلبية التي أصابتها فيما بعد. نشف دمها، واندفع السم في فقرات ظهرها. وهبت نارها منذ تلك اللحظة وإلى أبد الآبدين.

هول المأساة. الهول. الحزن جننها. أشعل نارها السابقة باضطرام لم يسبق له مثيل. في ذلك الليل المظلم شقت أم حسن ثوبها وبكت لله وتوسلت أمام الجميع. لم يعش حسن حتى يراها. الشظية القاتلة شقت صدره بما يتسع لإدخال أصبع كما وصفت أم جلال. إصابته تلك صارت موتا بلا حدود. الحزن والخيبة والانكفاء بعيدا عن الأمل. ولولت أم

حسن. شقت نسيج ثوبها وفتحت صدرها على وسعه، كي يرى الإله كيف سمح بأن يسحقها هذا الظلم. لم يتطلع صوبها أحد رغم أنها ظلت تندب ساعة أمام مركز الرعاية الصحية وهي تدور بخطوات كئيبة مخذولة. لم ينظر الناس إليها لأنهم اقتنعوا بأن من حقها مخاطبة الله هكذا، تقول له:

يا ربي، يَتمتني أنا العبدة التي تحملت عذابك دائما بصبر طويل. فرطت حبة الرمان الأخيرة التي كنت أحسبها لي. كسرت ظهري. عانينا كثير. يا ربي. أكلنا عدس بعدس. ولم نقل شيئا. خبز! ما في غير اللقمة التي نقدمها للمقاتلين قبل أنفسنا. ماء؟ ليس لدينا حتى ما نبل به رمقنا. لا غاز ولا كاز. خبزنا على حطب البيوت المهدمة، والأبواب المخلعة. وقبلنا. مقابل كأس الماء اللي نشربها هناك كأس دم ممن أحضرها. الصبح عدس، والظهر عدس. والمساء عدس، وقبلنا. وتحملنا. لشعو بدك تكسر ضهرنا. شو عملنالك؟ هالزلمة الكبير صار يدخن ورق عنب وخروع ناشف، وما حكينا. قلنا فِدا هالهَمّ اللي إحنا فيه. ليش ما بتعمل باعدائنا اللي بتعمله فينا؟ وإلا همن عندك ولاد الست واحنا أولاد الجارية؟ كله ورضينا. لشو داير ورانا؟ ضربت أم حسن على وجهها وأعولت: راح ظهري. ومشيت بعدها مع حشد النساء اللواتي التممن حولها وهن يعولن وراءها ويبكين. تنادين:

ـ المسخمة! فقدت ابنها. هو الذي ما له بخت لا يتعب ولا يشقى. الذي فقد ولده فقد سعده.

مع طلوع الضوء توجهت مجموعة من المليشيا صوب الشارع المؤدي إلى بيت مري. طلاب أو رجال عاديون لا يعرفهم أحد. لم يبرزوا بأية أدوار خاصة أو مميزة على المحاور ومع هذا، فإن الجمر يشتعل في خواصرهم فلا يستطيعون أن يبيتوا دون أن يفعلوا شيئا. لم يكن بإمكانهم سوى الدفاع طيلة الوقت. فبعد معركة حرش ثابت اكتشف المخيم أنه لن يستطيع شيئا سوى الدفاع. أما هؤلاء الرجال فقد صمموا على الهجوم ولو لمرة واحدة كي لا يضيع استشهاد حسن هباء. انضم إليهم أبو مازن الكهل الذي قصف مطبخ بيته فصالحتهم أم حسن، وصارت تعاملهم كما لو كانوا من أهل بيتها منذ ذلك الحين. لم يكن يمتلك سلاحا. حمل مذراته الزراعية ومشى. ذهب معهم عامل في مصنع الشكولاته قتل الكتائبيون أخاه، وشاب آخر من المتطوعين أخذ الرفص والمعول معه لأنه لا يمتلك ذخيرة كافية. ومعهم ذهب أبو الوليد خبير التفجير وصديق فريد الذي اعتزل المهنة بسبب يده المقطوعة. ويعتبر من أنشط الرجال في شؤون التموين والتذخير. كانوا يعرفون من أقوال الدليل أن سيارات عسكرية للأعداء تذهب إلى مواقع الجبل مع الفجر نصبوا كيمنا، حمل عامل الشكولاته صاروخ الأر بي جي. الذي لم يستخدمه في السابق أثناء التدريب واستعد. مرت سيارة لاندروفر فاتحة الصاروخ نحوها مفجرا فيها النيران. وبالمذراة والرفص والمعول استعد الثلاثة الباقين تحسبا للقضاء على من في السيارة التي لم يخرج منها أحد. خلال لحظات، أرشدهم أبو

الوليد إلى كيفية تركيب الألغام في الشارع. زرعوا واحدا على طريق ترابي وآخر تحت كومة قمامة عالية. لم يكن لديهم الوقت الكافي للحفر. فزرعوا الثالث على الطريق الذي تسلكه الدبابات صعودا إلى تل الزعتر. عندما كانوا يستديرون على طرق الرجوع كان الواحد فيهم يحس أنه لو مات بعد اليوم فسوف يقضي هادئ البال. خلفهم، وعندما كانوا يعاودون التسلل إلى التل، انفجر اللغم الأول تحت شاحنة. الثاني تحت شيفروليه مارة. والثالث، انتظروا ساعة ولم يسمعوا شيئا، فعادوا.

في الملجأ البعيد قرب بناية بوتاجي الواقفة بالكاد في مكانها لشدة القذائف التي نالت منها، كانت زينب وأولادها صحبة آمنة. دب السعال والشهقات حيث يتجمع الناس بسبب احتراق المواد البلاستيكية في معمل بوتاجي. قصف المعمل بالقذائف الفسفورية الحارقة. فدخل الدخان والغبار إلى أعين الناس وفتحات أنوفهم. كان أسوأ ما في الأمر تركز القصف على أعمدة البناية التي تختبئ فيها قرابة الخمسمائة نسمة. الطامة الكبرى التي أحسن زينب وآمنة باقترابها كانت تعذر الوصول إلى مصدر المياه بسبب القصف الذي لم يعد يتوقف. جميع أهل الملجأ لم يستطيعوا الخروج لجلب الماء أيضا. هنا، اضطر الجميع للأخذ بالحل الوحيد الممكن، وهو قحط المياه الوسخة المتجمعة، المتخلفة عن مطر الشتاء ضمن أرض

الملجأ. وبمغامرة جنونية أخرى، وصل أحد السكان إلى بئر مجاورة أخرج منها كمية من الماء مليئة بالدود والدماء. أغلق الجميع أجفانهم وأنوفهم وهم يشربون من المياه الوحيدة المتوفرة. كان لدى زينب أربعة أولاد: سمير وسميرة، وعبير ذات الثلاث سنوات ونسرين وعمرها سنتان. سميرة كانت في حدود العاشرة وسمير في التاسعة. أما زينب التي كانت أم حسن لا تتعب من التذمر من مشاكلها إبان الحياة اليومية السابقة، فقد كانت اقرب إلى الثلاثين. لم تكن حماتها ترتاح إلى عينيها العسليتين ومظهرها الصامت الموحي بالاستكانة واللؤم معا. كان واضحا للجميع أن صداقة زينب وامنة قائمة على نوع من التواطؤ المشترك مقابل بقية العائلة. أما والمدفعية المباشرة تركز نيرانها على منطقة الملجأ إثر احتراق المصنع، فقد تمثل الهلاك الأكبر لزينب في النبأ الذي وصلهم عن استشهاد حسن. لم يكن هناك مناص من ذهاب آمنة إلى بيتهم كي تشارك في تشييع الشهيد الجديد في العائلة، وأن تبقى زينب مع أولادها الذين لم يكن بالمستطاع تركهم وحيدين، أو المغامرة بخروجهم في هذا الوقت الذي تهبط فيه قذائف تتواقت مع عقرب الثواني.

ذهبت آمنة كما كان يفترض بها أن تفعل. قطعت الطريق وروحها على كفها، وشعل اللهيب تتأجج وراءها، وأكوام الأنقاض تتكاثر حتى توشك أن تسد الطرقات أمامها. والهدم يتواصل، والردم يزداد حتى لتظن نفسها ضاعت في مكان مجهول لشدة الهول الذي يواجه كل من يعبر شارعا إلى

شارع، أو مكانا إلى آخر لم يكن عبوره يحتمل دقائق قبل الحصار. عبرت آمنة إلى أهلها قاتلة أم قاتلة كما وصفت الحال لأمها المذهولة. كل ما شاهدته في طريقها لم يصدمها مثلما فعلت بها رؤية السيد. فالرجل الذي كان معرما، قادرا، تحول إلى خرقة قماش لكثرة ما بكى، حتى فاق عويله بكاء النسوة أحيانا وعويلهن. صار كالأعمى. وغابت عن ملامحه تماما تلك الهيبة الفخمة المنبعثة من قوته البدنية وقسوته العارمة. لا أحد يصدق أن هذا الرجل هو السيد. تجعدت وجنتاه، تدلى فكاه وسقطت بعض أسنانه الأمامية إثر ارتطام ما. نحل السيد وصار كالخيال. ظل مشدودها طيلة الوقت وهم يتدارسون أمر الجنازة. لم يتحرك من مكانه الذي التصق به، حتى حلفت أم جلال فيما بعد بأنها شاهدت تحت رأسه المنحني بركة من دموعه.

خاطر السيد وذهب مع عائشة وأم جلال وأم حسن إلى منطقة الخروبي حيث توجد قطعة أرض استخدمت كمقبرة عسكرية. الآخرون جميعا لم يكن بإمكانهم التحرك لسبب أو آخر بقيت آمنة مع أبيها الذي أوشك أن يصاب بأزمة ارتفاع ضغط الدم القاتل. ظل جورج على محوره مع الشباب. التزمت خزنة باستنفار مركز الرعاية الصحية الذي صار واردا أمر نقل مرضاه إلى أماكن متفرقة أخرى بسبب تعرضه لقصف قصدي مركز. حمل السيد الرفش والمعول وانطلق مع الركب الحزين الذي مد كل واحد فيهم ساعده إلى الأعلى ليساعده في حمل درفة الخزانة الخشبية التي تمدد حسن

فوقها. كان الحمل ثقيلا جدًا. حتى أن أم جلال أرجعت ثقل جسد حسن إلى كونه لا يريد مغادرة الدنيا. كان الصمت والعجز عن البكاء يشقان صدر أم حسن وكأنها فوجئت بهذا الاحتمال، فازداد ذهولها. ثقل لسانها وما عاد بإمكانها الا أن تطلق آهة شكوى طويلة إلى الإله الذي تجاهلها ولم يستجب لتوسلاتها ليل نهار كانت ليلة مقمرة تشبه الليلة الأخيرة التي تمنى حسن لو يعيشها ليعرف بقية أغنية فيروز التي تردد في صدره طويلا قبل إصابته. ضوء القمر هو صوت فيروز وأغنيتها الغامضة تلك كانت تحوم هنا وهناك فوق الحشد الصغير الذي يتسلق الهضبة صعودا إلى الخروبي. فكرت عائشة للمرة الأولى أنها صارت تشبه تلك الفتاة ذات الجديلتين التي ترتدي الأسود وتقف على مفترقات الطرق سائلة العابرين عن حبيب لا تعرفه. لو عاش حسن فلربما صار يوما حبيبها. لو عاش! فلربما كف الفقدان الدائم للأشياء عن ملاحقتها. لم تعد تعرف في الكون سواه. أخذها من أهلها. حرمها حتى من شعور الكراهية تجاههم. من أحلامها القديمة بذلك الرجل الآخر الذي خطب هناء ولم يسأل عنها. أخذها من نفسها التي كانت تريد أن تكرهه ولم تفلح في هذا. فماذا بقي لها؟. لم يتبق لها سوى الثوب الأسود الذي سترتديه طوال عمرها، وهذه النبضات الضعيفة على جدران بطنها لجنين يعنيها أمره بعد أن قضى أبوه. كان ضوء القمر، وكانت شجرة تين على رأس الهضبة التي اختارها السيد ودموعه تتساقط حزنا على المصير الذي قسر ابنته عليه رغما عنها.

تحولت قساوته القديمة إلى حنان لم يعرفه طيلة عمره. كان قد أجرى استفسارات عديدة حول الموقع الأنسب للدفن فعلم أن البيت ذا الطابق الأول الذي دفن فيه العديد من الجثث ضاقت أرضه التي خلعت بلاطاتها ولم يعد فيه متسع لآخرين.

مازال حسن بثيابه العسكرية. أراد جورج نزعها عنه، لكن الشباب رفضوا. قالوا: هذا شهيد. اتركوه بالثياب التي يرتديها فسيذهب بها إلى الجنة إن لم تكن محرمة علينا مثل جميع الأراضي الأخرى التي حُرمنا من دخولها. أنزلوا اللوح الخشبي المستطيل الذي يحملونه تحت الشجرة التي بدت مثل شبح في ضوء القمر الكابي. التمعت أسهم وكشافات ضوئية أثناء وقوفهم قرب الحفرة التي قام السيد بإعدادها. أحضر من الأرض المجاورة قطعة ورق كرتونية ملقاة. وثبتها فوق جذع التينة تدلهم على مكان الدفن كي يستطيعوا الاهتداء إلى قبر حسن فيما بعد. ربما حين تنتهي الحرب، ويتدخل طرف ما في الأرض أو في السماء لإقناع الكتائب وبقية الانعزاليين بفك الحصار عن المخيم. وحينما تلا الجميع الفاتحة على قبر الشهيد، فرط السيد في البكاء من جديد، وهو يحتضن ابنته أثناء رجوعهم. قطع عهدا لم يشهد عليه أحد سوى أم جلال التي أكملت الطريق معه بعد أن أودعا أم حسن وعائشة أمام بيت الطابق السفلي. قال السيد إنه نذر أن يكف عن الشرب نهائيا، وأنه أيضا سوف يكرس بقية حياته لرعاية حفيده اليتيم. وأجهش في البكاء أمام الفكرة التي داهمته. أن يولد له حفيد يتيم لا يعرف له أبا.

(١٣)

الماء فرجة العطشان ومنية القلب. صارت خزنة مضطرة لترك العمل والذهاب إلى ماسورة المياه. تحجل وهي تجر قدمها اليسرى الثقيلة خلفها. لم يعد هناك مياه كافية للجرحى في المركز الطبي. ولا يمكن سلق العدس واعداده دون ماء أصلا. تذهب في الليل أو مطلع الصبح، وتنتظر داخل الأطلال مع غيرها من الفتيات المتطوعات. رأسها يدور، والرؤية تلتف أمام عينيها لسبب لا تعرفه. أهو فرط الإجهاد كما خبّرها الطبيب أم انشدادها لأفعال الممرض الجديد الذي تكشفت يداه عن قدرات خارقة. الياس الدوغاني الذي كان يعمل سائق عربة إسعاف، يقطن تجمّعا لبنانيا قريبا من المخيم، ظل عندهم. ترك عربة الإسعاف التي لم تعد تعمل، وسحب بطارياتها لتشغيل جهاز اللاسلكي. ظل الياس اللبناني يقوم بمهمات يعجز عن أدائها فريق كامل من الممرضين. تجرأ في الأيام الأخيرة على إجراء عمليات جراحية صعبة

شهد له الطبيب بنجاحها وكفاءتها. ذلك الرجل الذي لا يعجز عن شيء مهما تعقدت الأمور وبكى غيره أو اشتكى. صارت خزنة تحب مرافقته في عمله. تمسك له الجرحى كي يتحركوا أثناء تقطيب جروحهم دون مخدر. يروي النكات ويغطس في المزاح مع الجميع، وكأن نجاحه غير المتوقع في الأداء الطبي العويص أدخله في حالة من النشوة الخارقة، ينظر إلى خزنة بخبث قائلا: عمتي، يا عمتي. ويغمزها بتواطؤ معلن. وخزنة تفرح. تزداد اعتزازا وتجليا. فها هو الياس يعاملها على انها شريكته في اجتراح المعجزات. أدخل الياس فوضاه إلى عالمها فصارت تسرح على حين غرة. أنها كانت لا تني تتقدم بثبات في استيعاب ضرورات عملها الاسعافي وتطبيقه. سألته مرة بسذاجة:

شو! إنت متجَوز

فأشار إلى لمعة خاتم الخطبة الذي يبرق في أصبعه قائلا:

- ولكْ تكرم عينك. والله أرميها في الشارع كرمى لك. استني علي. بس تخلَص الحرب.

يناوشها بخفة دمه. فتضحك دون أن تصدقه. وتشعر صوبه بامتنان عميق. فها هو أخيرا من يأتي إبان جنون القصف والضرب كي يمازحها. ينظر في عينيها الصغيرتين بمودة فائقة وكأنه يعرفها منذ الأزل. يعطيها الثقة المفقودة في نفسها، فتشعر بأن الظروف! لولا الظروف لكان بإمكانها أن

تدرس التمريض وتحمل شهادة تسمح لها بالعمل فيما بعد في مستشفى حقيقي. في عز المأساة أراد أن يبتدع طرفة يسلي بها الناس المتعبين من حوله. ذهب إلى أكياس رمل المتاريس التي تحمي مدخل المركز وزرع فيها حبوب فاصولياء وفول وحمص. نبتت، وصارت تحفة النظر لأنها مزرعة إلياس المتنقلة، ومركزه الغذائي لخدمة حاجات الناس أربعا وعشرين ساعة وساعة. كان يسحب الجذور الخضراء النابتة ويناول واحدا منها إلى جريح يائس يلفظ أنفاسه الأخيرة، يدعوه إلى مضغها معددا مزاياها وكثافة الفيتامينات فيها، مرددا جميع الحكم التي وردت في كتاب جنبلاط عن التغذية، إلى أن يشعر المريض بأنه على وشك تناول نبتة الحياة، أو يلتقط خيط اللعبة ويغطس في الهذر والهرج الضاحك مع الممرض الطيب. حرصت خزنة على الاستفسار من إلياس تدريجيا عن سوابق حياته اليومية في الماضي، تحسبا منها واستعدادا لإكمال العمل معه في مكان ما في المستقبل. وهو، وعدها من جانبه بأن لا يقصر في إثارة المشاكل والشرور اللازمة التي تكفل تعيينها مساعدة له في أي موقع يكون فيه، قال:

والله الخطيبة ونكبها في جهنم علشانك. ما في شي بيعَز عليكِ. المهم رضاك علينا.

وقهقه معظم من كان حاضرا من المرضى آنذاك لشدة المفارقة التي يعرفونها جيدا. الياس خطيب فتاة خلابة الجمال

تعززت على الكثيرين قبل أن تقبله. وخزنة؟ هل يمكن لأحد التفكير في خزنة أصلا لو لم يكن يجيد فن الهزء والمزاح أصلا. إلا خزنة وحدها التي كانت في منتهى الجدية، ولم تتأذ من ضحكاتهم التي تعرف مبعثها جيدا. نعم. صارت تناديه "المعلم" وهو طرب للقب وصار يكرره إلى أن صار شائعا. لا يناديه أحد باسمه إلا مسبوقا بلقب المعلم. وظل الياس معلمها حتى حين صارت تقضي معظم وقتها في جلب الماء بسبب تضاؤل أعمال الإسعاف ونقص الدواء أو انعدامه تقريبا.

تلك الحادثة التي وقعت مع خزنة لم تكن شيئا جللا حسبما علقت أم جلال حينما سمعتها تحكي لالياس أنها كانت عائدة في الليل مع بعض المسعفات المتطوعات، وهن يحملن على رؤوسهن تنكات المياه، قالت خزنة:

نزلت قذيفة على بعد مترين. نجونا بأعجوبة لأن سطح الدار التي نمشي قربها حمانا أسرع الأخوات في المشي. قلت تمهلوا. خلينا مع بعض. ما كنت قادرة أسرع مثلهن. جريت رجلي، وحاولت ألحقهن، صاروا على بعد عشرة أمتار مني، صرت أركض وأقول: يا جماعة استنوني. مشان الله، خففوا سرعتكن. وما حدا سامع. والا هالقذيفة بتنزل في وسطهن. سمعت صراخهن وأنا متخبية في مدخل بيت مهدوم. يا ويلي على المنظر ما أبشعه. ما إنت عارف. ما عاشت ولا واحدة منهن بعدين. لما رحت كان معي تنكة

بتاخذ تلاتين ليتر من شدة القصف وقوته طارت عن راسي. فتشت عليها كانت قريبة مني. بعد ثانية واحدة، بعد ما انتبهت على ما حصل مع الأخوات، إلتفت، كانت التنكة مفتتة قطع صغيرة.

أم جلال كانت تروي ما حدث معها بصوت متهدج، فيبدو الشيب النازل من صدغيها كالرماد المتخلف عن الحرائق. هكذا رآها الممرض الطبيب وهي تتدخل في الحديث، لتسكت خزنة وتحكي هي، أثناء إسعاف يد فتاة مصابة بقذيفة منثارية أطارت الجلد، ومزقت العضلات

والله يا خزنة كل ما تحكيه كوم وهذا كوم. تصدقي أني ظليت تلات أيام وأنا أنزل عالمي، كل يوم.كل يوم. وما أجيب معي شيء. ومن وين يا حسرة!؟ ومن وين البخت للحزينة والا بنتها؟ شفتي شو صار مع عايشة المسخمة ! الحكي مش مثل الشوف. المهم. يومين.في الأول. وأنا أستنى للفجر بين الزواريب والزُقق التي تصفر القذائف فيها. وعلِمك على خالتك! أقول: والله بتحمّل كل شيء، حتى أجيب شوية مي لهالجرحى المشحّرين. أتاريتها بنتي الكلبة ابتسام لاحقاني وأنا مش عارفة إلا لمن دخلت البستان. تركنا الماسورة على وجه الصبح ورحنا نركض للبستان مع الفجر وطبعا بنت اللي هي بنته لا حقتني، كأني أرضعتها. أخبرها :استحي على حالك. روحي انضبّي مع أختك الكبيرة. وهي مش سائلة. قال بدها تساعدني بحمل المي. قلتلها : ما

بيكفي إنكْ لن تطولي من كثر ما حملتِ جالونات مي. هـي إنتِ والقزم واحد. مين يقبل يتجوزك في المستقبل إذا بقيت مقدوعة؟ والله. بعيد عنكم الحيوانة ما سمعت مني. لأن معاشرة أخوها حسام عملتها "حسن صبي قصر الحكي. دخلنا البستان.ما كان فيه ناس كثير رجالين، وخمس نسوان. وخذوا يا ضرب ! ضرب متل جنون السما بتمطر نار علينا. إنتشرنا كلنا تحت الشجر لكن القناصين كانوا شايفينا، ومصوّبين علينا، قصر الكلام.. انحشرنا في البستان. وما عاد فينا نطلع منه. لكن على غفلة هدي الضرب. قلنا عالقليلة نعبي نقطة مي قبل ما نمشي. واحد من الرجال قرب على البير عشان يعبي. وإلا طلقة القناص في قلبه. وقع الرجّال في البير على وجهَه طِب. أجى زميله، زحف وحاول يشيله.

المسكين الذي وقع في البير لا حياة لمن تنادي. مد صاحبه حاله، وإلا قنصوه في كتفه ورجله. والله، بقينا ست ساعات مش مسترجيين نتحرك عشان القمر طالع، وما عاد فينا نتنفس. وهاي، بنتي ابتسام تبكي كل شوي. وأنا أسكتها وأقول لها: بس يا بنت. هلأ بيسمعونا. وعلى وجه الصبح، لولا الفدائية ساعدونا نزحف من دون ما يشوفونا العدا، ودلّونا عالطريق، وإلا كان أنا والخمس نسوان بعدنا هناك.

صمتت أم جلال بغتة، وكأن شيئا عنّ على بالها. كأن كل ما روته لم يكن ما تريد أن تحكيه حقا. تود لو استطاعت أن تنفس عن حسرتها وغمّها بعدما جرى لعائشة وعريس

الثلاثة أشهر. وتستحي.لا تعرف ماذا تقول. الناس تموت ليلى نهار. الحياة هي الاستثناء، والموت هو القاعدة. في ذلك الطابق السفلي، كانت عائشة من جديد تنازع الطفل الرضيع علّه يقبل رشفة شاي محلى بالسكر، والطفل يشد على شفتيه اللتين اعتراهما بياض طباشيري. يطبقهما بعناد استمده من الاعتلال الذي حاق به فلم يترك له طاقة يغالب بها ذبول الحياة. رغم جفنيها المنتفخين دمعا،ركزت عائشة اهتمامها على الكتلة الصغيرة الفاقدة الحيل. ربما لو استطاع هذا الطفل النجاة فستتغير الحياة المرعبة إلى الأفضل قليلا. بدا أن جورجيت فقدت الأمل نهائيا بإمكانية تحسنه، فتركته في حضن عائشة، وأسندت رأسها إلى حائط الغرفة ورائها. في السابق لم يكن أحد يستطيع اكتساب سنتمترات جديدة في المكان المكتظ. كان من الصعب النوم، بل ومجرد الجلوس المريح. أما الآن، ونظرا لحال الطفل الذي بدا وكأنه على وشك الاحتضار، وبسبب من ترمل عائشة، فإن الجميع ضغطوا على أنفسهم، وأفسحوا مكانا أوسع للفتاتين. بذلت عائشة كل ما في وسعها مع الطفل الذي استكان وما عاد يصرخ أو يبكي كما فعل في أيامه الأولى. صار يكتفي بنهنهات خافتة هي أقرب للزفرات أو الشهقات المتقطعة.لم يقبل الطفل. ظل مغلق الفم، مسدل الرموش وكأنه دخل في طور الغيبوبة وفقدان الوعي.

إنه حر الصيف الخانق مع رطوبة بيروت.فكرت عائشة وهي تخشى أن يكتشف من حولها ما هي رغبة عمرها في

تلك اللحظة. لو استطاعت فلن تطلب ما يتوقعه الناس. لن تطلب أن يمد الله في عمرها أو يرجع لها زوجها حسن. ستطلب فقط لحظة واحدة تخرج بها إلى شاطئ البحر مع هذا الرضيع. تعرضه للهواء المنعش. تضعه في النسيم. تقدم له جرعة واحدة من الهواء الذي يبدو أن انعدامه في هذا المكان قد أدى به لأن يدخل في دور الاحتضار يالله البحر الأزرق! بدأت ذاكرتها تنسى الألوان. تضمحل. تفقد كل ما يمت إلى الطبيعة في الخارج. تحلم في الليل بالوهج. ترى كثبان الرمل الكبريتية الصفراء التي تتجرف صوبها. الشفق الغروبي الناري يريد أن يحرقها. الوهج. الشفق. البارود يشتعل قريبا منها ويوشك أن يلتهمها. لا ترى! سوى، كتلة الوهج تتدلع في طريقها. الوهج! تعمي اشعاعاته العين. تبرق بالسم الشعاعي للقذائف الحارقة. أرادت أن تحلم بالبحر منذ شهر ظلت تتمنى لو استطاعت أن تجلب الأزرق إلى مناماتها.تنظر إلى لهب البريموس والنساء يقلين عجين العدس ويصنعنه أقراصا. لكنها تنسى أن تتذكر الأزرق البحري البارد الذي تريده. لا شيء إلا الموت والملابس السوداء مع الوهج. تريد أن تخرج إلى الشاطئ مع هذا الرضيع. هكذا ظلت تخبر نفسها كلما أغمضت عينيها. كلما استطاعت أن تطبق الجفنين. كلما أرادت أن تغفو داخل بكائها. لكنها لم تر شيئا غير هذا الوهج. غير هذا الاحتضار.

لم تواصل أم حسن العويل. كان الحزن حجارة تتقلب في حلقها وهي تخبز للشباب، تجر نفسها رغما عنها، وكأنها

تشيل على ظهرها ثقل أكوام الطحين التي تخبزها. زمان، قبل استشهاد حسن كانت تقفز وتركض وتنط حتى ليخال من يرى ظهرها دون أن يلمح وجهها أنها لا زالت صبية في أوائل العمر. لم يبن عمرها الحقيقي إلاّ الآن، وفي ظل كارثتها الجديدة التي لن تعرف أبدا أن تتجاوزها كما فعلت في مرة سابقة. تظل تشحط نفسها، وهي تعجن وتدير النار التي تشتعل ببقايا درفات النوافذ والأبواب والملابس أو الأثاث. بين الحين والحين تسحب دكة المطاط التي تزنر خصرها، تشدها. وتمد يدها إلى أنفها تمسح إنهمار دمع خفي تتعامل معه وكأنه مخاط اعتيادي. مجرد نقاط تسح على ذقن امرأة تجيد الاحتماء بكبريائها. تخاطب حسن بينها وبين نفسها

وينك يا حسن بعْدك نايم؟ الله يرحم التراب الذي حطْ على روحك يا حبيبي. شايف! وحياة الله اني لا أشوف غير صورتك. ناري عليك، وعلى شبابك.

في ذلك اليوم القانط من نهاية شهر تموز، خطر لأمنة أنه قد مضى أكثر من عام على هذه المأساة. كانت تهرول عائدة إلى الملجأ الذي يأوي زينب وأولادها وفي نيتها عمل خناقة مع زوجة أخيها. سوف تحمل الأولاد وتأخذهم إلى ملجأ الطابق السفلي كي تظل قرب أهلها بعد فاجعة استشهاد حسن. ليس لأحد الحق في أن يبقيها بعيدة عن أهلها في هذه الظروف العسيرة. ستجادل زينب وترغمها على أن تحمل أولادها

الأربعة، وأن تذهب معها إلى أمها العجوز كي لا تزيد من غم العائلة وهمومها. الست زينب ! السيدة المحترمة زينب. الأفندية العزيزة، يجب أن تفهم. أن تدرك. وأن تحس مع العائلة. لا تستطيع آمنة أن تفطن لم سايرتها طويلا في مسألة استقلاليتها. هذا غير مهم الآن. الحجّة أم الشهيدين فايز وحسن أولى بالعناية رغما عن زينب. ستجرها والأولاد إلى البيت غصبا عن السماء ذاتها. أتظن أنها "الست زينب أم "الملكة نازلي وسخرت منها بينها وبين نفسها. لا يحق لها انتزاع أطفال العائلة وإبقاء آمنة إلى جانبها في هذه الظروف الرهيبة فقط لكي تهرب من حماتها. التهب في قلب آمنة تأنيب ضمير من نوع جديد. لكم ساعدت هذه المرأة على الهزء من أمها. والآن ؟ إنها لن تتحملها دقيقة واحدة بعد الآن. لن. لن. سوف تجعلها تدرك أن هناك آخرين تؤسف أحوالهم القلب والوجدان. سوف. وأغمد سيف لم تتوقعه في قلبها قد يموت علي سامر في الغد فتصير مثلها. مثل زينب المفعمة بالمرارة. أو عائشة الهبلة التي ظلت تتدلع منذ اليوم الأول لزواجها وحتى يوم استشهاد حسن.أتصير مثلهما وهي التي ظنت دائما أنها أفضل منهما. لا لسبب واضح، إنما لأنها ابنة أم حسن. تنبهت وهي تتعثر بحجارة الركام إلى مسألة مشابهتها مع أمها. لم تعرف أبدا قبل هذا الوقت أنها تكن احتراما فائقا لأميا.لم ترد عليها، ولا تصغي لوامرها، وتظل سادرة في إهمال نصائحها. والآن، تكتشف وسط هذا الجحيم المنهال عليها من البارود والشظايا المتطايرة التي تهددها أن

السبب الوحيد لاعتزازها الزائد بمصيرها المختلف هو أنها ابنة امرأة قوية ربيب بين البيادر وحقول الزيتون، وتعود يداها على شقاء العمل منذ نعومة أظافرها.لكن، من يضمن أن لا يموت في الغد علي سامر، الطويل العريض صاحب الشاربين الصالحين لوقوف صقر عليهما. ظل يعجبها منذ المرة الأولى التي رأته فيها. استجمعت جرأتها وفتشت عليه قريبا من نبع الموت الذي يقف قربه جمع خائف. شاهدته مرات عديدة منذ ذلك الحين، ولم تصدق أنها استطاعت أن تركز نظراتها في عينيه لتشعره أنها تحبه، ومهتمة به في عز القصف. في عز الموت والنسيان. نعم. ينساها. من الذي يضمن أن رجلا مشغولا بمقارعة الموت والأعداء لن ينساها في اللحظة التالية. من لكنها فعلت ما ارتاح له قلبها القاسي على رأي أمها. أم حسن تقول أن قلبها أقسى دماغها، وأن هذا سوف يجر عليها الكوارث في يوم ما نظرت اليه مليا، واستدارت لتنظر إليه بعدما كان عليها المغادرة رغم فزعها من إصابة غادرة ينالها معظم من ينزلون إلى ماسورة المياه. تحبه، وتريد أن توصل له هذا، وعليه هو أن يفهم وأن لا ينساها عندما تنتهي الحرب اللعينة، إن كانت سوف تنتهي.

رأت آمنة نفسها فيما يرى النائم روحه، وهي تسير داخل ممر من الغيم البني الدخاني. رأت آمنة جسمها وهو يجتاز حقولا من فتات الأحجار والصخور المطحونة والأنسجة القماشية المتطايرة في الهواء. رأت آمنة كما يرى النائم نفسه

وكأنها تعبر مجالا حراريا لا يحتمله الإنسان، العرق الغزير يسيل منها. يتساقط على جبهتها، على كتفها، وتحت إبطها. مسحوق جبصيني، أو أنه يشبه الكلس الأبيض المستعمل في طلاء البيوت. يلتصق بشعرها تكاثف الغيوم. ثم انفسحت عما آن الأوان لآمنة أن تدركه. الملجأ. الساقط. المنهدم. المقصوف. الذي لم يعد بدا في مطرحه. لم يبق في المكان ذاته. شيء لا يصدقه عقل لكن جموع الناس المصدوميين. أفواجهم المصعوقة. أصوات عويلهم المختلطة بالأنين المبحوح المنطلق من الملجأ، أقنعتها بل وأجبرتها على أن ترى الذي يصير توجهت إلى رجل كان يحمل رفشا، ثم يلقي به، ويرمي بنفسه على بقايا الأنقاض ليحفر بقبضتيه. لم تفهم منه إلا أن القذائف التي أشعلت المواد البلاستيكية في معمل بوتاجي صدعت جدران البناية المجاورة التي يقع عليها الملجأ في سردابها. واصل الأعداء قصف المبنى المؤلف من خمسة طوابق. ظلوا يركزون على العواميد المكشوفة التي تحمل البناية لأيام متتالية، حتى تصدعت ووقعت. وانهار سقف الطابق التحتي على جميع من في الأسفل، وأغلق الباب عليهم. لا تهدم كل شيء عليهم ولم يعد هناك باب، أو منفس. الرجل كان يبكي، يصرخ، يصيح. يضيع عياطه وسط موج الأصوات المعولة المتلاحقة التي تتصاعد من تحت الأرض المحروثة ومن فوقها حيث يقف أناس يتراكضون هنا وهناك، حاملين فؤوسا لن تجدي في إزاحة أنقاض خمسة طوابق ساقطة فوق الملجأ الذي اختفى بابه تماما في تلك اللحظة

اختلطت في صدر آمنة مشاعر شتى. فمن ارتباكها الداخلي المروع لأنها لم تكن مع أولاد فايز ساعة وقوع الكارثة. الى إحساس شيطاني غير مفهوم بالشماتة تجاه امرأة أخيها التي رفضت باصرار الانتقال إلى حيث أهل زوجها، مع أنها كانت تعرف تماما أنها هي نفسها وليس غيرها من ساعدها على تنفيذ قرارها هذا في قمة التشويش الذي احتلها من رأسها إلى أخمص قدميها، غزاها شعور مثير كانت تعرف حقارته تماما، لأن زوجة فايز سوف تختفي من هذا العالم وتريحها من كل هذه الأعباء التي لم تعهدها سابقا. كأنها هي التي أنجبت أولادا أربعة أمهم مصمودة في الملجأ، وعليها هي أن تتحدى الدمار والموت لحظة بلحظة من أجلهم. زينب التي تحملَهم منة إنجاب أو ـدهم، وتعاملها على أنها المسؤولة الأولى عن رعايتهم، تستحق هذا المصير لبثت آمنة لحظة في مكانها ثم صعقتها أصوات المسحوقين فوق الأرض وتحتها. انتبهت إلى أن احتمال إصابة وموت أولاد أخيها مؤكدة. لم تتمالك نفسها.انهمر الدمع سخيا من مقلتيها. صارت تنشج وتعوي، وانحنت تشارك في الحفر بكل طاقتها لتجد سمير وسميرة ونسرين وعبير هذا ليس بيدها! ربتهم وأنشأتهم مع أمهم وصاروا يمتون لها بصلة تفوق القرابة المعتادة. اختطفت آمنة شيئا، أداة صالحة للحفر أحضرها أعضاء اللجنة الشعبية، وصممت على أن تحفر معهم حتى لو حصدها الموت. كان القصف الموجه نحو الملجأ يعوق عملية الإسراع بالتنقيب. لكن الناس المنخرطين في العمل وسط

جوقة العويل والاستنجاد الزاعقة من كل صوب، كانوا يصيغون السمع لالتقاط أنفاس الصرخات الجوفية التي تخفت رويدا رويدا حتى يعرفوا أين يتجه الحفر عملت آمنة مثل شيطان مكبوت لم يتحمل الانطواء داخل القمقم. اتجهت مع الرجل الذي يحمل الرفش صوب الصوت. سمعوا أنينا مخنوقا لرجل تحت الأنقاض يخبرهم أنه لا زال حيا هو وأو
استطاعت آمنة مع الرجل فتح ثغرة بسيطة أنزلوا منها زجاجة ماء تدلت بين القضبان الحديدية المطعوجة. استأنفت الحفر مع العديد من أهالي المدفونين منذ الساعة الثانية ظهرا الى الثالثة صباحا من فجر اليوم التالي. آنذاك، وإلى أن توفرت إمكانية الدخول إلى قلب الملجأ، لم تحاول أن تنظر إلى الجثث الصاعدة التي يفلح البعض في سحبها واخراجها. إنها لا تريد موتى. بكل بساطة لا تريد إلا من يستطيع العيش. إنها كرهت الحياة المشبعة بالموت ليل نهار ولن يهمها أمر الجثث أو البقايا، لأنها لا تريدهم إلا أحياء. لا تريد جثثا أوموتى. إذا كانوا ما زالوا أحياء، فليتفضلوا. إنها مستعدة لاستقبالهم حينها تريدهم أن يعيشوا لتعرف أنهم يستحقون تعبها الرهيب في الحفر طيلة هذه الساعات. وحدها. دون أي أحد آخر من العائلة. حتى لو ماتت. لا أحد يعلم ما الذي يجري. لا أحد. على الاطلاق. أبدا. هي. في صبيحة ذلك اليوم المتأخر في نهاية تموز نزلت آمنة مع الأفواج الأولى إلى الملجأ. شلّها الرعب الذي لن يعود له مثيلا في حياتها رعب سيطحنها، ويعيد تشكيل وصقل القساوة في قلبها أشد من

ذي قبل. شاهدت آمنة وسط الملجأ نحوا من أربعمائة جثة مشوهة تماما بحيث لا يستطيع المرء معرفة أصحابها، كلهم مشوهين بطريقة لا يتصورها العقل. قلة منهم استمرت على قيد الحياة ، وخرجت على الأقل بإصابات بليغة في أحد الأطراف. أكثر التشويه كان الحاصل في الرؤوس. امرأة اندلقت أمعاؤها الى الخارج، وقد فارقت الحياة منذ لحظات.بجانبها كانت طفلة تبدو في حدود الثالثة. هجمت آمنة عليها لظنها أنها عبير كان الإغماء باديا على الطفلة. عندما اقتربت عرفت تماما أنها ليست عبير ، أين عبير حاولت امنة حملها، فإذا بشريط حديدي يحتجز رأسها.أحضر البعض منشارا عملوا به على تخليص الطفلة. كانت الخامسة صباحا، ولم يكن لدى الطفلة من يسأل عنها. كانت المرأة المقتولة أمها حتما.

لم تفكر آمنة في الطفلة. سيظهر أقرباء لها عاجلا أم آجلا. كان عليها الخروج والعودة لإخبار العائلة التعسة بالنبأ. جَرّبت آمنة جسمها، وإحساس غامر بالسقوط يجتذبها صوب الأرض لولا مكافحتها لوسوسته لها. ترمي نفسها، وتنام أو تموت إلى الأبد على هذه الأرض الحقيرة التي تبتلع أجساد البشر ، ولا تشبع. تذكرت علي سامر لا إنها لا تريد الموت. رغم حزنها الكثيف ستحيا وتذهب إليه تحدق في عينيه بتطلب وقح، وتجعله يفهم أنها تريده. فيتقدم إلى أهلها إن عاشوا. تريده، وتريد أبو أبوه، وإنها لن تموت ستنتظر وإن عز النزول إلى الماء هذه الأيام.

على مدخل الطابق السفلي توقعت آمنة أن ترى النساء وهن يسعفن أمها المنهارة. لكنها لم تسمع صوتا يوحي بحصول كارثة جديدة. إن لم يكن أمها فالجارات، أو عائشة على الأقل. خطت إلى مدخل الغرفة المكتظة وهي خائفة، ومترددة في إذاعة النبأ الكئيب. وهناك شاهدت ما لاتصدقه العين. كانت زينب "المصون" مع أولادها بين النساء والأولاد والعجائز عندما رأتها، هتفت زينب من أعماق اعماقها:

وينِكْ. قلقنا عليك كتير وين كنت؟

وكأن الشيطان بحاله تعرض لها. تأتأت امنة، وحدقت بشراسة بالغة في زينب حتى بدا لأم حسن أن بياض حدقتي ابنتها قد أزاح البؤبؤ، وانحرف إلى جفنيها. صرخت آمنة وكأنها غير واعية لما تقول:

– ليش؟ هو إنت بعدك عايشة ؟ كل الناس بمنطقة الملجأ فكروك متِ من زمان.

وانخرطت آمنة في بكاء هستيري طويل. تبكي فيرتخي حنكها، ويتمدد فكاها، ويسقط لسانها الثقيل في سقف حلقها فتصير كالخرساء التي تتلفظ الكلمات بصعوبة وتقطع:

والله! مش عارفة شو أعمل معكم؟. كل الحق علي. والذنب ذنبي على كل حال. أنا المجنونة الهبلة اللي فكرت إنك إنت وأولادك هناك. ليش ظليتي تبكي وتترجيني أرجع لك .

ليه؟ علشان تدوقيني الرعبة السودا؟ والله لأورجيكِ حالك يـا كلبة.

وهجمت بضراوة على زينب تحاول شد شعرها، وتوجيه صفعة إلى وجهها في الوقت ذاته. حالت أم حسن بينها وبين ما تريد. أمسكتها من معصميها، فصارت تحـاول التملص وإعادة الكرة مرة أخرى. بصقت في وجه زينب الذاهلة التي لم تستوعب بعد ما الذي يحصل. وصاحت:

هلأ بدك تقولي ليش عملت هالمقلب الوسخ في. ليش طلعت من الملجأ من دون ما تخبريني؟

حين أدركت زينب حقيقة الأمر عرفت توا أن المعركة لن تنتهي بينهما إلا إذا أعلنت السبب الذي دفعها لتغيير مكانها دون إخبارها. لم تفكر طويلا، كان المهم أن تنهي هذا الوضع الذي تحول إلى فضيحة مصغرة أمام أعين أهل الحي. وكانت تعلم حق العلم أن التحفظ لن يفيدها. وقفت بإيشاربها المدعوك الذي تميل ذؤاباته صوب ظهرها،.وضعت كفيها على خصرها في حركة متحدية، وقالت:

– إيه ! وشو فيها ! بدي أحكي. زحمت. وانحشـرت. قلت لسميرة تمسك إخوتها، عشان أطلع برة. ما انت عارفة إنه ما فيه مرحاض في الملجأ. الولاد ما سمعوا أختهن. طلعوا وراي. وهيّه طلعت وراهن تتشتكيهن. وعندما وصلوا عندي لمدخل البناية الثانية. وإلا يا لطيف ألطف. الله أكبر على اللي صار. زي ما قلت الأرض انشقت وبلعت الملجأ. وشو بـدي

أعمل ساعتها ؟ حملتهم وجيت أركض عند مرت عمي. شو عرفني إنكْ لحْ تيجي هناك، وما تلاقيني!!

تصاعدت الآهات والقهقهات عندما أعلنت زينب عن السبب الحقيقي لنجاتها وأولادها من انهيار الملجأ. لم يفطن أحد إلى جورجيت التي التفتت إلى رضيعها، ولم تجرؤ على أن تجّسه. خافت أن تلمسه ، ولم تجرؤ على أن تذكر شكها لأحد خوفا من أن يتحقق ما توجست منه. لذا فضلت السكوت أملا في أن لا تتحقق مخاوفها. الولد الذي لم يكتسب اسما حتى الآن لأنه لم يشاهد أباه. الطفل، ابنها تجمد في موضعه، وتوقفت حبيبات العرق عن الانسكاب وراء أذنيه. سكت، وكف عن البكاء. سكت. ولم تجرؤ ان تحكي. بعد ساعة أو أكثر وعندما عرجت أم جلال بالصدفة على الطابق السفلي لتطمئن على ابنتها، راودتها الريبة في أمر سكوت الرضيع. لم تعبر سابقا هذا المكان إلا وكانت تسمع صراخه يعلو كأن صوته صار من صلب المكان وروحه اليومية. شكت أم جلال في الموضوع، وأرادت أن تتأكد مما يحصل. نادت على جورجيت:

يمّا.جورجيت. أعطيني الولد اسم الله ما شالله.

حملته جورجيت من حيث كان يتمدد قربها. وقدمته لها. في ثانية واحدة أدرك جميع من كانوا هناك مصير الطفل. تدلى رأسه من اللفافة القماشية، وتأرجح مثل عنق طير ذبيح. تجمد الرضيع، وتخشبت أطرافه، واعتصم بصمت لا يعرفه

سوى الأموات. ارتجفت شفتا أم جلال الثخينتان، فالتفتت إلى عائشة الذاهلة التي تشت في كل لحظة من الزمن نحو أرض مجهولة لا يعرفها أحد.

سألتها بجزع

عيشة.من متى الولد بهالحالة ؟

وكأن سؤالها فجّر ذعر جورجيت المكبوت. أنشأت تعول وتبكي وهي تشد الرضيع إلى صدرها

وينكْ يا ماما. وينك يا حبيبي. متى ترضع وتطفي حسرة قلبي. وينك يا أمي أرضَعك؟ والله نفسي انك ترضع وتعيش. مش قادرة على كل هالحياة الوسخة التي لم أرضعك فيها. ريتني أموت معك، وأموت.

أطلقت جورجيت صرخة عظيمة، ورمت نفسها فوق جثمان الطفل، تتشبث به تمرغ رأسها في ثيابه ولفافته القطنية البيضاء وقد لطختها بقع بنية ورمادية من وحل وسخام المكان. بدأت جورجيت تمعط شعرها، وتضرب خديها بكفيها في صفعات مجنونة. والنساء يتدافعن صوبها ويحاولن سحب الطفل من حضنها. اندفعت ابتسام من وسط الحشد كي ترى الولد الميت. صاحت بها أم جلال:

بس يا بنت. روحي من وِجْهِنا. بلا ما تلتمسي هلأ. وما نعرف كيف نعالجك. يكفي المصايب التي تنزل علينا ! كأنه ما بقي علينا إلا إنتِ.

كانت أم جلال تعبر عن قناعتها الراسخة بأن من يطيل التحديق إلى الموتى مصيره الوقوع تحت سطوة الجان فيسمونه بجنون لا فكاك منه. جذبت ابنتها بضراوة، ودفشتها إلى الخلف حتى لا ترى الطفل الميت.

المجنونة جورجيت. هكذا صار اسمها فيما بعد عندما صارت تلخبط في حديثها، وتذكر دم أهلها المطروش على الحيطان. قالت إنهم. أمها. أباها.إخوتها. سلفاتها. وجميع أهلها كلهم أصيبوا بقذيفة. الموت! أخذهم جميعا. ولم يبق لها أحد. ظلت تحاول الاندفاع لمغادرة الغرفة والخروج إلى أهلها في عز القصف، وهي تنادي ابنها الرضيع نداء موجعا يقطع نياط القلب.

كانت أم جلال قد تركت ابتسام قرب أختها كي تسهم في اعادتها إلى صحوها قليلا. منذ وفاة حسن ارتدت عائشة تنورة سوداء وبلوزة كحلية اللون. وظلت سادرة في ذهولها وكأنها ليست هناك. لا تنام ولا تصحو لا تحس على أحد ولا تهتم بشيء. كأن موت الرضيع واختفاء جورجيت من الملجأ بغتة أطاحا بها ، ولم يتركا لها القدرة على الاهتمام أو السؤال عن أي شيء في الحياة. ظلت جورجيت تنوح وتقول إنها ستذهب إلى آخر الهضبة كي ترى لحم أهلها الذي يطرطش على الحيطان. ذات صباح، ذهبت جورجيت ولم يعرف أحد منهم إلى أين اتجهت داخل أمطار القصف والبارود الأسود المتهاطلة مثل زخ الاعصار. ترامت أقاويل فيما بعد عن الفتاة

التي كانت تمشي لصق الحيطان منادية ابنها الرضيع. إبنـــــي. بفتش على إبني. حبة عيني، كانت تجيب الناس الذين يطلبــون منها الدخول والاحتماء من القصف الغزير

(١٤)

على المحاور، وبين المواقع انتشرت الأنباء عن الأوامر التي صارت تتكرر بعصبية على أجهزة الاشارة في الأيام الأخيرة، "نريد صمودكم" تضايق جورج الذي لم يعد يجد الوقت الكافي ليعرف ليله من نهاره. رمى الورقة التي قدمتها له هناء، وهو يصرخ حانقا: الذي يده في الماء ليس كالذي يضعها في النار. زمجر، وهدد، كان منزعجا لأن جميع محاولات اختراق الطوق لم تنجح. فشلت محاولة جديدة لعبور المقاتلين الوطنيين من المنطقة الغربية باتجاههم عبر فرن الشباك وعين الرمانة. كان هنالك طريق آخر، إذا التفوا ونزلوا عبر الجبل فسيصلون لا محالة. هكذا آمن جورج في قرارة نفسه. لكن القيادة لم تأخذ القرار بالنزول اليهم عن طريق الجبل. اكتفوا بمحاولة إرسال مجموعات صغيرة لن تغير شيئا في مجرى المعركة. وبمساعدتهم على قصف القوى

المعادية رغم تداخل المواقع وتلاصقها. يرمون على موقع معاد يبعد أقل من عشرة أمتار عن قواتهم.

كان جورج موقنا في قرارة نفسه أن القصف الموجه للدفاع عنهم يضل طريقه في اتجاههم بفعل تشابك المواقع. ظل يصرخ أمام هناء

صمود ! صمود! عايزين صمود. طول الوقت بيقولوا لنا، وإحنا شو عم نعمل! ليكونوا فاكرين أننا نرقص! والاّ نغني يا عين يا ليل

أرادت هناء أن تطفئ انفعالاته التي عزتها إلى ضيق الخلق الذي يصيب الجميع. لم تعرف ماذا تخبره كي يهدأ، في النهاية عرفت أن السبب يعود إلى إصابتهم بقذائف أطلقتها مدفعية القيادة المشتركة. كاشفها بظنونه حول عدم الجدية الكافية التي تنظر بها القيادة إلى خطر سقوط المخيم، وتأجيل محاولات الاخلاء التي يسعى الصليب الأحمر للقيام بها لم تفعل سوى أن روت بيت شعر عن كيف يظلم الانسان نفسه حتى في لحظة الكارثة كانت تحفظ شطرا واحدا من بيت الشعر الذي تعلمته في المدرسة:

وإذا رميت يصيبني سهمي

يا إلهي ما الذي يستطيع جورج أن يفعله اذا؟

ظل ضمير أم حسن يؤنبها كلما خلطت طحينا بالماء وباشرت في صنع الأرغفة التي يقل حجمها ووزنها يوما بعد يوم. كان قلبها يوجعها وهي شاردة البال، مختلبة اللب بحس الفجيعة والفقدان الذي يلازمها منذ نومة حسن الأبدية تلك. قبل عدة ايام اقترب منها ابن جيرانهم الذين تصالحوا معهم في بداية الحصار وطلب منها لقمة خبز ساخنة. فلم تقبل أن تعطيه. زجرته، وصرفته عنها هي التي لم تعد تطيق انسانا بعد موت ابنها. الآن بات ضميرها يؤنبها، كلما تحركت هنا أو هناك وأفغم أنفها برائحة الخبز الساخن الذي يفوق الذهب الأصفر قيمة، بل إنها بدأت تذكر كيف اقترب منها الإبن الأصغر لأم مازن على خجل واستحياء وتحركش بها:

- يمّا. مشان الله. بدي رغيفين من يدك الطيبة.

تطلعت إليه من فوق لتحت، وكأنها تستهجن طلب طفل الأمس الذي صار يرتدي بيريه بنية وسروال جينز. زمت شفتيها القاسيتين، وعقدت التكشيرة الاستنفارية على جبينها، ونهرته:

يمّا. إنت شايفني. حالتي حالة ومش ملحقة على شغلي. هذا الخبز للمقاتلين على المحاور. إنت ميليشيا طلابية مع السكان. حل عني وروح شوف حدا غيري يطعميك. أنا مجبورة باللي ما يقدروا على ترك المحاور دقيقة واحدة. ولا أوزع رغيف من هنا ورغيف من هناك.

لم يستنكر الفتى حديثها طغت روحه السمحة على فظاظتها. كأنه آمل من وراء طلبه أن يجمع طحين روحها الرخو المتساقط على التراب كان قد مر صدفة بالقرب منها، وأعجبته رائحة الخبز التي تثير نداوة في الجو، وخاصة عند من لا يتذوق سوى العدس ليلا نهارا. كانت أم حسن متأكدة تماما أن الله لن يغفر لها الصلابة التي أبدتها تجاه فتى مسكين بحاجة إلى لقمة خبز تذوب في فمه مثل زبدة شهية. تطلع اليها قبل أن يذهب، وحرّك لسانه داخل فمه المغلق، وكأنه يخبرها عن التفحم الذي يصيب بطانة الفم عند غياب الأغذية الطرية والخضار والفاكهة. بعد لحظات ذهب الفتى للإستراحة مع أصحابه من المليشيا إلى البناية المقابلة التي لا زالت قيد البناء. تمدد على الأرض الاسمنتية، وحدق في القصارة الناتئة التي لم تنجز بعد. بشر صحبه أنه سوف يصنع لهم شايا. صفن قليلا، وتلكأ قبل أن ينهض. وطفق يفتش عن خشب كي يوقد به نارا. رأى درفة خزانة مرمية في وسط الطريق. فالتفت إلى أصحابه قبل أن يخرج، ومازحهم قائلا:

لما أموت. فتشوا على درفة خزانة مثل هذه لأنها على مقاسي.

وقهقه رغما عنه، وكأنه يحارب الوجوم الذي يكبل وجوه الناس في جميع الأمكنة التي جال فيها. خرج، وأتى ببعض قطع الخشب التي عثر عليها. قرفص، وأوقد نارا. لكن قذيفة ما لبثت أن حطّت عليه في إصابة مباشرة. ركض أهل الطابق

السفلي ليروا ما حدث في الحارة. كانت ابتسام هي الأخف والأسرع فيهم. شاهدت دماغ الفتى مختلطا بالتراب. شاهدت قطع شعره المنثور على الأرضية. رأت ما جعل القشعريرة تلازمها تلك العشية حتى عندما أتت أمها بطاسة الرجفة، وجرعتها نقاط ماء منها بعد أن قرأت عليها آيات قرآنية. ظلت أم جلال تتهم الفتى بأنه من أتى بالفأل على نفسه.

فالهُ على حالهُ. مين قال لهُ هالمسخم يحكي إنه عليز درفة الخزانة النحس، حتى جابوها بعد خمس دقائق وأخذوه عليها للمقبرة. الله يحمينا ويرحمنا.

ظل وجع الوجدان يلح على أم حسن. لعله عاش لو استوقفته وأعطته ما طلب، لعل وعسى. لم تكن تعرف كيف تهرب من صورة الفتى التي احتلت مجال رؤيتها. كانت تعاني مرارة عاتية وهي التي تعرف أن الكثير من الناس صاروا يلجأون إلى تحميص العدس وأكله بدون طبخه بسبب شحة الماء.

كان العجوز أبو حسن يتابع آيات قرآنية يرددها مذياع صغير بدأت بطاريته تخبو تدريجيا. تخفت شيئا فشيئا. تصاغر الصوت حتى صار الناس المتجمعون في الطابق السفلي مضطرين إلى زجر الأولاد ونهرهم كي يلتقطوا نتفا من الأصوات البعيدة الآتية من العالم الخارجي. بدأوا يستمعون إلى المحاولات التي تبذل لاخراجهم عبر تدخل الصليب الأحمر الدولي الذي لا يستطيع شيئا. قالت آمنة بلؤم:

ما نِحن عارفين انهم لن يخلونا نطلع من الجبهتين "حبايبنا وقرايبنا" حاسبين حساب معنويات الناس اللي عندهم. لو خرجنا وانسحبنا ماذا يصير بالمعنويات؟ "وعدوينا إللي الله يفرجيهن يوم وينتقم لنا بجاه الأنبياء والمرسلين، قاعدين على الخطوة تيعملوا "فِتنةْ ورنةْ" إحنا مثل مصيَف الغور الصيف حريق وفي الشتا غريق. لا من هون ولا من هون.

أجابتها أم حسن التي كانت تشرف على تقسيم كمية الماء القليلة بين الموجودين:

حاج تتفلسفي عاد، ضبيّنا من هالسيرة وقومي اشتغليلك شغلة. إنزلي جيبي مي.

اضطربت آمنة وارتبكت، أدمنت على عصيان كلمة أمها لكنها لم تعتد أن تهينها أمام الناس. فضلت أن تقوم بعمل مشكلة تطوي فكرة قيامها إلى الماء من أساسه. قالت:

يمّا. بس أنا مش مجبورة أشتغل وحدي للجميع. هاي القردة ابتسام بتحجل هون وهون. ليش ما بتقوم معي؟

رمت كلمتها الأخيرة، وهي عارفة أن طرح اسم ابتسام سيفشل المشروع من أساسه. لكن أم حسن بعصبيتها المستجدة لم تكذب خبرا. قبلت، وطلبت من ابتسام أن تنزل الى الماء مع آمنة. كان هناك البستان وبه البئر التي قل تردد الناس عليها بسبب شدة القصف وتركز القنص على محيطها. أخذت آمنة

ابتسام القزعة التي لن تطول أبدا لتقل وكثرة خزانات الماء التي حملتها على كاهليها، وتوجهنا إلى البستان. عند السياج النباتي الذي يلفَ المكان طلبت آمنة من ابتسام أن تقف وتنتظرها خارجا، وأخبرتها

بعبي كم سطل، وإنت بتفرغي الجالونات.

وتذكرت محور علي سامر بلهفة وتحسر لم يعد الوصول إلى هناك ممكنا. ظل القصف يتتبع المواسير حتى أتى عليها جميعا. ولم يعد ثمة مجال لخطوة واحدة نحو ذلك المكان الذي تدور فيه معارك مواجهة طاحنة. يطلع الأعداء مساء حاملين مكبرات صوت وينادون علي سامر، تعال يا ابن الشرمو يجري تبادل الشتائم بين المواقع طيلة الليل. وقد ينادي الواحد فيهم خصمه باسمه.

داخل البستان تمترست مجموعة من الميليشيا تساعد النساء في سحب الدلاء بعد أن تكاثرت حوادث إصابة المدنيين ووقوعهم في البئر أثناء رفع المياه. استطاعت آمنة "البطلة التي استحقت لقبها الجديد عن جدارة، أن تتشل العديد من سطول المياه، وأن توصلها إلى إبتسام المنتظرة خارج البستان.

بغتة، أو، أنه الاعتياد – بدأ القنص، ثم تتالى هطول القذائف.استظلت ابتسام بالسياج فلما تأخرت آمنة عن الخروج أجهشت بالبكاء. صار البكاء يجري سيولا على خدها، وقنابل التنوير تنفرش كلمع البرق، متناوبة مع القذائف الفسفورية

الوهاجة. ظلت ابتسام تبكي وتبكي لمدة لا تعرفها من الزمن. وكأن كل ما وفَرته عيناها من دموع طيلة فترة الحرب لم يُقَيض له النزول إلا الآن. حينما أطلت آمنة عليها بعد زمن طويل انتفضت، ونظرت إليها نظرتها إلى شبح خارج من القبر بل إن الذعر راودها وكأنها ترى عزرائيل ذاته. لم تكن تتصور أن آمنة ما زالت في عالم الأحياء. صرخت آمنة بها:

قومي يا مسخمَة نفل قبل ما يزيد القصف. اسم الله عليكِ ! قومي، يالّلا، يالّلا.

حملتا الجالونين. وانثنتا إلى الركض كالملسوعتين. قرب الطابق السفلي أحست ابتسام بنار تلتهب في ساقها. ظلت تركض والجالونات في يديها مثل النار المندلعة كانت رجلها تشتعل. لم تتوقف عن الركض.ثم شعرت بأن قدميها تحويان أكياسا من الرمل،.لم يعد بإمكانها أن تتقدم خطوة واحدة إلى عتبة الطابق السفلي. وقعت على الأرض دون أن تحَس شيئا. لم يعد باستطاعتها المشي أو الزحف. كانت أم جلال قد أطلت على الملجأ آنذاك. سحبت الفتاة. مددتها على الأرض. وشاهدت الشظايا التي أصابت ابنتها.إنكسر الأصبع الأصغر في رجلها، وظهر اللحم إلى الخارج أعطتها إم جلال ماء لتشرب، وبسملت عليها ثم حملتها على ظهرها إلى المستوصف بعد أن شدت الجرح برباط من الشاش كانت تحمله من قبيل الاحتياط بين ثدييها الضخمين.

* * *

تغيّر شكل جورج، طالت لحيتـــه وتنـــاثرت أطرافـــها، والتوت خصلات شعره التي دب فيـــها شـــيب مبكـــر عنـــد صدغيه. ضربه الهزال، وارتخى جلد فكيه حتى لكأنه يعـــاني من ألم أسنان مزمن. صار يرى هناء أكـــثر مـــن الســـابق. تضاءلت رقعة القتال، وانحسرت المحاور إلى الخلـــف مثـــل الجزر الذي يصيب ماء البحر بينه وبين نفسه كـــان معجبـــا بسيطرة الفتاة على خوفها سبر أعماقها وعرف الرعب الـــذي يدفعها إلى السخرية الشديدة بدلا من البكاء كما تفعـــل معظـــم الفتيات في سنها. أشفق عليها، وصار أشد حنانا تجاهـــها لـــم تعد المسألة مسألة إعجاب بالنســـبة إليـــه.تغيـــرت الأمـــور وتحولت أوضاع الناس إلى الدرجة التي لم يعد فيها متســـع إلا لحب البقاء. من يعيش والده أبو زيد الهلالي، ومـــن يمـــوت يكون شخصا عاديا تماما. مجرد واحد من عشـــرات يوميـــا. الجميع يدرك هذا جيدا. وفيما لاذت أم هناء بزاوية قصية مـــن أحد الملاجئ، وكأنها لا تعرف شيئا من الحياة سوى ما تبثـــه ذاكرة رعبها، ظلت الفتاة مستمرة في عملـــها دون أن تصبـــو لاستراحة عابرة.

كان جورج يمازحها قائلا بأنه لا يعرف أصلها الحقيقـــي نظرا للجبن الواضح في أصولها العائلية. وكانت تحدق فيه، وترفع صوتها قائلة أنها هي نفسها تشبه خالها. "تلتـــين الولـــد لخاله" وتذكّره بخالها الذي ظل محتجزا في سجن عاصمـــة عربية أكثر من عدة سنوات لأنه انضم إلى حزب معـــارض، خالي يا أخي. تخبره. فيسألها الخال وفـــهمنا، لكـــن لمـــاذا

"أخي"؟ فتشتبك معه في هذر ومزاح حول ما اذا كان صالحا كأخ لها، أم أنه خطيبها. تحكي له عن أحلام أمها بأن تزفها في حفل ساحق ماحق، لا يبقى ولا يذر أحد من الأهل والخلان. الأم! أمها، كانت تحلم بأن تقيم لها عرسا في واحد من أفخم فنادق المنطقة الغربية في بيروت. خططها لعرس إبنتها كانت مرتبطة بأنواع الأقمشة التي سترتديها، والأثاث الذي ستشتريه، والطعام الذي سوف تعرضه. قالت هناء: أمي تعتبر أن حصيلة عمل أبي طيلة حياته يجب أن تنفق يوم العرس. كانت تتشاجر معه لتطلع على حساباته المالية قبل أن أصل إلى الإعدادي في المدرسة.

طيلة تلك الفترة، لم يبدآ حديثا يستطيعان إكماله. هناك دائما ما يقطع كلامهما، إمّا جهاز الإشارة الذي يبدأ في البث، أو الاضطرار لاستقبال برقيات جديدة. أو دخول أحد يدعو جورج إلى الخروج بسرعة. أحيانا كان يبدو وكأن المعركة الفاصلة التي ينتظرها الجميع على وشك النشوب. يخرج، ولا يكون لديه الوقت كي يمنحها نظرة عابرة. يترك في قلبها أسى كتيما، ومكابرة عالية تحيل كل أشواقها إلى المستقبل الذي لا تستطيع تخيل شكله أو صورته. خلال كل هذه الخضات العنيفة التي يفرضها القصف المتواصل اكتشفا متعة مستجدة ومتقطعة كالنسغ الذي يروي الأشجار.قبلات مختلسة بين انفجار وانفجار، أو زلزال وزلزال آخر. العالم في والعاشق الهزيل الذي توجعه عيناه لقلة النوم، والفتاة المتحمسة التي لم تتخل عن معنوياتها، في واد آخر. كلما ازداد

الحصار وتكثفت وتيرة الموت تخلت الفتاة عن رجفة التردد التي تراودها وكلما اقترب الشاب منها، نعتت نفسها بالبله، وأخبرته أنها ستسمي نفسها "الهبلة من اليوم فصاعدا. يا إلهي، كيف لم تعرف فردوس العناق قبل الآن. كان يجب. يجب. تقولها وهي تتفلت من بين ساعديه في اللحظات القليلة التي يطل بها عليها تتركه مندهشا من سرعة اختطافها لنفسها ومن قفزها السريع إلى الجهاز كلما أعطى إشارة البدء في الاستقبال. تخبره، بعد أن تستلم البرقية وهي مقطوعة الأنفاس. كان يجب أن أعرفك وأنا طفلة صغيرة. يسخرمنها بنظراته الصامتة الشاخصة نحوها، ثم يحكي، ويسألها أي جدوى في تعارف الطفولة هذا؟ ما الذي سنفعله يا هناء إن كنا أطفالا أنلعب في الحارة سويا يخاطبها احمدي ربك أننا عرفنا بعضنا والتقينا رغم هذه اللحظات العجيبة. لا يكمل حديثه في أحيان كثيرة. المكان يستوعب الجميع، ونادرا ما استطاعا الفوز بلحظات من الانفراد. لكنه، وكلما أحبها، ود لو أغاظها. آنذاك يبدأ في مناداتها هبلة ! يا هبلة !.كان يدرك جيدا ما تعنيه على الرغم من تهكمه الودي معها. يعرف تماما أن الانسان يتمنى لو حاز الزمن الكافي للحب، فإن لم يساعده زمنه على حيازته تمنى لو اقتطع الوقت من طفولته.

لم تكن هناء تعرف كيف تشرح له. منذ طفولتها وهي مستخفة بالرجال والشبان لشدة تركز الكلام العائلي حول صلاحيتهم كعرسان. لو لم تعرف هذا الشاب، لو لم تبادله الإعجاب ثم تشجعه على الإقتراب منها، لقررت أن تقضي

حياتها في العمل. لم تجد متعة قط منذ طفولتها في الخبز أو الطبخ أو تنظيف البيت. لم تحب الماء إلا من أجل الاستحمام وترطيب الجوف بالليمونادة المخلوطة بقشر الليمون المبشور لم يستهوها الا العمل الخاص بالرجال. تحب أن تتناقش، وأن تجادل، وأن تشير بيديها هنا وهناك لتأكيد وجهة نظرها. تشغف بإيجاد حلول للمشكلات كي لا تصير مثل أمها التي لا تطمح في الحياة لأكثر من جلسة نارجيلة مع النسوان. تدوخ وتزهق كلما فرضت عليها أمها زيارة من هذا النوع، أو أرغمتها على المكوث مع جاراتها وصاحباتها اللواتي يغرقن في أجواء الشكوى والزعيق. تحلف هناء وسط ضجرها أنها أبدا لن تصير مثلهن، وأنها لن تقبل أبدا أن تشابههن.

الأمر الوحيد الذي أخفته هناء عن جورج، رغم صراحة علاقتهما الجديدة، هو شتائمها اللاسلكية. ظلت تناوش أعداءها في لحظات الفراغ النادرة التي يشهدها الجهاز تسبهم، تشتمهم، وتجيب على مفرداتهم البذيئة المرسلة اليها بما يقابلها. خجلت هناء أن تشرك جورج في وجه من وجود حيويتها المشينة. إن لم تستطع النزول إلى الشارع لمواجهتهم فإنها ستستخدم السلاح الذي تستعمله امرأة شعبية مثل أميا لو كانت مكانها. كانت الأم ستستمطر اللعنات. لكن هناء تستخدم السلاح الشفاهي ذاته في أوج منطقه الرجولي. إنها لا تستحي عندما ترد عليهم باللغة التي يستعملونها بل وأكثر قليلا. لا يخجلها أن تكون شارعية مثل نساء أمها اللواتي يدخن

النارجيلة ويردحن حينما لا يتيح العجز غير استخدام الشتائم. عدا ذلك، فإنها لم تكن لتقبل أي تشابه آخر معهن.

انتشرت الروائح الكريهة حتى صار من الضروري وضع كمامات تقي البشر من تلوث المكان الذي غمرته سيول الذباب الأسود، الملتمع القشرة مثل خطوط "الكوبيا انتشر الصفيح المخردق بالشظايا مع بقايا التعفنات العضوية المركزة داخل الحفر المحدثة التي صنعها القصف المتواصل. تحولت الأرض إلى تلال وحفر، وفقدت ذلك الاستواء القديم. وصارت عائشة الساهمة تهرش جلدها، وتنشب أظافرها أكثر فأكثر داخل بشرتها التي صارت مخططة بندوب سطحية وبقع دماء بنية. كان من العبث الحديث معها. كانت تستمع وتنصت ثم لا تجيب. في تلك الآونة كانت أم جلال تشكو همها لهناء أثناء مرورها بالمكتب للبحث عن جورج. اعتصم السيد في بيته دون أن يقبل الانتقال إلى الملجأ. تشاجرت أم جلال معه فطردها من الدار شر طردة. الدار؟ تقول أم جلال. يكفيك الشر. صارت مثل الخرابة وهوه لازق فيها وقاعد كأنها قصر "يلدز

عشية ذلك اليوم، وعندما دخل جورج إلى المكتب لم تستطع هناء أن تنبس بحرف واحد حول مشكلة اعتصام السيد في بيته، رغم وعودها لأم جلال. الوضع دقيق للغاية. الحال خطير جدا. وصلت الدورية الثانية عن طريق الجبل، وأخبرت المقاتلين عن دوريات أخرى عديدة رجع أصحابها إلى المنطقة

الغربية دون أن يعاودوا الكرة للوصول إلــى المخيم، كــان المكتب في حالة هياج وغليان، لم تحاسب المجموعات التــي رجعت وهذا يعني أنهم لم يأخذوا قرار حازما بإنقاذهم.

استقبل جورج صديقه مازن الذي وصل مــع المقــاتلين العابرين الجبل بالأحضان، هجم عليه يقبلــه. قــال جــورج لمازن:

حسبت أنك سوف تستشهد عالطريق.

- فابتعد عنه مازن، وهو يتأمله بعينين تشعان بريقــا، وقال:

لأ أنا اللي كنت حاسب أنك تستشهد.

وانطلقا يقهقهان سويا، وكان مجرد اكتشاف ما يجمعهما يتمتع بطرافة خارقة، وجه جورج لكمة ودية إلى صدر مازن، وقال:

سمعت أنك رح تتجوز

فضحك رفيقه، وكاد ان يرتمي على قفاه وهو يخبره:

لأ أنا اللي سمعت إنك ح تتجوز، قلب طول عمــره جورج إبن سبعً ليه هلأ يصير ابن... اقتحمت هناء المحادثــة، قائلة بسخرية

الظاهر إنه الأخ ناسي حاله. شو إنت جيت تحارب الكتائب والا تحاربني؟

فضحك مازن وقال:

أنا ضد كل أشكال الظلم والإستبعاد والحصار

قالت هناء بلهجة هازلة يخالطها الجد:

اتركنا بهمّنا يا أخي. الله يسعدك ويبعدك، المثل بيقول: يا قاعدين يكفيكم شر الجايين.

قال مازن:

- والمثل بيقول كمان إمشي في جنازة ولا تمشي في جوازة.

هبّ جورج قائلا:

شو هالحرب الجديدة ؟ طيب أنا عندي مثل كمان العروس للعريس والجري للمتاعيس.

قال مازن

يعني هاي آخرتها معك. ولله مثل الغول أكل كل الناس إلاّ مرته.

وانتقل الحديث إلى وجهته الضرورية التي ظلت تغلي في الرؤوس وداخل العيون. لم يعرف جورج ما الذي ينتظر الإخوة في الخارج كي يقرروا واحد من اثنين فإما متابعة

التفاوض من أجل إخلاء المخيم وإجلاء المدنيين، وامـــا شــق الطريق إليهم ونصرتهم، وعدم الاكتفـــاء بإســداء النصــائح والتعليمات، قال جورج بحدة بـــأن الــذي اسـتطاع إدخــال مجموعة مازن والمجموعة السابقة المؤلفة من عشرة رجــال يستطيع إدخال مائة أو مئتين، ما الذي ينتظرونه هناك قــال جورج إنه يعرف تماما انهم ما زالوا ينتظرون رحمة تــهبط من السماء كي تتعاطف العواصم معهم، وتزيد من ضغوطاتها لفك الحصار عنهم، قال أنه لا جــدوى مــن انتظــار ســفقة العواصم لأن تخاذلها واضح ومكشوف، كز على اسنانه وسأل رفيقه:

أقسم أني غير قادر على الفهم، خمسين الف اقتحــام وبعدهم مش عارفين يوصلونا، لو كانوا قادرين لعملوها مــن زمان، أصلا بعد معركة حرش تابت ما عاد فيهم يوصلونـــا، بالأول كانت المسألة أسهل، خطوتين ويصيروا عندنـــا عــن طريق فرن الشباك عين الرمانة الشيفروليه. لكــن بعــد معركة حرش تابت صار هذا بحكم المستحيل، الآن، حـــرش تابت وسن الفيل، وبعدها القلعة وجسر الباشا حواجز جديـــدة، تناول جورج إحدى النشرات القريبة، وقرأ بصوت عال:

وأوردت صحيفة" عل همشمار "تفصيـــلات إضافية عما دار في الاجتماع، فذكرت أن كيسنجر قال للسفير الإسرائيلي أنه من شبه المؤكد أن إسرائيل لن تكـــون قلقـــة بخصوص هجمات الفدائيين على الأراضي المحتلة، أو سيطرة

السوريين على جنوبي لبنان، لأن المجابهة بين منظمة التحرير وسوريا ستستمر....

صمت، ثم خبط بجماع قبضته على الطاولـــــة المثقلــة غبارا أسودا وحجارة ثقيلة لا يعرف أحد كيف حطــت علــى سطحها. إرتدت هناء الجالسة إلى الخلف بارتجافة عفويــة، الله وحده يعلم انها اكتشفت عصبية هذا الرجل للمرة الأولى فـــي حياتها، لم تر منه سابقا ســوى وجـــه المســايرة المقــترن بالابتسامات، الآن، ترى وجهه الخفي الذي تساءلت عنه بينــه وبين نفسها طويلا. ملامحه مشحونة بانفعالات متضاربة لـــم تقدَر أن بإمكانه أن يحملها، كانت تشهد تأجج غضبه المكبـوت غير المعلن الذي لم يسمح لنفسه بإظهاره إلا في حالات نادرة. قضية غريبة حقا، أن يخترق بضعة رجال من الخارج الطـوق المستحيل الذي عجز عن عبوره أولئك الذي وجــــهت إليـهم نداءات ملحة، وأن تتورط القوى الحليفة فـــي صـــراع يخــدم الأعداء.

أنا أخوك، إسمعني، قال مازن، وأكمل

أنا واياك تدربنا في الجنـــوب مــع بعضنــا، الـــهم الأساسي في المقاومة هو "الزعتر لكن المشكلة أنـــهم مــش عارفين يتصرفوا. القيادة المشتركة حاولت اختراق الحصـــار والنفاذ عن طريق الشياح عين الرمانة. كل يوم فيه شـهداء. وكل يوم ناس تموت حتى تفك الحصار، لكنـــهم لا يقــدرون. هي الحقيقة، ليه! ما حدا بعرف، لكن لو ســـألتني أقــول إن

الخلل إداري. مجموعات كبيرة كل واحدة من تنظيم أو فصيل، بعضهم طلاب وبعضهم متدربين، منهم المتطوع لأول مرة في حياته والثاني يمكن أنه يشوف السلاح للمرة الأولى، وعليهم مواجهة دول بحالها ليس فقط ميليشيات! بس إذا عالهمة! كل يوم بيموتوا ناس لأنهم بيشتغلوا عن حق وحقيقة.

بدأ الهدوء القديم يبين على قسمات جورج المشدودة، عاد إلى التساؤل، قال:

أنا لا اسأل عن الذين في الشياح وعين الرمانة لأني عارف أنه لا يوجد أي احتمال بتخطي الطوق بعد ما سقط مخيم جسر الباشا الذي كان حلقة اتصال بيننا وبينهم، لأ، أنا أسأل على حاجة تانية. أين الذي يقاتلون في الجبل، لا نسمع إلا عن صنين وعينطورة. ماذا يريدون من المتن، وراس المتن ؟ لم لا ينزلوا لينجدونا، معهم كل الأسلحة الثقيلة والامكانيات التي نحن محرومين منها، لم لا ينزلوا هنا ما داموا قريبين منا؟؟ لو نزلوا على خط مستقيم لصاروا عندنا من زمان ؟

تنهد مازن وزفر بكل طاقته كمن يشهد بينه وبين نفسه صراعا مريرا. قال:

بس يا جماعة، صلِّوا عالنبي ! بالأول يا جورج إنت عارف من المستحيل تقبل القيادة يسقط التل بسهولة. وحتى توصل له لازم تحتل مدينة كاملة. أو نصف عاصمة كبيرة

بطولها وعرضها يعني لازم يحتلوا المنطقة الشرقية بكاملها عشان يقدروا يشقوا الممر ويفتحوا الطريق. ومن ناحية تانية يا مازن، مش ممكن إنهم ينزلوا تسلّل عن طريق الجبل مع الأسلحة الثقيلة، لأنه مدفعية جيرانهم واقفة بالمرصاد!!. ويا ريتها دولة واحدة التي تحاربهم. مين قال إن الطريق مفتوحة قدامهم؟ لكن يا جماعة، روقوا!! اهدوا شوية. كل واحد فيكم طالع خُلقه شكِل ويتفشش في ناس مغلوبين على أمرهم هناك.

لم تكمل هناء حديثها. دي.. دي... كان لزاما عليهم قطع الحديث والقفز فورا إلى الممر للإحتماء إذ أن القصف تركز في الأيام الأخيرة على المستشفى والمكاتب التي يتوزع المقاتلون عليها أو يتلقون فيها برقيات أجهزة الإشارة.

المستشفى، الله وحده يعلم الألم المخزون في عضلات قدمي خزنة المرتخيتين أثناء حمل الجرحى ونقلهم إلى مراكز صغيرة متفرقة. نفد المازوت من المستشفى، ولم تعد هناك إمكانية لتشغيل غرفة العمليات التي بذلت جهود جبارة لإضاءتها وتشغيل بعض أجهزتها بواسطة بطاريات السيارات المتوفرة. لكن شح الدواء، أو انقطاعه التام، بالإضافة إلى فقدان الأمصال والمطهرات، كل هذا دفع الهيئة الطبية إلى توزيع المستشفى على مراكز طبية صغيرة ومتفرقة خوفا على حياة المرضى الذين ظلت القذائف تنهال على مقر تجمعهم. تركت خزنة المستشفى وكأنها تترك وراءها قطعة من جسدها.

كان أعز مكان عرفته في حياتها. هي التي حملت دائما منة الناس، دون أن تتوفر لها فرصة العطاء الحر كما يحدث لـها الآن الياس الدوغاني بدأ يواسيها بعد أن اشتم بعفويته كنه مشاعرها. ظل يعدها بأن تصبح مساعدته الأولى حتى لو كلفه الأمر التخلي عن خطيبته ذات الجمال المنقطع النظير كما يكرر وصفها دائما. كأن خنجرا كان يمزق قلبها. لماذا لم تعرف خزنة أبدا سبب اضطرابها ! فقط، كانت منزعجة، بل إنها كانت تحس وكأن نزيفا غير مرئي من الدماء يتدفق من قدميها المترجرجتين.

يا ريب أنا مش إنب. صرخت أم جلال وهي تحمل ابنتها ابتسام إلى المستوصف الذي لم يعد يرقد فيه مرضى بعد أن تم نقلهم إلى أماكن أخرى. كانت ديدان صغيرة قد بدأت تتغل بين الشروخ البنية العميقة التي خلفتها الاصابة. صرحت أم جلال بالطبيب

أنا في عرْضَكْ. الدود عم بياكل رجل بنتي.

عقم الطبيب الجرح بالماء والملح وهو يعرف تماما في دخيلة نفسه أن هذا لن يكفي. لن يكفي أبدا. تلوث الجرح بسبب الحر والاحتباس بين الحشود في الملاجى قد يصيب بالغرغرينا قدم هذه الطفلة التي شاهدها مرارا وهي تنقل الماء برباطة جأش مع أمها. نصح الطبيب الأم بأن تحاول إخراج الفتاة مع سيارات الصليب الأحمر.

بس ! يا دكتور، ما إنت سيد العارفين. السيارات تجيء كل يوم توقف على أبواب المخيم والكتائب لا يدخلونها.

وإنتِ ست العارفات يا أم جلال. أخبرها الطبيب أشرف بطلعته الذكية التي كانت تمنحها الانشراح حين يكلمها.

قال:

لما تنحّل القضية وتفتح الطريق. رح نطلّع ابتسام على طول.

وأخفى الطبيب بينه وبين نفسه تشاؤمه من وجوب الاضطرار إلى قطع القدم إذا لم يُفكّ الحصار

لم تجرؤ ابتسام على أن تخبر أحدا بالذكرى التي تراودها. كلما طنت دبابير الأوجاع في جرحها، وكلما شاهدت الدود الدقيق يرعى دمها، كلما تذكرت أكثر وخافت من الذي حصل معها عندما كانت عائدة على طريق معمل العدس ذات يوم، هي وحسام بعدما أتما جولتهما اليومية داخل معمل البومبون الذي لم يكفّا عن ارتياده إلا منذ فترة وجيزة. كانت متأكدة تماما بأن إصابة قدمها حدثت الآن لأنها كذبت على الولد عثمان. ففي طريق عودتها صعودا إلى بيت أم حسن، التقت ابتسام وحسام ولدا بعمر يقارب عمريهما. حسام عمره اثنتا عشرة سنة، وابتسام إحدى عشرة.. وذلك الولد أصغر

منهما رغم أنه يداوم معهما في صف المدرسة ذاته. التقيا الولد عثمان وهما على الماء. كان يحمل تنكة ماء كبيرة. انتبه إلى رائحة السكاكر التي تفوح من بين أسنانهما.طلب منهما حبة واحدة، فرفض حسام إعطاءه إياها. حلف عثمان بأنه سيعطي حسام في المستقبل ثمنها، وأنه سيرد له من الربع ليرة الذي يحصل عليه يوميا من أهله. شاكسه حسام بحقد كامن، وذكره بشطيرة الفلافل التي رفض أن يعطيه لقمة منها. كان الولد عثمان من أولئك الأولاد المهفهفين النظيفين الذين يندر تواجد أمثالهم في مدرسة "الوكالة وكان نصيبه علقة يومية أو مجرد اهانة وشتائم تلحق به من أحد الأولاد الزعران الذين عرفوا بسوء السيرة والسلوك مثل حسام. رجا عثمان كلا من ابتسام وحسام أن يذيقاه كسرة صغيرة من قطعة الملبس أو التوفي التي بحوزتهما. لا لزوم لأخذها كلها. لكن.. كسرة صغيرة. وأشار برؤوس اصابعه المكورة. فقط. يكفي. وتعهد بسداد ثمنها فيما بعد على أساس أنها قالب شيكولاتة. لا تدري ابتسام كنه الشيطان الذي تلبس حسام في تلك اللحظة، فما الذي كان يضيره لو أعطى الفتى لحسة واحدة من قطعة صغيرة جدا بطعم الليمون أو الكراميل لم يقبل حسام. إلتفت عثمان إلى ابتسام ورجاها أن تعطيه، إلا أن لؤما داخليا ملأ قلبها كي تكذب عليه، وتقسم بأغلظ الأيمان إنها لا تمتلك شيئا منها. حينما ارتقوا المنحدر، لم تعرف ابتسام أن القذيفة كانت كامنة عند أول المنعطف. كانت أم حسن على البلكون، وحسام قد سبقها إلى الداخل بقفزاته السعدانية الواسعة. بينما تحمل

هي الجالون البلاستيكي بيديها الاثنتين. الولد، لم يذهب إلى الملجأ القريب الذي تقبع فيه أمه مع أطفالها الثمانية. ظل يتبعها وحسام وكأن جاذبا مغناطيسيا يسحبه خلفها، لم يصل عثمان على النبي ويفقد الأمل في الحصول على الملبسة، ولم تعرف ابتسام حتى الآن مدى جنون الأطفال الا في تلك اللحظة. وفي الوقت نفسه، فإنها لم تستطع أن تكذب نفسها وأن تعطيه واحدة من الملبسات المختفية داخل جيبها التي كان يبدو وكأنه يستدل عليها مستعينا بقوة شم خارقة. على زاوية الشارع كانت امرأة مع أختها تجلسان أمام بابور، وتقليان عجين العدس لإعداده أقراصا يتقوت بها الأطفال داخل الملجأ. سمعت أم حسن هسيس قذيفة، ثم قذائف أخرى تتلوها، فصوتت عن البلكون قائلة:

يمّا تخبوا.

حملت ابتسام شحاطتها البلاستيكية في يدها، وركضت صوب مدخل البناية.

صاحت أم حسن بوضوح لم تشوشه أصوات انهيارات الحيطان في الشارع القريب:

يما يرضى عليك، أركض.

الولد لم يركض، الولد يا حرام، التنكة الثقيلة على راسه، فكيف يستطيع أن يركض! لم يركض الولد. القذيفة التالية و..... فقط بقايا آدمية. تخيلت ابتسام أن اليد فيها تبرز وحدها

كي تشحذ بعض الملبس والحلوى. والنساء اللواتي كن أمام البابور أيضا فقط، بقايا آدمية من الجلد واللحم والعظم. إنها وهي تشاهد الآن الديدان البنية الصغيرة تتغل داخل قدمها كانت تعرف أن الله يجازيها على كذبها. ليس لأنها لم تقبل أن تطعمه، فهذا شأنها وحدها، ولكن لأن كذبها قصف عمر الولد. فلولا أنه أحس كذبها لكف الشر عنه وعنها وذهب إلى ملجأ أهله ولم يلحقها هي وحسام.

آه حسام الولد المجنون أيضا، لا يعرف أحد اين مقره أو مكانه، يدعي أنه يقضي وقته بين الكمائن كي يساعد المقاتلين، وأم جلال تقول، الله أعلم، من الذي يستطيع أن يعلم شيئا عن اي إنسان آخر حتى لو كان ابنه؟

إنه يوم القيامة لا ريب فيه، سيارات الصليب تأتي وتروح كل يوم، تصل إلى بوابة المخيم ثم تقفل عائدة بسبب منعها من الدخول، وابتسام! ما الذي سوف يكون عليه مصير قدمها المصابة ؟ هل تموت أم تعيش ألمحت الأم بأسى أمام حماة ابنتها التي استغرقت في ذهول مخيف. صارت أم حسن مثل جلمود الصخر الذي لا يهزه شيء، ولا تطاله بروق أو رعود. هيكل بشري من الملامح المشدودة والحزوز القاسية على الوجه. صنم لا يتكلم. حتى عندما حقق المقاتلون معجزة العثور على طحين جديد بعد الانقطاع الكلي للدقيق، فإن أم حسن لم تتبس ببنت شفة استحسانا أو حماسة للاكتشاف العظيم الذي توصل إليه مسؤول في التنظيم الشعبي. تفتق

ذهن محسن عن فكرة لامعة. تهيأ له أن أكياس الطحين الموجودة في مستودع وكالة الغوث الأونروا لا بد أن تحمل بقايا غبار الطحين المتبنى بين أنسجتها. ذهب متطوعون كثيرون من المدنيين إلى المستودع وساهموا في نفض الأكياس الفارغة. وماذا كانت النتيجة مائتا كيلو طحين عدا ونقدا كما صرخ حسام الذي طر شاربه حسبما اعتقد بسبب المهمات الرجولية الضخمة التي شارك فيها. وقف أناس كثيرون ينفضون نسيج أكياس الخيش إلى أن تجمع لديهم مئتا كيلو حسب قبان مستودع وكالة الغوث. وهكذا صار من الممكن اطعام المقاتلين الذين يصعب تغذيتهم بطحين العدس المفتت. أولئك الذين لم تعد أم حسن تجد البهجة القديمة في إعداد الخبز لهم منذ استشهاد ابنها، ومنذ حادث القذيفة التي أودت بإبن الجيران أمام سمعها وبصرها. لم تتذمر العجوز التي داهمها العمر مؤخرا. لم تحتج ولم تستبدل طقوس مقاومتها أمام النار التي تظل مشتعلة طورا بأقمشة الستائر وطورا آخر بفتات أخشاب لا يعلم إلا الله وحده أو حسام السعدان من أين تسنى لها الحصول عليها. كل ما حدث لم يزد عن كونها صارت أكثر هدوءا ورزانة وقلة اكتراث بما يستجد وكأن العيش مهمة قسرية على المرء المرور بها مثل التجنيد الاجباري: لم يعد يؤثر فيها شيء، ولو حرقتها النيران فإنها كانت ستنظر بصمت بليغ وتغمض عينيها مغمغمة بعبارات لا يدركها أحد سواها. حتى في ذلك النهار الذي أحضرت فيه خزنة حمولة جالونات من الماء إلى

البرميل المرتكز على زاوية غرفة في الطابق السفلي، فإن أم حسن لم تفرح ولم تهتز أخبرتها خزنة أن أطباء المركز الصحي جمعوا مازوتا وكازا من المصابيح المتواجدة، وأنهم أفرغوها في موتور بئر المركز الصحي لسحب جرعات الماء الأخيرة وتوزيعها على المدنيين بعد استحالة الاستمرار في اجراء عمليات جراحية إثر نفاذ الأدوية والأمصال وكافة المواد الطبية. أخرجوا دفعة الماء الأخيرة بالمازوت المتبقي بعدما تأكدوا تماما أن لا عمليات جراحية مهما كانت بسيطة أو صغيرة بعد اليوم. الماء! زينب وحدها قدره حق قدر لأنه وفر عليها عذاب اعطاء الأطفال قطرات لا تكفي لسد عطش أي منهم. ليوم واحد صار باستطاعتها أن تغدق عليهم الماء كما لو أن المطر وعدهم بالهطول. استمرت تلك السعادة فترة وجيزة إذ أن عشرات الأجساد التي نامت على أرضية غرفة الطابق السفلي صحت في اليوم التالي على الماء الذي ينساب بين الأكتاف وخلف والظهور والأقدام. كانت يد عابثة لأحد الأطفال داخل الغرفة قد لعبت بالحنفية الموصولة بالبرميل، فأرختها وسيبتها كي تنقط الماء على أرضية الغرفة وسط الظلام الشديد.

الدهشة، أم الذهول؟ لا فرق، المهم الاحساس والتنبه. فكرت خزنة بأسى شديد وهي تنظر إلى عائشة. كأن الناس في واد، وهي في واد آخر عايشة، يا عايشة! نادتها بحنان فلم تسمعها الفتاة الغارقة في سرحانها. تركت خزنة المكان دون أن تقدر ما الذي سوف يجري صبيحة الغد. خلفت

وراءها رائحة القنب المبلول المتبخرة من الحصر المرنخة بالماء. ونثيث الزنخ المتراكم على الأجساد المحرورة، وفوحان رائحة العرق المختلط بالبارود والغبار.

الماسورة الأخيرة، تكسر أنبوب الماء الوحيد الذي لم يطله القصف، ظل الناس يتبعونه ويتتبعون فتحاته التي تسيل منها مياه شحيحة لا تظهر إلا مع مطلع الفجر إلى أن تتشظى، وما عاد يسيل إلا في الجهة الأخرى، المقابلة والمضادة، التي لا تدخر شيئا كي تبيدهم. اشتغلت أجهزة الإشارة بالطاقة القصوى في ذلك المساء الذي بات فيه معروفا لكل المخيم أن نهاية المعركة صارت وشيكة جدا، وأقرب من حبل الوريد. كان بلال حسون الذي هرب معظم عناصر تنظيمه قد نشر إشاعات كثيفة عن العفو الذي ستمنحه الكتائب لكل من يرمي سلاحه ويمضي. من الذي يمضي ؟ من؟ أجهزة الإشارة تعمل بكل عزمها واصفة للقيادة في الخارج آخر التطورات، فقد استقر الرأي نهائيا ومنذ انقطاع آخر قطرة ماء تسح من الأنبوب على خروج المدنيين تحت إشراف قوات الردع العربية والصليب الأحمر ليس هنالك من حل بديل.

أعود إلى الليلة الأخيرة التي انطلقت فيها أم جلال مرغمة إلى البئر الخطرة التي أوشكت أن تموت على سياجها قنصا ذات يوم. وأراها وهي تدلي الدلو في البئر كي تسحب ماء لأولادها، الأرملة فيهم والمصابة والولد الطائش الذي يستقر في مكان مرتين. تفتش عن قطرات ماء لأبناء زينب

الذين دب فيهم الوهن دون أن تخفت أصواتهم المحتجة وغـــم الحمى التي بدأت تسري في أبدانهم. رمت أم جـــلال الحبــل وانتظرت مع النساء القليلات كي تسحبه، الا أنه تلبــــث فــي مكانه وكأنه قطعة حجر لم تفهم أم جلال السبب، فظلت تشد، إلى أن خطر لها القاء نظرة نحو جوف البئر أرجعت رأســها إلى الوراء سريعا، بعدما تبينت الحزم السوداء الطافية فــوق وجه الماء، كانت شعورا آدمية لنساء، أو فتيـــات، لا فــرق. تفطنت أم جلال إلى ابتسام. تذكرت الدماء التي انسكبت منــها في سطل الماء لدى إصابتها. لكن خاطرا أشــد إلحاحــا بــدأ يراودها. لقد انتشر خبر الانسحاب الوشيك من المخيم. قيل ان أجهزة الإشارة تلقت أمرا مفاده:(عسكري، دبّر رأسك). كــانت تعرف أنها الساعات الأخيرة قبل المغادرة بعد فقدان مصـــدر الماء الوحيد. دارت في راسها الفكرة رغم الغثيــان. سيشـنع المهاجمون بالبنات عند الخروج. فماذا ستفعل بالفتاة العـــذراء التي بقيت تحت مسؤوليتها ؟ ماذا ستفعل بابتســـام كيــف تشرح لها؟ لا. هذا مستحيل. لا. من الأفضل أن تفكــر فــي طريقة تتخلص بها منها منذ الآن. تقتلها قبل أن يحيــق بــها العار الذي لا يُمحى. كيف يمكن للصغيرة أن تواجه الدنيا فيما لو؟ لا ستتركها في البيت نائمة علـــى ظــهرها، وترحــل، فتموت عطشا. لأن هذا أهون من الكارثة الأخرى. تذكـــرت أنها تركت الفتاة بصحبة السيد عند مدخل بناية مهدمة قريبـــة من بيتهم. ابتسام. يا ابتسام، ماذا أفعل؟

فكرت الأم وهي تخلي الدلو من مـزق أجساد القتلى وأعضائهم المتشابكة المغروسة في المـاء الضحـل. حملت وعاء السائل المختلط برواسب الدماء، ومشت. تركت البئر، وخلفت وراءها شعور الفتيات الطافية المترجرجة فوق المـاء العكر. ولم يفتها أن تلمح في طريقها أجسادا خائرة لنساء متعثرات يحملن أوعية الماء فيما بقع الدمـاء متناثرة على وجوههن.

بين الخيط الأسود والأبيض كانت منامات أم جلال دائما. سكنت قليلا، ولاح لها وكأنها أغمضت عينيها وهـي جالسة على مدخل البناية المهدمة. فارقتها شجاعة النظر في عيني ابتسام الملقاة على لوح خشبي تحت السلم. صحت على يد السيد ذي اللحية الطويلة الممتلئة شيبا، وهو يهزها

قومي لازم نروح.

فهمت أم جلال فحوى العبارة فورا. المغادرة، إذا. تمالكت جسدها المرتخي الثقيل، واستعادت صور حلمها الكثيف

شفت حالي نايمة. فتحت عيني، لقيت حالي حاملة عفشاتي ورايحة. رحت على صحرا بيضا. بيضا. مشيت في رمل لونه متل التلج. وصلت على بيت أهلي بعكا. فتت على الحي ومشيت بين البيوت بيت بيت. لقيت حالي متذكرة كل الطرقات، والأشجار، والمحلات. دقيت على باب بيتنا، طلعوا الساكنين بالدار. قالوا: شو اللي جابك ؟ قلتلن: هادا بيتنا.

قالوا: البيت لأهلك، وإنت متجوزة في لبنان. شو لك علاقة؟ قلتلن: لا ! وإذا كنت متجوزة ؟؟ هادا بيتي. بيت أهلي وقرايبي. هم يحكوا، وأنا أتفتل بأذيال الحيطان. فيه عنا شجرة ليمون في البيت. شجرة حامض كبيرة. قاصين شوية منها. صرت أبكي عليها. قعدت في ساحة البيت، وأجوا الجيران يسلِّموا علي. ساعتها شفت شرطة بيلحقوني. يّدقوا باب البيت، حتى يأخذوني. والا ما شفت إلا جارتنا غزالة اللي ساكنة جنبنا بالضبط. قالت لي: صرت صبية وعندك أولاد. طلعت أنا وإياها وإلا العرس قايم، والأضواء مشتعلة. كلّه ضواو في ضواو يعني عرس. شؤوم قلب لحالي لمن فقت.

التلج. يَما، التلج. صحرا بيضا، بيضا. وأرض واسعة، واحنا بنغني ونرقص فيها"

حكت أم جلال منامها للسيد الذي بان على ملامحه ارتياح غير متوقع، قال:

حلمك من دون معنى المهم أنه نطلع من هون. إحمدي ربك اللي بعدنا عايشين.

تطلعت أم جلال حواليها بقلق وتساءلت:

وابتسام. كيف بّدنا نطلعها؟ سمعت أنهم يقتلون البنات على الطريق.

لم يفكر السيد ذو العينين الحمراوين والسحنة المكفهرة فيما رمت إليه زوجته، قال:

إذا كان على إصابتها، أنا أحملها على ظهري.

وأردف:

نذر علي ما أشرب ولا نقطة مشروب بسط نطلع من هون. حتى السجاير أبطّلها. لم يبق أمام أم جلال ما تفعله بعد الآن. فقط، هنيهة واحدة لتجلب شيئا، وركضت صاعدة إلى سطح بيتها المصدع الذي تكشفت صفائحه التنكية عن شروخ وتمزقات لها شكل مناشير معدنية ذات أسنان وحشية. بغتة، سطعت الدالية أمام عينيها، فنسيت ما الذي حضرت من أجله. ما زالت الدالية تتسلق الجدار، لكن عناقيدها التي انتظرتها بشوق طويل لم تنضج إلا الآن. تشرئب حلوة، ومثقلة بالعصير مدت أم جلال يدها، ثم أحجمت. إنها المرة الأولى في حياتها. لم يسبق وأحست بأن هناك شيئا جميلا يُمنع إلى درجة تحريمه على الناس رغم حاجتهم الماسة إليه. حرام العناقيد لا يجب قطفها. تتركها مدورة بلألائها، فهذا أفضل. تبرق حباتها الناضجة مثل عناقيد الجواهر الكريمة. خليها، لن تأخذها. وارتدت يدها فارغة إلى حجرها. علا عند ركبتيها دوي احتكاك قاس لم تفهم مصدره. أهي القذائف تلحقها إلى هنا لكي تعلن نهايتها؟

ارتطم شيء بأسفل بطنها. لكنها ما لبثت أن ميزت حسام نوا. يندفع إلى الدالية مثل سهم مشتعل. أمسكته من ذراعه، وشدته باتجاهها، وسألته:

ليش جاي فوق يا حيوان. كنت راح أجيب لك عنب. استحي على دمك وانزل أحسن تجيء عليك قذيفة والا مصيبة. إنزل وله.

تفلت الولد من بين يديها وهو يجأر

ولك، اتركيني. عايز فلوسي.

عرفت أم جلال مقصده. كان يحكي عن قطع النقود الصغيرة التي دفنها في تربة البرميل الذي زرعت فيه الدالية. أخفى فرنكاته القليلة هناك بيقين راسخ أنها ستكبر، وتثمر شجرة ذهبية في أحد الأيام.

حمل السيد ابنته على ظهره، ومشى مترنحا كما لو كان على شفا جرف عظيم. حاول، وللمرة الأولى منذ أشهر أن يدرب بصره الكليل الذي اعتاد عتمة المداخل والزوايا المهدمة على التطلع إلى الفضاء من جديد. لم يعرف الطرق والإتجاهات، وعجب من أمر المخيم، هل أن القصف غيّره إلى هذا الحد؟ ام أن بصيرته الواهنة ذبلت وانطفأت في غياب الخمر؟؟ كانت أم جلال منطلقة أمامه بخفة فائقة لم يعهدها بها. كانت تغذ الخطى في ضياء الفجر الخفيف إلى ساحة الدكوانة. عرف منها أن المقاتلون أعطوا إشارة المغادر منذ بدء المساء. وأن معظم أهل المخيم حاولوا اللحاق بهم، والخروج عن طريق مسارب الجبال، إلا أن الاشتباكات تركزت هناك. فعاود الجميع التوجه إلى المخيم. قالت أم جلال أن الناس أخذوا أهبتهم للخروج عن طريق ساحة الدكوانة كما

نصحهم بلال حسون الذي ظهر الآن، وبـــرّر احتجابـــه عـــن الأنظار مدعيا أنه كان منهمكا في التفاوض مع الأعداء. نصح الناس بالتوجه إلى بيروت عبر ممر إجباري تضمن فيه سلامة السكان دون المساس بهم. استسلم السيد إلى أفكاره المضطربـة الهاذية. بدأ يتذكر مناما غامضا رآه في إغفاءة عابرة. لم يكـن يتوقع هذاالحلم على الإطلاق. ولم يكن باستطاعته أن يزيحـــه من دماغه وظل ينز بداخله قطرة إثر قطرة:

ما شفت حالي الا على حدود فلسطين. كيــف أمشـــي، وأقطعها ! والله ما عارف. أسلاك وأنتينات تلفزيونات كثـــيرة منثورة على الأسطحة. ما شفت حالي الا بفوت. بدي أدخـــل. طرب لفوق. رجعت والا لقيت حالي في بيروت. زعلت. قلت لحالي: ليش أنا بعدي هون؟ أغمضت عيني، والا شفت حـــالي راكب على حصان البراق عليه السلام. راس الحصان علـــى شكل بنت حلوة. شفت حالي بنص فلسطين. شفت أهلي بس ما عرفتهم. قام واحد في الشارع يعمل مشكلة معي. مددت يـــدي على جنبي. سحبت الفرد، وبدي أطخ. حملت المسدس. لكنـــي فقت من النوم

اللحظات الأخيرة، والمخيم لم يعد هو المخيم، اكتشـــفت هناء كم أنه تغير أثناء مكوثها في المكتب المحصن الأبـــواب بأكياس العدس. كانت قد تعودت على العتمة وعلـــى انطفـــاء الألوان، ودق سمعهاحتى صارت تميز أصغرالحركات في عز

القصف. كم أزعجها انصاتها اللاشعوري لخشخشة احتكاك أجنحة الصراصير ببعضها. تدب في زوايا الغرفة هادئة، تتعارك وتتوالد، رغم انخساف الأرض فوق رؤوس أهلها. عندما كانت صغيرة، ظننت هناء أن الحشرات لا تتكاثر إلا على فضلات الإنسان. وأثناء احتباسها أمام جهاز الإشارة قدرت أن الحشرات سوف تختفي داخل شقوق الأرض سعيا وراء معظم الناس الذين دفنوا فيها. لم تدرك إلا الآن ما يعنيه الخراب الهائل الذي حاق بالأرض التي ألفتها. أصابها غم شديد، وأحاطت يد فولاذية بعنقهاحتى أوشكت على الإختناق. كأنها آتية من عالم آخر، بعيد ومختلف. كثيرا ما صدمت بأخبار موت الذين تعرفهم أو تألفهم. لشد ما احترقت عيناها بجمر الدموع المكبوتة التي لا تجرؤ على إظهارها خوف المساس بالروح المعنوية للآخرين. لكنها لم تدرك في انغمارها الشديد ذاك، لم تتصور أبدا أن الحال في الخارج على هاته الصورة، كل شيء محطم ومهدوم، كل الدور والأبنية ساقطة فوق بعضها بعضا، طوبة حمراء وراء حجر، لا تشهد إلا العواميد المكسورة، وقضبان الحديد الملتوية، والحفر الهائلة، لو أخبرها أحد ما الذي سوف يواجهها لفضلت أن تبقى في مكانها، وأن لا تتحرك مهما جرى، صحيح.

وعاودت تذكر المشادة العنيفة التي قامت بينها وبين جورج وهو يناشدها أن تنضم إلى الخارجين عبر شعب الجبال، وهي ترده بعناد أعمى منحاز إلى جانب أمها. كانت

أمها قد بعثت لها بأنها تنتظرها كي تخرج معها. حينما خبرت جورج بقرارها، تطلع إليها باستغراب ودهشة، قال:

غريب أمرك يا هناء، أمك مدنية وما حدا يحكي معها. المهم إنت. افرضي أنهم استدلّوا عليك، كيف تخلصي حالك؟ أين هو رب السما الذي يخليهم يتركونك؟

ما حدا بيعرفني، بغير شكلي ولبسي. وما حدا يعرفني.

أصر جورج عليها، ولم تقبل. احتد معها، ولم تذعن. قال:

- من يشوفك استقلالية وقوية لا يعرف كم إنك مرتبطة بأهلك. اتركي أمك تطلع وحدها. لن يجرى عليها شيء. خليها تطلع مع بقية النسوان، ولا تشغلي بالي.

- ألا يكفي خطف أبي؟ لا، والله، أنا مسؤولة عن تأمين أمي قبل نفسي.

سارت هناء ومرارة هائلة تقودها وتتحكم فيها. لم تظن أن العالم في الخارج متهدم وقبيح إلى هذا الحد. افتقدت حنو جورج والحماية التي يسبغها عليها، لكنها غذت الخطو الى الملجأ الذي تقبع فيه أمها بيقين غامض أنه لم يعد هنالك وقت أو مجال لتغيير قرارها.

دب الإرتباك في الملاجىء. تطايرت الأنباء مثل النار التي تسري في الهشيم. كان الجميع يشهق كلما سمع العبارة

ذاتها: عسكري دبر رأسك فيخف من فوره الى الأولاد يجمعهم، أو إلى الأبناء الكبار ليدبر أمر نجاتهم. كأن تلك العبارة البائدة، التي لم يسمعها أحد منهم إلا عن روايات السفر برلك في العصر التركي، قد أوقدت فيهم ما توقعوه وما لم يتوقعوه قبلا. صار كل منهم ينتبه على صدى خرافي يتردد في قوقعة أذنه. قرع خارق لما اعتادوا عليه حتى إبان مراحل مراحل القصف الثقيل. تساقط عنيف لشلالات دموية متوحشة. بغتة، على سطح البحر المائج الذي كانوا يعومون فيه ظهر خيط رفيع من الدماء يؤكد أن مقاومة الإعصار لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، أن لا بد من ظهور سمك قرش مفترس. أن الدور آت لا محالة حتى على الذين بذلوا كل ما بمقدورهم خوف حلول هذه اللحظة. اعتاد كل واحد منهم تأجيل التفكير في هذه النبضة الزمنية التي لم تتوقف عن الإنحدار نحوهم بجنونها كاملا. الأجساد المثخنة كانت سدا يحول دون انهمارها عليهم. جداول الدماء كانت قربانا يمنع الأسنان المدببة من الإقتراب منهم. الأشلاء المتطايرة بفعل القصف في الطرقات كانت فداء يحمي انتهاك أرواحهم. حتى ابتسام الصغيرة رفعت اصابعها كي تغطي العينين. شيء غريب تشمه مع الهواء الحار المثقل برائحة الجيف المتراكمة على جانبي الطريق الخارجة من المخيم.

الرعب. والجثث. وآمنة التي بعثتها أم حسن لتقصي الأخبارفي أول الحارة. رحل من الجيران من رحل، عدا أم حسن التي كانت تماطل مع أم مازن في التحرك، أملا بمعجزة

تعطل هول الوقوع بين أيدي المحاصرين. منذ أن عم الملاجىء قرار التسليم، والجموع تتدفق إما بإتجاه الجبال المحيطة بالمخيم، أو باتجاه الدكوانة ذلك الممر الإجباري الرهيب. الأيدي والأرجل المقطوعة المنتشرة على طريق الدكوانة، الذباب الأزرق الذي يمتص عروقها كانت خير دليل على مصير من يختار ذلك الاتجاه. اتخذ المقاتلون أهبتهم للخروج عبر طرق الجبل الوعرة باتجاه قرية صغيرة اسمها المنصورية، على أمل اجتياز الخطوط المعادية من هناك، والإلتحاق بالمناطق الوطنية. انضم إلى الصاعدين معظم الشباب والشابات بسبب الحس اليقيني الذي اعترى معظمهم بأن المخاطرة عبر المجهول أفضل من الإنصات إلى المكروفونات العديدة التي تعالت أصواتها على حين غرة من ناحية طريق الدكوانة داعية الناس إلى خروج مأمون.

استنتجت آمنة بخبرتها العسكرية المستجدة، منذ درجت على الإتيان بالمياه، ولاحظت أن وجوه الأجساد المرمية في الطرقات تتجه نحو المخيم، بأن الطلقات قد أطلقت عليها من الظهر. ترداد أصوات الإشتباكات الدائرة على طريق الجبل أشعرتها بالطوق الجديد الذي ضُرب على الخارجين. سمعت من بعض الراكضين عن قيام اشتباك مع مجموعة عبد الله حمدان التي كانت أولى المجموعات المغادرة عبر تلك الطريق. سرعان ما بدأت المجموعات العائدة تتدفق من جديد نحو شوارع المخيم. أجبرت جموع الناس المائجة على النزول من جديد صوب طريق الدكوانة. أما المقاتلون الذين اضطروا

إلى الإنسحاب بسبب عنف الرمايات المضادة، فقد رجعوا إلى المخيم، ولاذوا ببعض البيوت المهجورة دون أن يدري الأهالي بعودتهم. في الفوضى وعجيج الرحيل القسري، ووسط أصوات بكاء الأطفال وعياطهم المتصاعد، لم ينتبه السكان إلى من رجع أو غادر جمدت الحوائط المهدمة والأنقاض المتراكمة، وارتفعت سدود ترابية عشوائية كدسها القصف التدميري كالزلزال حين يلفظ حمى الأرض الباطنية. وفي مكان البيوت المألوفة ارتفعت أكوام هائلة من الخرسانة والحجارة وألواح الزنك الملتوية. كان بإمكان آمنة أن تضل طريقها لو أنها حاولت الإبتعاد أكثر عن منطقة بيتهم. أرادت إيقاف العابرين والإستفسار منهم عما يحدث في حاراتهم وأحيائهم، لكن أحدا لم يجب على اسئلتها. الجميع في ركض ولهاث مثل يوم الحشر وحدهم الذين يحملون جرحى أو أطفالا هم الذين يبطئون في مشيهم. الناس أشباح تهرول في عز الظهيرة. تنساب حولهم دوائر زرقاء من أبخرة الجثث الفاسدة تحت الوهج. رأت آمنة، رجلا يحمل زوجته على ظهره فيما تتجرجر أقدامها على الأرض خلفه. كان الرجل مريضا، أو هكذا تراءى لها، والمرأة مصابة ومغمى عليها، أو ربما أنها لأن بضعة كلاب تبعتهما بصمت ورغبة نهمة في انتظار اللحظة التي تسول فيها للرجل نفسه إلقاء المرأة عن ظهره المنحني ، وتركها خلفه.

رجعت آمنة، وأخبرت أم حسن التي كانت تتداول أمر التحرك مع جارتها أم مازن. كانتا تتشاكيان صعوبة التنقل. أم

حسن تندب حظها العاثر الذي يدعوها للخروج بموكب من النسوة والأطفال دون رجل عدا العجوز "الختيار" وأم مازن تنتظر زوجها الذي ذهب كي يفتش عن أولاده المقاتلين ولم يبن حتى الآن. استقر الرأي على عدم التوجه إلى الدكوانة عن طريق الجامع الذي عرفت آمنة أنه تحول إلى مقبرة جديدة للجرحى الذين لاذوا به لعجزهم عن المشي. تجمع في ساعات الفجر الأولى كثيرون منهم، لكن القوات المعادية وصلت إليه وقضت على من كان فيه بالقنابل والرشاشات. قررت النساء المشي في درب غير مألوفة لكنها تفضي إلى المنطقة الغربية دون المرور بالمراكز الكتائبية المعروفة لهم. سيمشون باتجاه الغرب عبر طريق معمل الزعتر ثم معمل العدس، فلعل وعسى. قالت أم مازن أنها لازالت تنتظر شيئا يطمئنها عن أولادها المقاتلين. وذكرت اسم علي سامر بينهم، رق قلب الفتاة، وكبحت ابتسامة عريضة كانت ستظهر على وجهها، أخيرا، ها هي تكتشف أهله على الأقل أيكون علي سامر ابن جيرانهم الخصوم دون أن تعلم؟ لكن، كيف كنيته لا تمت إليهم بصلة. إنهم من عائلة جابر وهو وحده سالم، فكيف اذا ذكر محور الماء أكد لها أنه هو، لذا أجلت السؤال كي تعرف جوابه بعد الخلاص من هذه المعمعة.

أما عائشة، فلشد ما كانت تبدو بعيدة كل البعد عما يجري حولها. فكرت آمنة وهي تتابعها بنظراتها. كأنها فقدت ملكة النطق منذ اليوم الذي مات فيه ابن جورجيت، أهي خائفة إلى هذا الحد على النطفة التي تضمها أحشاؤها ؟ لم تقتنع آمنة أن

عائشة حامل أصلا. لا شك أن المسألة لم تكن سوى وهم تلبسّه لتكسب بعض الاهتمام الزائد. والا فلماذا كفَّ عن ذكر الحمل، وأهملت الموضوع كأنه لم يكن بكاء عائشة وانسياب الدمع الدائم على خديها أشعر آمنة بازدراء لا كابح له. لا شك أن بكاءها الآن سوف يصيب القافلة بطابع الشؤم ذاته الذي أضفته على زواجها.

كان أهل الحي قد تجمعوا على مدخل الحارة، وابتدأوا المشي في موكب يتزايد سيئا فشيئا. من تحت الخرائب كانت تبرز وجوه جديدة لم يعرفوها من قبل، أو أنه يلزمهم الوقت لإعادة التعرف عليها بكل ما حاق بها من تغير.مشت أم حسن تسند بذراعها أبا حسن الذي تلفع بحطته الموشحة بمربعات بيضاء وسوداء، وارتدى قمبازه المخطط وعباءته العربية المطرزة الحواف بخيط ذهبي ممزق. تسوقه زوجته إلى الأمام رغم عصاه التي يجس بها الأرض مرتين قبل كل خطوة. وأم حسن، بغدفتها البيضاء التي ردّتها إلى ظهرها، وبنطال البيجامة الرجالي الذي يبين من تحت فستانها، لا تكف عن ترديد آية "الكرسي"، تتبعها بآيات أخرى تكف الشر عن صاحبها، وتحفظه من كيد الأعداء وتيسر طريقه ونجاته. زينب كانت تمشي قرب كنائن أم مازن التي انتظرت واحدة منهم زوجها الذي صعد إلى الجبل دون أن يخبرها أحد عن مصيره، أو عن إمكانية نجاح هروبه. وأم مازن التي عجزت عن تدبر أمر انتظار زوجها الذي خرج باحثا عن أخبار أولاده، وزوجة الإبن الآخر الشهيد الذي أصيب إصابة قاتلة

على التلة المسماة "سلاف" وكل واحدة من الكنائن تقود أولادها المتعلقين بذيول أثوابها. انضم حشد من أهل الحارة إليهم، تبعه حشد آخر من الحارة التالية، إلى أن تجمع موكب طويل يشق طريقه بعشوائية، وبما هو أثقل من الرعب، بعدما تناهت إليهم أخبار الراجعين من شعب الجبال الممتلئة بالعوسج والزقوم والعلقم الشوكي. وعلى الأخص عندما أخبرهم أحد الشباب المنضمين إليهم عن المجازر التي ترتكب داخل المخيم، أمام الكنيسة، وقرب استديو فوزي.

الرعب، الجثث المرمية، والكلاب الضالة التي تتناوش الأجساد الآدمية طمعا في عضو آدمي أو مزق لحم بشرية. العيون الزائغة والهامات المرتجفة وأم حسن تناجي نفسها، تقول: ياليت أني طير لأطير، وأطلع بالسما من هالظلم ومن هالجوع والعطش اللي الصغار أولاد فايز يعانون منه. هيه يمّا يا حسن هيه. ناس تموت وناس تقل تمشي مع أبي حسن وترى طرف سرواله الأبيض الذي كانت تفاخر بنظافته وقد تحول إلى ما يشبه شرشفا متسخا يهبط من تحت القمباز تغبط العجوز بينها وبين نفسها لأن نظره الضعيف، وسمك عدستي نظارته، يمنعه من تملي الجحيم الذي يعبرونه دون إدراك للنهاية الوشيكة. أراد سؤالها عن إتجاه مشيهم، فهمست له بصوت تحذيري كي يخفي صوته، ويسكت خوف تنبه الأعداء لهم. كانت له طريقة مميزة في إعلاء صوته لدى الاستفسار عن شيء يعجز بصره الكليل عن الاحاطة به. أصوات الاشتباكات لم تزل تتردد من ناحية الجبل؛ وصليات عيارات

نارية تتوارد من عدة اتجاهات. هدأت وتيرة القصف المدفعي وبدا وكأنه يأتي من أرض بعيدة ليست هنا. سحب أبو حسن خطواته المتثاقلة وهو يراجع الحلم الذي راوده عندما فتح عينيه ليصلي صلاة الصبح.

ماشي في ارض فلسطين. على حدود نجمة الصبح. ماشي وحامل البارودة على كتفي. وإلا هالخيّال على فرس زرقا جاي دقّة دقّة. جاي خيّال أخضر مثل الربيع. سألني بدك شيء؟ قلتله: بدي سلامتك، قال: وين رايح ؟؟، قلتله: مش عارف.

في تلك الأثناء انفصلت خزنة عن الفريق الطبي الذي انتظر عبثا سيارات الصليب الأحمر، فدخل بدلا عنه عناصر من تنظيم البرق طالبين منهم الخروج والتسليم عن طريق الدكوانة بضمانات السلامة للجميع.

ودعَت خزنة الفريق، ومعهم الياس العشي على أمل ملاقاته في مركز الاسعافات القائم في المنطقة الغربية. ذهبت خزنة إلى بيت أهلها ناوية اللحاق بهم ومساعدتهم أثناء الخروج. حملت في جيبها زجاجة حبوب الفاليوم لتهدئة الأطفال. ركضت برجلها الثقيلة على قدر ما وسعها الركض كل تلحقهم قبل أن يخرجوا هنا أو هناك. ظنت خزنة أن خروجهم معها، وخروجها مع الطاقم الطبي، سيكون ضمانة

لهم كما فهمت من الطبيب أشرف بدران. لو استطاعت أن تجدهم فسوف ترافقهم وهي ترتدي ثوب الممرضات الأبيض فلا يفكر أحد في التعرض لهم بسوء. ربطت خزنة ثوب التمريض الأبيض على خصرها كالحزام محاذرة ارتداءه خوف لفت الانتباه داخل المخيم. لن تلبسه إلا في الدكوانة، حتى لا يتسخ وتضيع هيبته أمام الأعداء. ستبقيه ملفوفا على خصرها، ثم تفرده وتعاود وضعه عليها هناك. لو كانت سعيدة الحظ فستجدهم متهيئين للحركة توا. كان الحي فارغا كالأحياء الكثيرة الأخرى التي يتصاعد الرماد والبخار الأسود من ثقوب حيطانها المتداعية أو الساقطة. ردم على ردم. أشاحت بوجهها عن جثث الشبان المرمية في عرض الطريق والدماء لم تزل تسيل حارة من أجساد بعضهم. غنم، وليسوا بشرا، هكذا فعل بهم من قام بذبحهم. غنم، والله غنم. انتبهت إلى حالها وهي تحادث نفسها بصوت عال. كأنها تندب، هي التي لا تريد الان سوى السلامة لأهلها. خافت من صوتها، وابتلعته كمن ارتكب ذنبا لا سبيل إلى غفرانه.

في الطابق الأرضي من العمارة ذات الطوابق الثلاث المتهدمة، وجدت الستارة الغامقة تتطاير على الباب الخارجي، وقماشة الستارة تتهادى وحدها بين الأبخرة والحرائق التي وصلت نيرانها إلى الحي بعد سقوط الحارات المجاورة وإثر الاحراق المتعمد للأحياء الأخرى. هبط قلبها إلى أسفل كعبيها. خسف الى باطن الأرض، لشدة دهشتها واضطرابها، وهي تعاين آثار غيابهم عن المكان. تنظر إلى الماء الذي يغمر

الجنابياب والفرش ولا تفهم لماذا وكيف ؟ هل أنهم ماتوا جميعا، ودفعة واحدة. أين الجيران إذا؟ لن تطيل التفكير ارتدب على أعقابها بأقصى سرعتها كي تلحق الطاقم الطبي أثناء عبوره، وكي لا تظل وحيدة في غياب أهلها.

كانت تحمل نفسها وتمشي. لم تعرف عائشة معنى حمل المرء لنفسه إلا في تلك اللحظات. يجول في رأسها حلم غامض بأن تسند رأسها إلى ذلك الحجر الذي ترتكز عليه جثة شاب مجهول. تضع رأسها على كتفه، وتنام نوما عميقا لم تعرفه من قبل. تغفو وتطير إلى موسيقى الناي التي سمعتها مرة في طفولتها ولم تفارق ذاكرتها. تريد أن لا تشم هذه الرائحة الملبدة العكرة الوسخة لآلاف الجثث الفاطسة المتعفنة المتحللة المتخثرة الدماء ذات اللون البنفسجي الأكحل البني الأزرق الملطخ بالغبار يا ربي. كل هذا فعلته بنا ؟ لماذا يا ربي. أسألك إن كنت لا تزال هناك في الأعالي لماذا ؟ وجع رسغها الأيمن. تحتضن رسغها الأيمن بكفها اليسرى، وكأن هناك من هو قادم كي يذبحها توا. عايشة، يا عايشة. ملحقناش نتعرف عليك وحبيناك. كان حسن يخبرها. وأنا ملحقتش أتعرف عليك وأعرف لون شعرك ووجهك حتى رحت للكنيسة. يا ويلي. آهه. هيه يا صبيان العرب. هيه تقول أم حسن التي كفت عن شرب القهوة في الصباح، وعن النظر إلى الآخرين وعن تفقد أحوالهم بالرقة السالفة. لم تعد تتعرف على عائشة، كأنها لا تحمل زرع ابنها في أحشائها. لكن لماذ لماذا يا ربي. بس عشان الولد؟ معقول. فيه حدا بيحب حدا

والا بيحكي معه عشان يزيد السلالة ! يا إلهي، وأنت جاهي. تقول أم حسن. تقول. تحكي. معقول. وهي تمشي الآن ويتعكز الختيار عليها. بقدها المستقيم الأعجف، وحزوز وجهها الغائرة، وعينيها الصغيرتين اللامعتين. ستلد ولدا أو بنتا، هذا لا يهم. لكن لا دخل لأم حسن فيها بعد الآن. تجاهلتها وأهملتها، وعاملتها كالبقرة الرعناء. آه، يعني كأنها غريبة على العائلة.دخيلة عليهم، كأنها... والله كأني شحادة أو واحدة غُورا. العطش. والله ما عمري عطشت متل هلأ. وما بطلب منهم شي. ما بدي مي. لو أحط راسي على شي حجر في الطريق وأرمي حالي وأبقى مع اللي بقيوا. والله مش سائلة عن شي. وما عم بفتقد لحدا إلا لجورجيت. الشيء الصغير يكبر في بطني، ويُنمِل ويسري متل المية البارده في المصارين. يذكرني بالمسكينة الحزينة. والا شو؟ قال. قال. اللحم. والله عمري ماأدوق اللحم في حياتي.

وحلفت، وظلت تحلف لنفسها أنها أبدا لن تذوق هذا الطعم المر الكريه الذي يذكرها بالرائحة التي تموج لها الأمعاء غثيانا، فتخبط منافسها في حلقها، وتحاذر أن تتقيأ او ترمي ما بجوفها. كل هالمصايب ويوقفوا عشان عايزة أستفرغ. آه – هادا اللي كان ناقص علينا، ستقول آمنة المصروعة أم اللسان الطويل. أم الحكي وتركيب الأخبار والقصص الكاذبة. تحط حقدها علي. بكرة منشوف يا ست آمنة عم تظلمي مين الصحراء الصفراء التي أتتها في الكوابيس تعود، الكبريت الأصفر لا، لكنه. لا إنه دخان

احتراق الخشب والباطون والبناء ولحم الناس. يعني احتراق الشعور والأظافر والعظم. آهه يا ويلي على الغثيان الذي يتقافز في أحشائها. والاستفراغ القبيح الذي تدفعه جاهدة عنها كي لا تتوقف القافلة الحائرة الضائعة التي لا تجد من يدلها على الطريق الصحيح خارج المخيم. تلف، وتمشي، فكأنها داخل دائرة لولبية عبرنا معمل الزعتر بناء كبير وبشع وكله عنابر. ستأكل الزعتر، وتشم رائحته لو وصلت سالمة كل يوم. كل يوم. دون زيت زيتون. بس زعتر أخضر وحبات سمسم مخلوطة معه.اليباس. فقدان الاحساس بفمها وكأنه من الليف المعدني. النشاف. النشفان. والله الزعتر بس نقطة مي مع لقمة الزعتر. جثث ريحتهم طالعة. وجوههم ناحية المخيم.الشباب في عز الشاب. شفنا كومة مستفة فوق بعضها شفناهم. خفنا، وقفت الناس، قال الرجال الكبار اللي معانا: يا بنتقدم، يا بنرجع.

في تلك اللحظة، تقدم مقاتل لبناني يرتدي على كتفه الأيمن شارة حراس الأرز كان يحمل أشياء وأغراضا جمعها بعد أن كسر بوابة دكان فلسطيني. كأن مرورنا قطع عليه استغراقه في تحويش الأشياء أشار للموكب الطويل أن اتبعوني. وهو أخذنا. أدخلنا من معمل العدس، فغطسنا في أكوام العدس حتى الركب.العدس ينثال على قدمي رقيقا،باردا حبيباته تنثر مسحوقا وادعا على الأقدام المتعرقة الغاطسة في تأجج الحرائق. العدس أكوام فوق أكوام. وحين نعبر داخل تلاله الكثيفة، أكف عن البكاء وينشرح خاطري، وأنا أتذكر

ابتسام وحسام. وأين هما يا إلهي. وهل إن أمي تجيد الإعتناء بهما والخلاص ؟ ابتسام وحسام وأكوام العدس التي غرقنا بداخلها، واستحممنا بها، ونثرناها على وجوهنا وأيدينا، وأردنا أن نستخدمها للوضوء بناء على اقتراح ولد من الأولاد الذي حلف أن والده يتيمم بها في غياب الماء. والدي السيد أين هو الآن أما زال حانقا معتصما بحارته يأبى مغادرتها. بكى دموعا مُرَّة حين استشهد حسن. عبطني، غمرني وقال: سامحيني يا بنتي. مكنتش قاصد. إذا قال أحد أن الحرب تغير الناس فإنها ما غيّرت إلا السيد. كأنه كان هو وانقلب رجلا آخر. اللي معه شحاطة أو كندرة بيغطس بالعدس وبتطلع اجريه من غيرها. كلهم عم بيطلعوا حافيين. حتى أنا الصندل مربوط بإجري بالبزيم، وما عاد يتحرك. يا ريتني بقدر أحط شوية عدس في جيوبي، ليش؟؟ ما بعرف. يمكن لأني بحب المحل. العنكبوت اللي كان عالزوايا كبر وصار مثل أقواس أقواس فوق روسنا. يا لطيف اللي بيمرق حده بيلزق على راسه ويجعله أبيض مثل الشايب. أنا كمان صوت شايبة بعد ما لزق على رأسي. يا خضر الأخضر وين اليوم اللي إنت تبصر وهاي. واحدة عم بتنوح وبتسأل يا خيّي، شفتوا لي ولادي قال لها واحد: ماشفناهم. يا ويلك من الله خطيتهم. ضيعتي خمس أولاد وعم بتنوحي عليهم كمان ؟ لأ ما شفت حدا عالطريق. وهيه طلعت برا الموكب، وراحت تجوح وتنوح مثل الخوتا. جورجيت كانت تبكي. لا معلقة حليب، ولا نقطة. يا ريت تصير دموعي

حليب تأسقيه لابني. قالت. معرفتش كيــف طلعــت، وكيــف راحت من دون ما تخبر حدا. أم مازن كانت حاملــة مســدس ابنها اللي استشهد معها. قربت عليها آمنة وقالت: أوعك، يــا خالتي. هلأ، بيشوفوه وبيتبلوكي ؟ قالت أم مازن: هادا مــن ريحة ابني الحلوة، ومش مستعدة أضحي فيه. شــبكته بدّكــة سروالي، وما حدا رح يشوفه. لكن آمنــة الكاســرة قنعتــها، وقالت: مهّوة يا عمتي إلك ولادك الباقيين. شو رح يصير فيهم لو مسكوك بهالمسدس. إرميه أحسنلك. قالت أم مــازن: ويــن بدي أرميه، وهذا حراس الأرز ماشي معنا، وصحابــه قــدّام منه؟؟ قالتلها آمنة: هي العبارة قدامك. كبيّه فيــها ومــا حــدا منتبه. وراحت أم مازن نشلت المسدس مــن بيــن إجريــها، ورمته في المجرور الكبير اللي صرنا نمشي جنبه بعــد مــا طلعنا من معمل العدس. قرب تلة القيادة العامة واحنا رايحيــن على سلاف. شفتهم. الكتف بالكتف، شاكين الســلاح. طــابور كبير من الكتائب والأحرار أو حراس الأرز، والله مــا بقــدر أحدد. لكن القشعريرة. وقف شعر بدني. طابور طالع وطابور نازل. وكلهم في طوابير عسكرية. يا وردي، يا دلي. شــيء يخوّف الحجر وصلنا عندهم. استلمونا. أشهد أن لا إلــه الا الله، وأشهد أن محمدا رسوله. وقفونا في الساحة، وقالوا: كــل الرجال تطلع على جهة لوحدها. فرزوا الرجــال وأركبوهــم بسيارات، وراحوا. واحد اسمه ســليمان حــاول يتخبــأ بيــن الختيارية والنسوان. حاول يهرب. هو شاب صغــير، يمكــن لابس كنزة نمرة تسعة ولا عشرة. يركض وهــم يركضــون.

سمعنا صوت رصاص وراء ظهرنا. ما حدا قدر يدير وجهه ويتطلع. اللي كانوا ماشيين جنبه شافوا الدم نازل على وجهه وراسه. أمه كانت هناك ومش مسترجية تقول هادا ابني. ممنوع حدا يتطلع للوراء وإلا يموت. لكن الطامة الكبيرة أنهم بدأوا يقبضون على الأولاد الصغار عمر عشر سنوات وطالع. قال لأنهم حالقين شعرهم على الصفر. فمعناه إنهم بيساعدوا الفدائية. وقفت مرة تحامي عن ابنها. ترجتهم وقالت هادا طفل اتركوه، قالوا: لأ. اللي حالق قرعة معناه فدائي. قالت لهم: خافوا الله يا جماعة. كنا نحلق للأولاد خوف القمل. أي صلوا عالنبي. قالوا لها أي نبي! روحي لعرفات نبيك. وخليه يرجع لك ابنك. وسحبوه، سحبوه، من بين إيديها وهو يبكي ويصيح. رمت حالها عليه. طخوها بكل بساطة. كأن من يطلق يرمي على صخرة لا على امرأة. الكل قال الله يرحمها ويرحم ابنها في سره. والكل ما استرجى يحكي ولا كلمة. احنا قدام بنايات "المر ، والسيارات العسكرية مثل النمل حوالينا. ركبوا الشباب اللي قبضوا عليهم، وراحوا. تركونا وحدنا صف طويل من النسوان والختيارية مع شوية ولاد صغار

ضاع أبو مازن سمع من الراكضين أن أهل بيته خرجوا عن طريق المقبرة القريبة بالمكلس. مر عن طريق معمل البلاط الذي عمل به يوما وما عاد يتذكره. في زمانه عمل تقريبا في كل المعامل الموجودة بالمنطقة. لف ودار

فلمــا كبر أولاده، ترك عمله واستقر في البيت مهتما بشؤونه. في المقبرة، استرعاه وجود نساء مسنات كثيرات، طابور مــن العجائز الكحيانات الوحيدات، أخبر نفسه. وفاته أن أولادهـــن وفتيانهن وقعوا في شباك الأسر. لكن أكثر ما أثار دهشته أثناء مروره بين الشواهد الاسمنتية المصبوبة على المقابر هو هيكل عظمي لامرأة. الهيكل العظمي يبين لشابة ذات شـــعر أشــقر طويل متسخ ومتدل على العنق. كان الهيكل منحنيا على أحــد القبور في جلسة مناجاة طويلة. أتكون جورجيب تساءل أبـو مازن، عند الخروج من المقبرة شده أمام منظر النساء العجائز المحتجزات على أيدي فصيل كتائبي. لشد ما كـان منظرهــن غريبا، وواحدة منهن تأكل الصابون وكأنه شـــطيرة فلافـل. وأخرى تسف ورق الشاي الأسود المفروشـــة علـــى كفيـــها. ورجال يضحكون ويتمازحون فيما هم يراقبون المشهد الـــذي تطل عليه حراب بنادقهم باستمتاع. لم يستطع الشيخ الطويـــل القامة إلا أن يتدخل. شعر أن الأمر قد يكلفه غاليا، لكنـــه لـم يكن من النوع الذي يقبل التراجع إذا نوى علــــى أمــر مـــا. وبكوفيته البيضاء، وبنطاله الخاكي الضارب إلـــى الطحينـــي، اقترب من الرجال الذين يرتدون فانيلات داخلية بيضاء بـــدون أكمام، ويعقدون شرائط سوداء على جباههم، وسألهم أن يعتقوا النساء العجائز. بين أخذ ورد، ونهر منهم وزجر من جانبـــه، استدلوا على هوية محدثهم الشيخ من نداء إحدى النســوة لـــه، قال أحدهم:

إذا، إنت أبو علي سامر

لم يتخل العجوز طيلة عمره عن قبول التحدي، ولم يقبل يوما الانسحاب من معركة، لذا رفع صوته وقال:

لي الشرف. ليش علي وحده؟ عندي كثير مثله ! لكن إبني على هو المعروف فيهم.

وأردف بأمر واستعجال:

- كفُّوا شرّكم عن هالعجايز الكحيانات، وين بقية أهاليهن؟

جوبه بالصمت يحدق نحوه، وظلال وجوههم قد امتزجت مع شواهد القبور أكمل حديث متجاهلا الشر الذي يجعلهم ينقلبون إلى فزاعات من نار

سألهم وقد تحول وجهه إلى حفنة طحين أبيض:

- إنتوا من تنظيم الأحرار والا الكتائب

متذكرا ما سمعه عن مستوى التنكيل لدى كل منهم.

الحواجز التي أقيمت بعد استوديو فوزي، دبت الروع في قلب خزنة. أول حاجز، مرقت منه دون أن يعترضها أحد. مئات وآلاف من الناس، البشر، أبناء آدم الذين لم يعودوا كذلك. يحملون الصرر التي لا تحوى إلا النتف والبقايا، الحوائج الممزقة التي لن يحتاجها أحد، ملابس الموتى وأشياؤهم المتروكة، وكل ما لاحاجة لهم به سوى إيهام أنفسهم

بأنهم لا زالوا بشرا عاديين وبأن خروجهم طبيعي. كانت متأكدة تماما من أن الفرصة لم تسنح لأي منهم كي ينتقي ما يحتاجه. لا بد أنهم حملوا هذه الحوائج الملفوفة في أقمشة مهلهلة لاثبات أنهم ليسوا حيوانات ضالة تنتظر لحظة ذبحها. وبقدرة قادر عبرت حقل بصرها كتلة قطنية بيضاء تشبه بالونا مشعرا، مفرغ اللب. كان ذلك ابليس. نبات ابليس الشيطاني الذي يطير ويعبر بين الأكتاف المتدافعة والمناكب المتسارعة. صلت خزنة في سرّها على النبي، وتعجبت من أفانين خلقه. حتى ابليس النبات المغضوب عليه يمر بجلال ومهابة عبر الضوء اللزج الراشح بلون الدم. حتى ابليس. لكن البشر. لا ! مسحت خزنة العرق المتصبب بجنون على وجهها. حتى في أعنف ساعات الضيق التي مرت بها، حتى يوم معركتها الأولى في حرش ثابت، لم يهطل كل هذا الماء المالح منها. إنها تحس بالعطش الشديد يمرغ بطانة فمها بالمرارة. من أين لها هذه السوائل التي تتفصد من بشرتها كأن جلدها انشق عن ثقوب تختزن آبار الجروح وتنز ماء حامضا. جسدها يستقطب السموم من الجو، ويعاود إفرازها عبر شقوق وجهها. كل حبة تنزلق منها بحجم حبة عنب من دالية أم جلال التي كبرت هذه السنة على ندى القذائف وبخار البحر، والغيم الغباري المسمم المحلق فوق بيروت بشقيها. ها هي تبكي بدورها. ليس بدموعها، إنما بعرقها ! غزت الفكرة الجديدة خلايا رأسها المشوش مضفية مزيدا من الغرابة على ما يحيط بها. وتذكرت كلام أمها عن بكائهم دما حين خروجهم

من قريتهم عام ٤٨. وقالت لنفسها أن كـــل أهــل الزعــتر سيبكون طول العمر دما أو عرقاً داميــا إن هــم اســتطاعوا الخروج من هذه المجزرة. ارتجفت رغم ثباتها الشكلي وهـــي تلاحظ قبضات الأولاد المتشبثة بملابس أمهاتـــهم. حلـم والا علم؟ وبدأ غبش العرق – الدموع ينجلي عن عينيـــها وهـــي تشاهد. ترى. تسمع. تحس. تتألم وتعاني لشدة الثقـــل الــذي تحمله قدماها. نادى واحد من حراسهم على ولد فـــي الثانيــة عشرة يحاول الإختفاء وراء ثوب أمه عند الحاجز رأت خزنة ولم تصدق ما رأته بأم عينها. قال الحارس: تعال، إنــب يــا أقرع. تعال. وسحبه من بين يدي أمه، قـــالت الأم: دخيلــك. ابني. اتركه الله يخليك لأهلك. قال المسلح امشي أحسن لك. بأعمل فيكِ مثل غيرك. خلي الولد عنا أحسن ما يكبر ويصــير "شبل ودفش الولد إلى مسلح آخر، فيما مشت الأم. واصلــت السير دون أن تنبس بكلمة واحدة خوف أن يسحبوا منها بقيـــة الأفراخ المتعلقة بذيلها. لو أنها بكت أو صرخت على الأقـــل لما أحست خزنة كل هذا الرعب. رعب يشــبه طلقــة تلــهب الدماغ، تمتص منه كل ما اعتاد عليه واختزنته خلاياه قبل هذه اللحظة. تدمي العينين، تعطبها، تثخن صاحبها بالجراح وتؤكـد له أنه لن يمنح الشفاء إلى الأبد، حتى لو جاءه المـــوت ألــف مرة.

منذ الآن وصاعدا ما عادت خزنة ترى إلا الدماء. فعندما مرّت قرب الكنيسة الشاهقة التي لم تفلح كــل المعــارك فـــي تدميرها.تعجبت من البناء الذي تغيرت ملامحـــه، فــلا هــو

بالمهدم ولا هو بالمبني حديثاً. أحجار ساقطة أو متراكمة، وجدران عالية وسميكة يصطف الناس تحتها صفوفا. أكان نظرها يخادعها حين رأت البناء وهو يتقدم نحوها زاحفا وكأنه سفينة عملاقة أقلعت بغتة من ميناء خرافي دون توقع أو انذار تخفق فوقها بيارق من العصور الوسطى، وعلى سطحها فرسان يختالون على أسرجة خيول أصيلة ملفعة بسروج وأردية قماشية تنساب على الجنبين، حاملين جعبا ممتلئة بالسهام المسممة الحروف. وطاسات ودروع ورمانات وأسياط وسيوف فولاذية لماعة. أما بناء الكنيسة فقد ظل يزحف ويتمدد إلى الأمام بحركة وئيدة، فيما هم عنه غافلون. صارت خزنة تفرك عينيها الآن كي تتأكد مما تراه من إقبال البناء - السفينة عليها دققت النظر فوجدت طوابير من الشبان الواقفين أمام جدران الكنيسة. كان يضربونهم الآن بالمدقات على ظهورهم. مدقات حجرية مخصصة لأجران كبة البرغل حينما يطحن مع اللحم، لكن المدقات! يضربونهم بها، تلك التي صنعت خصيصا للحم الهبرة المخصصة للأكلة التقليدية الشهيرة. أمروا الأسرى بالركوع وصبوا عليهم سائلا بتروليا اشتعل فيهم بغمضة عين. سقط بعض الأسرى مغشيا عليه. رشوا صليات من نيرانهم على الراكعين منهم بعد أن وضعوا قضبان الحديد في النار، ودمغوها على بطون الواقفين منهم على شكل صليب. تصاعدت رائحة شواء. لحم يشيط ويحترق. بدأوا يربطون الأسرى بالحبال لعرضهم والتجول بهم في المنطقة الشرقية في شاحنات حضرت لهذه الغاية.

اقتربت خزنة منهم مستلبة اللب، لا يهمها أن يمسها شر، جالت بعينيها كي تتعرف إلى هوية هؤلاء الشبان الذين وقعوا فرائس مسلوبة الحول على جدار الكنيسة. الكنيسة التي تتهادى على موج الدماء الفائرة السابحة فوق التراب. لفت نظرها روب أبيض اللون. وهناك.كان هو كانوا كلهم. الممرضون الثمانية والممرضات الستة. كانوا كلهم هناك. وكانت النيران تشتعل في الشخص الذي عرفته بقلبها قبل أن تستدل على أي منهم. الياس الدوغاني الذي قبض عليه بتهمة مساعدة الفلسطينيين رغم أنه لبناني. والا فلماذا يرتدي الثوب الأبيض ويمشي مع ممرضي مركزهم الطبي اقتربت خزنة أكثر كي تساعده فشاهدته والدماء تفور مثل رغوة كثيفة من جسده، وهو ينتفض على الأرض. ولم يتح لها الا بعد وقت طويل أن تدرك أنها والطبيب كانا الوحيدين اللذين نجوا من المجزرة. فقبل الممر الإجباري اندفع محارب كتائبي إلى الطبيب الفلسطيني الذي كان قد أجرى له عملية تكللت بالنجاح في بداية أيام التوتر، ليخبره أنه سيأخذه بعيدا عن المكان. وبالفعل، انتحى به زاوية، وأرسله مع أناس من جماعته ليسلموه إلى قوات الردع العربية القريبة فتصبح مسؤولة عن سلامته. بعيدا عن الطاقم الطبي بخمسين مترا، وقبل أن يغادر الطبيب أشرف المكان نهائيا، سمع صوت زخات الرصاص ممزوجة بصراخهم. شده، وأحس كأن فمه التوى ونفسه توقف عن الخفقان. لم يصدق ما جرى. ومن هناك، وحيث احتجزه المقاتل الكتائبي قبل ارساله أتيح له أن يرى من شق درفة

النافذة عشر أشخاص يعرفهم، تنطوي أجسادهم، وهي تتساقط فوق عشرات الجثث المحترقة الأخرى.

انغمرت قدماها في الطين. أو أنه شيء يشبه الطين، يتغرى ويشدها إلى الأسفل، حتى لتوشك أن تسقط لولا المجهود الشاق الذي تبذله كي تسند به جسمها. وقفت وسط الزحام البشري المتحدر تطلق عينيها في تشبث غريزي بالوجوه النازلة إلى تجمع الساحة كان حدسها يجذبها في اتجاه، ورعبها في اتجاه آخر تحيرت أين تمضي، وليس معها أحد تعرفه ويعرفها. تخاطبه ويخاطبها، وسيطر عليها هلع لا قدرة لها على مجابهته وسط البلبلة والعجيج الذي يطغى على أية محاولة للتفكير والتدبر ومشاورة العقل. أتراها أصيبت بالجنون؟ ساءلت خزنة نفسها وهي تسمع اسم أخيها يسري عاليا بين الجموع أصغت فسمعت الصوت ينادي الاسم ذاته حسن عبد الستار المشيرفي من ميكروفونات عالية حسن.... سلِّم نفسك معقول أهذا معقول. ينادون عليه ولا يعرفون أنه استشهد. تضاعفت فجيعتها بموت حسن وأحست أن هذا اليوم مناسبة أخرى لاستشهاده من جديد. حتى الموتى لا يرحمونهم. ولم يعد في رأسها عقل يستطيع الاستيعاب. لا. لا. يمكن أيريدون أيضا إخراجه من مثواه هناك ؟ بعد أن ؟ بعد أن قتلوا حسن والياس الممرض وذلك الطفل الذي سحبوه من يدي أمه لأنه أقرع. وانهمر المزيد من دمعها الدامي، فقد كانت تعرف جيدا أن حلاقة شعر الأولاد

كانت تتم خوفا من القمل في غياب الماء. وأنها بهاتين اليدين قد ساهمت في حلاقة رؤوس البعض منهم.

كانت هزيلة. وفي هذا ما يميزها عن منظرها السابق حين كانت موفورة الصحة والعافية. لا شك أن احتباس الهواء، وانفاق الأعصاب، والعيش على شفير أخبار البرقيات والرسائل أودى بكل ما اختزنته الصبية في سابق حياتها من بهجة. بل. ربما كان ذلك لأنها اكتشفت ساعة الخروج الأخيرة من المخيم، أنها كانت تفضل لو ذهبت مع المقاتلين عن طريق الجبل. حين قابلت أمها بوجهها المصفر، واحتباس الدمع في المقلتين الكهلتين أحست أنها لا تنتمي إليها وأن هذه المرأة ليست أمها، بل امرأة أخرى قد تكون عرفتها وألفتها في زمن ما لكن ليس الآن. غزاها احساس مريع بالشفقة على الوالدة القلقة، ومعه تردد في ضميرها أسى ملتاع لأنها لم تخرج مع حبيبها ستعاني الان من الانتظار المبهم الطويل إلى أن تتأكد من نجاته. وسيظل فكرها جمرة من توهج الاضطراب والحسرة إلى أن تلتقي به من جديد. ليتها انضمت إليهم، فما يليق بمن كان مثلها أن يترك فريقه عند النفس الأخير وعادت إليها ذكرى الحصار والاحتباس معهم حتى وقت انقطاع الكهرباء والعيش على ضوء الشموع، خلف متاريس العدس التي لم تسلم من شظايا البارود. أسفت وتاسفت دون أن تعبر لأمها عما بها، فما لا يمكن تغييره لا يجدي ذكره من جديد.

كانت هنالك مسافة وديان سحيقة بينها وبين أمها. فكيف لها أن تدرك أن حياة ابنتها قد تقاطعت كليا مع حياتها، وأنها لم تعد تقدر على ربطها بدولاب حياتها السابقة. تشعر هناء وكأن المعارك عزلتها تماما عن حياتها المدنية الأولى. ما عاد يعنيها سواه، حبيبها، وسوى عملها على الجهاز. كانت تلك هي المرة الأولى التي تخلع فيها بنطال الجينز وقميصها الكاروه بلون أصفر مع زيتي. لبست بنطلونا أخضر عريض الحاشية، وارتدت فوقه تنورة سوداء كأية امرأة عادية من المخيم، ودهنت على وجهها شحبار البابور بخطوط صغيرة على الجبين والخدين، فبدت كإحدى الخارجات من تحت الردم. نزلت مع عشرين امرأة أو أكثر الى ساحة الدكوانة.

عبرت مع أمها الحاجز الأول بشكل اعتيادي. والثاني. والثالث! وهو المفضي إلى المدرسة الفندقية، استوقفها. مد مقنع يده، وأشار إليها من بين عشرين امرأة وأكثر. تجاهلت الأمر، وأصلحت من وضع الفوطة البيضاء التي تربط بها شعرها المسرح ذيل الحصان، وأكملت طريقها. امتدت سنجة بندقية أمامها. خاطبها المسلح:

هناء "الإشارة" احنا عايزينك من زمان. سمعناك وسمعتينا، وأعجبتينا. يللاّ معنا.

وجرّها من رسغها إلى وراء الحاجز حيث توقفت سيارة لاندروفر. لم تحس الفتاة فعل شيء للوهلة الأولى لشدة وقع المفاجأة عليها. لكنها، حين وجدت نفسها مدفوعة بقوة الرجل

الغريب إلى السيارة العسكرية، وهو يطالبها بأن تصعد إليـــها، تمالكت نفسها، وثبتت قدميها في الأرض، ورفعت يدها بكل ما لديها من قوة وصفعته على وجهه. وشتمته كما لم تشـــتم فـــي حياتها قط. تلفظت بكل الكلمات النابية التي يعجزها الحياء عن ذكرها في الحياة العادية، والتي أتقنتها طوال شهور من تبادلها معهم:

يعني... يا كذا، ويا ابن أخت الشـــــ.........يكفـــــي كل الذي عملتوه فينا. وهلأ جايين تتـــــ... عرضنا.

فغرب أم هناء فاها، وأرخت أذنيها ولـــم تصـــدق مـــا تسمعه، وكأن المتكلمة فتاة أخرى لا تمت بصلة إلـــى ابنتـــها. حتى أنها لم تلحق أن تدرك كيف أتى المسلح الاخر مـــن وراء ظهر ابنتها وضربها على قفا عنقها بأخمص بندقيته، فـــارتمت الفتاة على الأرض توا دون حراك. حملها المسلح ورماها فوق أرضية اللاندروفر وانطلق بها مع أصحاب له كانوا قريبيـــن إلى حيث لا يعلم أحد. الفوطة البيضاء التي وقعت عن رأســـها أثناء معركتها معهم كانت كل مابقي من آثارها، وهـــي التـــي ستحملها الأم لعدة سنوات قادمة إلى العرافيـــن للبحـــث عـــن ابنتها.

قلقت أم جلال التي دخلت إلى المدرسة الفندقيـــة التـــي يحتجز الناس داخلها على مصير إحدى النساء التـــي كـــانت تعمل معها في المركز الطبي. لم يكن لتلك المرأة سوى ولـــد

واحد عمره سبعة عشر عاماً. ألبست الأم ابنها زي الفتيات، وقمطت له شعره. وأعطته بقجة ملابس ليحملها، لكن عناصر الحاجز السابق على "الفندقية شكّوا في أمره حين حاولوا التحرش به ظنا منهم بأنه فتاة. إذاأن النظرة القريبة المدققة لا تخفي شيئا. قوصوه، وتركوا جثته في العراء. أفلحت أم جلال مع السيد وابتسام وحسام في الوصول إلى هذه المدرسة الواسعة دون عوائق تذكر السيد يحمل الفتاة المصابة على ظهره، فيزيح بؤس مظهره حاجز الشؤم الذي يعترض غيره. لم تكن المدرسة الفندقية إلا بناء كبير يضم غرف صفوف ضيقة تتناثر فيها الأوراق الوسخة التي عبث بها المسلحون. أغرق المكان بأكوام نفايات ممزقة تشير صفحاتها إلى زمن عز قديم كانت فيه المدرسة مدرسة حقيقية. ويا لها من مفاجأة حين التقى السيد صديقه الخواجة أبي النمر. حدق الخواجة يعقوب في صديقه القديم الذي سبقه إلى العناق، ثم تبادلا في وقفتهما القصيرة أنواعا من العتاب فكأنهما لم يفترقا إلا بالأمس. كلاهما أنحى باللائمة على الزمن الكلب الذي لا يسمح للواحد أن يلتقي بصديقه. لكن الخواجة يعقوب ما لبث أن تلفت يمينا وشمالا، وقال

لا تواخذني. جيت عشان أشوف إبني نمر. لأنه ترك الجامعة وصار مسؤول كبير.

وأردف:

– طبعا سأقول له يمشيّك. إذا إنت صديق الوداد وما مرقت. مين اللي يمرق إذا؟ وأضاف بنبرة باطنية:

- لكن ما عرفنا شو أخبار المحروس جلال. هو لا زال يشتغل مع الفدائية

ولم ينتظر أن يسمع الجواب. بل بادر إلى التهيؤ للمغادرة بترتيب وضع قلبقه الذي لا يخلعه حتى في عز الصيف. قال:

بكرة الصبح آجي واشرب فنجان قهوة معاك. لأني سمعت إنه الناس لازم يبيتوا الليلة هون عشان بعض الإجراءات. بس ولا يهمك يا حبيب قلبي. ابني نمر يحل لك كل مشكلاتك، لا تاكل هَم شيء... يا سيد ماتخاف..... ما عليك.... ما حدا يعرفك غيري.

وانصرف مسرعا وكأنه يخاف أن يكتشفه أحد وهو واقف مع السيد الرث المظهر، الغريب الهيئة. في حين توقف السيد يستجمع أنفاسه، وكأنه عثر على حلم عمره أخيرا. قال لزوجته:

شو قلت لك ؟؟ هي صحبة العمر تسوى الدنيا وما فيها. هلأ يمّشينا الخواجة. قلبي كان حاسس من زمان.

واندفع يثرثر معها بنشاط بعد فترة الصمت الطويلة التي مر بها إثر وفاة زوجِ ابنته، حتى أن أم جلال تساءلت هل أنه هو نفسه، أم أن خبلا أصابه ! تعجبت المرأة من تغير أحوال زوجها، فقد بدا وكأن دما جديدا بُث في عروقه. تفاءلت أم جلال التي كانت تبحث عن أي بارقة أمل كمن يخيط ثوباً مهلهلا بشق الأنفاس. وأرجعت تفاؤلها إلى الحديث

النبوي: تفاءلوا بالخير تجدوه. لعل وعسى. قد ييسر الله الأمر، فتكمل الرحلة بسلام مع زوجها وأطفالها إلى الشق الآخر من المدينة. في ذلك الفجر تلت المرأة آية ألم نشرح لك صدرك عدة مرات وهي تشهد شروق شمس الصباح الجديد، وتنتظر أن يبدأ الغد كي يخلصهم الخواجة يعقوب من مسلخ الإبادة الذي وقعوا فيه. كانت المدرسة مركزا استخدمته القوات الكتائبية لتصفية الشباب الفلسطينيين الخارجين مع الناس. اعتصمت أم جلال مع زوجها، وأولادها وراء أحد الأبواب المواربة خوفا من لفت الأنظار إلى حين إطلالة الصباح التالي. وعملت جاهدة على إغلاق سمعها عن الاهات وصرخات الإحتضار التي تتردد في أبهاء المكان. أما الولدان فقد أغفيا، وأما السيد فقد ركن رأسه على حجرها للمرة الأولى في حياته منذ ثلاثين عاما.

عاود جورج الرجوع إلى المخيم مع مازن والمجموعة، دخلوا إلى بناء مدرسة لم تفلح القذائف في هدمها فبقي معظمها سليما، واختبأوا في الصفوف الفارغة، كان ذلك هو اليوم الأطول في حياة كل الشبان الذين أجبروا على الاختفاء إلى حين قدوم الظلام. أما ساعات النهار، فقد مضت في حرب بالسلاح الأبيض بين عناصر الكتائب التي تمشط المخيم بيتا بيتا، وبين المقاتلين المعتصمين وراء الأبواب أو الحيطان التي لم تسقط بعد.

بدأ وجع الضمير ينثال عليه مثل هجوم الجراد الكاسح. تذكر مازن لدي رجوعه إلى المخيم أنه لم يخبر أمه عما حصل معه. لا. ليست هذه هي المشكلة. ليست أمه، بل زوجته. تفطن إلى أنه لم يخبرهما بقرار الخروج الذي اتخذته القيادة، لربما سيخطر لهما البقاء وانتظاره مع بقية العائلة إلى أن يحضر ويبلغهما بتقديره للأوضاع وإمكانيات الرحيل. لم يكن بإمكانه مغادرة المدرسة لرؤيتهم والاطمئنان عليهم. كان من الأفضل زيارتهم قبل صعوده بالأمس إلى الجبل. لن يعرف الآن إذا كان في وسعهما ترتيب الوضع مع بقية النساء. غبط أخاه علي سامر الأعزب، وانتابه حنين ملهوف إلى زوجته وولديه. أصغرهما ما زال في شهوره الأولى. انصرم النهار في صمت شنيع يحوم بين الرجال المقرفصين، والجالسين أو الواقفين خلف الأبواب المقفلة. لا نأمة، ولا مجرد صوت. فمن خصص النوافذ المغلقة كان بالإمكان مشاهدة عمليات التمشيط التي تدور في الحارة. مسلحون كثيرون يجولون بين البيوت ويخرجون حاملين أجهزة تلفزيونات ومكاوي كهربائية مع أجهزة راديو نقالة صغيرة. قد يكون هذا السبب في أنهم لم يقربوا المدرسة في اليوم الأول لسقوط المخيم. فلا مغانم تذكر في مدرسة خالية. كما أن أصوات الاشتباكات الفردية المتفرقة التي كانت تدور في أماكن أخرى من المخيم، أوحت للمهاجمين بهدوء الحي، فاعتبروا صمته دليلا على فراغ شامل. ذاك اليوم كان الأطول في حياة كل منهم. جورج ومازن وبقية الشباب. كان الوقت

ضيقا، وملتفا بإحكام على رقابهم مثل أنشوطة إعدام لم يحكم إغلاقها بعد. لم يكن بمقدور أي منهم أن يفكر بأية خطوة قابلة للتنفيذ. إن مجرد البقاء على قيد الحياة يعتبر الانجاز الأعظم. كان عليهم التزام الصمت كي ينصتوا إلى الخطوات العدوة حتى يواجهوها ببنادقهم كما اتفقوا سابقا. لن يسمحوا لأنفسهم بذل مصير الأسرى. إما الصعود إلى الجبل أو الموت. غروب الشمس كان لغزا كونيا ينتظرونه بكل أشواق أعمارهم. متى غابت، فسيستطيعون التحرك والانسلال تحت جنح العتمة كي يبحثوا عن طريقهم. لكن ما قام به مازن قبل انصرام مساء ذلك اليوم الصيفي الحار من بدايات آب أزعج جورج والمجموعة. فقد أصر على التسلل إلى بيته قبل بدء الانسحاب. لم يكن أحد منهم بقادر على منعه. لذا اتفقوا معه على أن يذهب إلى حارته ثم يرجع قبل التاسعة ليكملوا انسحابهم. كان بودهم الاستفادة من الوقت قبل انتصاف الليل، وقبل أن يبدأ أعداؤهم في إطلاق القنابل الضوئية لكشف مسرى انسحاب ما تبقى من مجموعاتهم. قفز مازن من سطح إلى سطح، ومن جدار مثقوب إلى آخر، ومن طاقة مكسرة إلى أخرى حتى استطاع الوصول إلى البيت، ليجده فارغا ويجد أمام عتبته الحجرية جثة امرأة ذبيحة تحضن رضيعا إلى صدرها. كانت في مثل عمر زوجته، وقوامها، وقصة شعرها القصير وضع كفيه على وجهه، وأخفى عينيه وراء أصابعه كي لا يرى وجهها الملطخ بالدم. إنها زوجته، ولا بد، ومن تكون إذا سواها ؟ لم يطق الاقتراب منها أكثر وتقليب جثتيهما.

أصابه الموت برعب من نفسه ومن أنانيته البشعة. لم يفكر فيها طيلة اليوم الفائت. لم يسأل عنها في وقت يتأرجح كل الناس فيه بين الحياة والموت. كان بإمكانه على الأقل أن يبعث بأحد الشباب إلى البيت ليعلم أهله كيف يتصرفون. لا. لكنه، لم يسأل إلا عن نفسه وعن مجموعته المحاصرة. استدار مخذولا، مجنونا من نفسه، عازما بكل طاقته على إيجاد المخرج الضروري لفك الطوق والنجاة بمجموعته مهما جرى أو صار. لم تكن الخسائر تدفعه إلى اليأس بقدر ما تنزع به إلى المحافظة على ما تبقى. موت زوجته الفاجع وطفله ليس سوى نقطة واحدة من بحر رعبه من نفسه. لم يكن يدري قبلا أن أنانيته ستدفع بأعز أحبابه إلى الموت. التفت إلى مصير المجموعات المنسحبة قبل أن يتذكر عائلته. كان منشغلا مع جورج وبقية قادة المجموعات بالبحث عن خطط تقسيم المنسحبين، وطرق سيرهم. انشغلوا بالبحث عن أدلاء يقودون الخارجين إلى المنطقة الوطنية. ولم يكن في رأس مازن انذاك غاية سوى تعزيز إمكانيات النجاح فيما انتووا عليه لاقناعه أن بالإمكان تنظيم الانسحاب. منذ الأيام الأولى للمعركة خسروا جميع مواقع الاسناد، ولم يبق معهم سوى الأسلحة الخفيفة كالمسدسات والكلاشينات والأ ر بي جي، والقنابل. لقد قاتلوا بأقل مخزون من الذخائر، ووقفوا في وجه الهجوم الشامل، واستطاعوا صده وإفشاله، لو انقطاع الماء النهائي والتام. وتذكر مازن كيف عمل مع أفراد المليشيا على جمع الكاز من قناديل البيوت لتشغيل أحد مواتير ضخ المياه في المركز

الطبي. ولسع قلبه استشهاد أخويه الكبير أبي عفيف والأصغر الذي لم يبلغ العشرين وأصيب في البناية المواجهة لبيتهم المهدم بعد أن نظر مليا إلى درفة خزانة في الشارع المواجه، وطلب من أصحابه مازحاً تشييعه فوقها. كل هذا، ثم تذبح زوجته وطفله دون أن يتسنى له الوقت الكافي لإخبارها بما يجب عليها فعله. في تلك اللحظة، كره مازن نفسه، واندماجه الزائد في المعركة. كره انغماسه في واجباته على حساب آدميته، وكره ابنه الحي الباقي. لأنه يعرف لماذا. المهم أنه كرهه وكفى.

فكت خزنة مريول التمريض عن خصرها، وأوقعته عمدا بحركة مستترة، عجولة، خوف أن ينتبه إليها أحد.

كانت الشمس في عز الظهيرة. ولم يبن الخواجة يعقوب. كل لحظة انتظار كانت تستهلك من السيد عمره المتبقي. وفي ساعات تعمقت أخاديد وجهه، وتهدل فكاه، وغارت عيناه وكأنه على وشك مفارقة الحياة. خففت أم جلال عن نفسها بالقول أن تأخر الخواجة في المجيء لا يعني أنه نسيهم أو تناساهم. ثم إن السيد غير مطلوب لهم، وقد تجاوز سن الشباب، فما الذي يريدونه من "اختيار ؟! لكن، عند منتصف النهار، حضر شابان لم يبلغا الثلاثين، ويتحدثان باللهجة ذاتها التي يتحدث الخواجة بها.سألا عنه، وعثرا عليه، واقتاداه إلى البوابة.حذرا أم جلال من اللحاق بهما، فتجمدت المرأة في

مكانها جزعة. لحقه حسام دون أن ينتبها إليه. وشاهد حسام ما سمعه جميع من كانوا في المدرسة الفندقية. طلقة واحدة من الخلف. ثم حملا الختيار، ورميا به إلى قعر سيارة عسكرية ومضيا.

***

جمعوا رجالا كثيرين، وحملّوهم في كميونات، وتركوا النساء والعجائز والأطفال. انتبه أحدهم إلى سمير الذي يقبض على يد جدته أم حسن. أشاروا عليه، وقالوا:

- هذا أشقر وعيونه خضر فمن أين للفلسطينيين مثله. خذوه. حرام يكون عند الفلسطينيين مثله.

ارتمت زينب على ابنها تحميه، وتلفه بجميع جسدها. تسمرت أم حسن في مكانها، قالت:

هادا ابني. اتركوني واتركوه. خافوا الله يكفي أنه يتيم. أنا لبنانية من كركبا. يا أخي ارحمنا، واشفق على حالتنا والله بقتل حالي لو جرى على ولدي شيء.

قال المسلح:

والله لو ما إنتِ لبنانية لكنت قتلت كل أولادك.يالله، خذي ابنك وروحي انخسفي، أحسن لك.

وشاهدت خزنة في الدكوانة، امرأة في الأربعين حاسرة الرأس، تحمل بيدها زجاجة وتهجم بها على رجل في الخمسين

من عمره. ضربته على رأسه بالزجاجة الفارغة، ثم استعارت من أحد المسلحين مسدسا. رمت برصاصة على الرجل فقتلته، وهي تتوعد أنها ستقتل عشرة فلسطينيين ردا على موت ابنها.

لكن أم مازن التي وقفت صامتة أمام نداءات مسلحيهم على علي سامر أحست بالإنتعاش لأنها استطاعت رمي هوياب أولادها في المجرور الذي عبرت القافلة فوقه. لم يخطر ببالها، أنهم قد استطاعوا العثور على أبي مازن في الاتجاه الآخر للمخيم. وأنهم يربطون إحدى ساقيه الآن بسيارة جيب "، والساق الأخرى إلى سيارة "ستيشن ، وأنهم يسحلونه على الأرض، وكل سيارة تمشي في اتجاه مضاد للأخرى. كان ذلك على مرأى ومسمع مناب الناس الواقفين في ساحة الدكوانة.

عندما كانت أم جلال تحمل ابنتها على ظهرها وتتحني كأنها غصن على وشك التقصف. وأمام إحدى شاحنات قوات الردع العربية التي تقف على بعد مئات الأمتار من المجزرة، بادرها الجندي العربي، بالقول:

-جيتوا، أخيرا

ردت عليه أم جلال بمرارة

ايه ! جينا. جينا لكم.

الختيار أبو حسن لا يرى بوضوح ما يجري. يحس حركة الكوارث التي تحيط به من صراخ الرعب الدائر حوله. لم يكن بإمكانه أن يفعل شيئا. ظل مسترسلا في أفكار منامه: لقيت أهلي رايحين على دار الخضرا. رحت على دار الخضرا. رميت في الداخون حجر. طلع أبي. شو عملت في يا أحمد؟ الطرش دبحوه كله. خرّبت بيتي يا أحمد. من عند أبي قلت له: ظليت ثلاث أشهر في الوعر لقيت راعي قلت له: أنا جوعان. عم يحلب لي. شربت طاسة حليب. يجي أبي راكب الفرس. يقول: بدي أسلمك للعسكر. أقول له: والله ما بسلّم حالي. بأقوّس حالي ولا بسلمْ. ظلينا هيك، والا انكسرت تركيا.

* * *

قبل المنصورية، التقت المجموعة المتسللة بمجموعة "محمد شحادة" كانوا قد اشتبكوا مع الكتائب قبلها بساعة. تقابلت المجموعتان ثم اتجهتا كل واحدة على حدة، حتى لا تزداد الخسارة إذا ما حدث أي طارئ يعوق الانسحاب. صار مازن يستطلع الطريق كل خمسين مترا. مستغرقا في أفكاره القاتمة حول سبب المأساة التي نزلت بزوجته وطفله. كان يقوم بواجبه بكفاءة غير اعتيادية مدفوعا برعب لم يعرفه قبلا، عنوانه الخوف من الأسر. كم كان الموت أبسط وأشد جمالا وحكمة داخل المخيم. فإما أن يعيش المرء وإما أن يموت. أما هنا في هذا الوعر المخيف، فحري بالمرء أن يقتل نفسه قبل أن يقع بين أيديهم. رمى بنظرة إلى الخلف، فرأى جورج

ساهما، شاردا، كأنه يمشي في منطقة مفرغة الهواء. المسكين، كلهم هكذا. أنا وأنت وهو، وكلنا جميعا. من يستطيع فينا أن يتنبأ من الذي سيلاقي أحبابه بعد الآن ؟؟ من الذي يستطيع أن يضمن حياته الخاصة ولو بعد دقيقة من الآن !! تراءت له السماء مثل جب رمادي اللون، يغيم بالرطوبة وصدأ الهواء. حاول مليا أن يدفع الصور القاتلة التي تجول برأسه حول زوجته وهي في النزع الأخير، أو الطفل الرضيع المتمسك بذراعيها. حاول، طويلا، لكنه لم ينجح. فاستسلم لها بآلية مطلقة، فكأن جسده يتحرك في الفضاء بينما روحه مرمية في قعر جب عميق. ظلت المرئيات تتراوح أمام ناظريه وهو يستبق الحشد ثم يعاود الإطلالة عليهم وإعطاء الملاحظات. كانوا قد بدأوا الحركة مع هبوط المساء. غاب جورج عن بصره، حين تباطأ في المسير ليشرف على انسحاب المقاتلين في الخلف. صار هذا الإجراء ضروريا منذ فقد في بداية الطريق أحد المقاتلين الذين لم تسعفه قدماه على المسير أخذ الجمع طريقه باتجاه الوادي، كان دربا صخريا يمتد عليه شجر العليق. وكان عليهم أن يقطعوه من أسفل الجسر الصغير عندما قطع نصف الموكب المخاضة المائية، بدأت رماية مضادة مقترنة بنداءات "سلّموا. سلّموا. مع شتائم كثيرة صارت آذانهم متعودة على سماعها عند محاور التماس في المخيم. كان الماء باردا، ولا يمكنٍ لمن فاجأته الرمايات أن يقضي ليله فيه. طلعوا من المياه كلّ بالطريقة التي يؤمن فيها انسحابه تحت جنح الظلام المخيم قبل طلوع القمر. ورغم

النجوم البعيدة الغبشة، عندما خرج جورج من التيار البارد الذي تغلغل إلى لب العظام، وجد أن الجمع قد تفرق وصار عليه أن يبحث وحده عن الاتجاه. سمع أنينا قريبا. تطلع قربه فوجد أحد أفراد المجموعة يتقلب على التراب. اكتشف عمق إصابته التي أخرجت الأمعاء من البطن، ودلقتها إلى الخارج بعيدا عن قماش سرواله الكاكي الممزق. ناشده المصاب اتركني. روح جيب اسعاف. ما تحملني معك. ما رح تقدر تجرّني في هالطريق الوعرة. أحسن ما نكون في هم واحد، ويصير الهم اثنين.أرجوك، اتركني.

وحيدا، ومترعا بشعور الانكسار مضى جورج وخلف الجريح قرب صفة النهر الصغير، فلعل وعسى أن يستطيع إيجاد المجموعة كي يعود معهم لسحبه وإنقاذه. اجتاز الصخور والأشجار الكثيفة، وقدماه تسيران بسرعة غير اعتيادية، فلعل وعسى. لعله يجدهم قبل فوات الأوان، فيستطيعون نجدة المصاب وإسعافه. لا يمكنه أن يحمله وحده دون حمالة طبية كي لا تنغمس الأحشاء الخارجة من البطن. رأى جورج الموت أمامه على شكل طبيعة وحشية يضيع الانسان في ظلامها، ويضلّ طريقه داخلها، فيعجز وسط متاهاتها عن نجدة رفاقه. ظل يرى الجثث في أزقة المخيم، والذباب الأزرق يهيج فوقها، يجتاحها، ويفتت تماسك عضلاتها. الموت! إنه لم يعرف عنه شيئا قبل الآن. حتى في أحلك ساعات الحصار كانت الأمور تبدو سهلة، واضحة. فأما حياة تسر الرفيق وإما ممات يغيظ العدا ، كما قال

الشاعر الفلسطيني عبد الرحيم محمود الذي استشهد في معركة الشجرة. الله ! الله ! إن ذكراه تفعم روحه بنفحة حنين إلى الضفة. وإلى طولكرم. الكرم الواسع المتسع الأخضر والمزهر المترع بالمياه البلورية التي تنثال كدفقات الضوء في أقنية البيارات. كان عليه أن يصبح مزارعا لو بقي، لكن العلم الأب ورغبته الملحاحة في أن يراه متعلما خريج جامعات روح يا أحمد على القاهرة مهما كانت تضحيات العائلة. والعائلة مكونة من بنات. والبنات يكتفين بالتوجيهي، والجواز مصير كل البنات. واقشعر بدنه. لماذا ؟ ليس يدري. ربما لأنه تذكر اسمه للمرة الأولى منذ قرون عديدة. ربما لأنه يعاود تذكر منبته في لحظات الموت والحياة هذه. فما الذي أحضره إلى هنا؟ وما الذي جعله يختار اسما مألوفا يسمعه المرء ألف مرة دون أن يدقق في هوية صاحبه. والآن، صار مجرد سماعه يشنف الأذن، ويدعوها لأن تتملى الحروف شيئا فشيئا، كي لا تقع النفس في الكمين الذي تثيره الأسماء الطائفية لماذا اختار هذا الاسم ؟ ألكي يتلذذ بحمل اسم يدين صاحبه قبل ثبوت التهمة عليه ؟؟ وما هو الاثبات الكافي الذي يحصن أصحاب الإسم المتبقين من المحاكمة والاتهام؟ أصحيح أنهم يختلفون عن مسيحية الضفة غريب. نحن نأتي من البلد دون أن نعرف معنى كلمة "طائفية كان يخبر هناء. الجميلة، الحنونة، والممتلئة حماسا. أحبته بسمات فتاة حمقاء لا تدرك من الحب إلا أغاني شادية وعبد الحليم. وفي غفلتها وسذاجتها الحياتية أحبها أيضا مع أن أمه كانت تنتظر

منه أن يبعث في طلب بنت عمه. عاجله وخز داخلي انبعث من أعمق طيات مشاعره. لماذا سمح لها أن تذهب وحدها؟؟ لماذا تعجل وتركها تخرج وحيدة ؟؟ واندفع إلى مجموعاته يبحث في أمر تأمين سلامتها. هناء، الله وحده يعلم ما الذي سيحدث معها ؟ حاولت أن توحي له أنها صلبة مثل سيف فولاذي. ولكن من الذي قال أن الصلابة لازمة في المواقف التي قد تواجهها. من الذي يضمن له أنها لن تفلت لسانها السليط وتتشاجر مع الحواجز التي تواجه الخارجين. ما الذي يدريه؟ مالذي يدريه؟

ما الذي. سوف. يجعله متأكدا من سلامتها. لا ليس. أبدا. إنه غير متأكد على الاطلاق الآن في هذه البرية الموحشة وكتل الصخور تسد الطريق. زيزان الليل الهائجة. الخفافيش المندفعة فوق رأسه بفضول. وهذه الأصوات البعيدة التي تشير إلى أن ثمة اشتباكات جارية الآن في مواقع أخرى. الاشتباك بحق الجحيم، ما الذي كان يجعله واثقا من أمر نجاتها إلى هذا الحد حين تركها وولى ليجمع المغادرين. وهي، من كان جديرا بالحرص عليها عداه ؟! ولكنه، تعامل معها، وعلى حسب العادة، الرفيقة القوية، الكاسرة، التي لا تكَل ولا تلين. أخذ بالصورة الوهمية المأخوذة عنها مع أنه أول من كان يعلم أن كل تلك الصفات عبرت عن الوضع المتميز لفتاة لم ينجب أهلها غيرها، فسمح لها بالرفض والقبول أكثر مما هو متاح لمن في سنها. يا الله، ونزل في فمه دفق مرارة خلفها الجوع العصابي الذي كان يتأكله. لم يكن يهتم فيما سبق إلا بالمصير

الجماعي. وهو يفاجأ الآن في هذه البرية المعادية بدوافع قوية لم يدركها قبلا. يجد نفسه مسؤولا للمرة الأولى عن سعادته الشخصية، بل عن بقائه الفردي. قبلها. كان هناك البلد، العائلة، الأسرة الكبيرة. ثم، التنظيم، المؤسسة، الحزب. كل شيء، عدا نفسه. كأن حجبا انزاحت مرة واحدة أمام عينيه فألقته وسط دفق ساطع لم يعتد على مواجهته سابقا. يجد نفسه في مواجهة الليل، والريح الخفيفة، والحشائش الجافة التي تخشخش بين قدميه كلما تحرك. يرى نفسه وحيدا في الكون كما ولدته أمه، بل في حال اشد وأقسى. ففي مولده لم يتسن له إدراك وحدته القاسية كما هو عليه الآن. يرقب القمر بوجل متمنيا لو يكف عن الطلوع كي يواصل المسير ومن بعيد، خشخشات جديدة تقترب. يلتجيء إلى حضن صخرة كبيرة، ليراقب من هناك، فلا يجد أحدا. معلقا بين السماء والأرض، جاثما في حضن الحجر الهائل، شاهد جورج ومبض عيارات نارية آتية في اتجاهه. سمع صوتا ينادي آخرين لا يعرفهم. حشر نفسه في فوهة الصخرة، وقبض على أنفاسه، مداريا جسده من الطلقات الهائمة، الفتاكة، السريعة، المتعجلة القتل. يصله الصوت، ولا يستطيع أن يفعل شيئا سوى أن يسمع الطلقات تدوي، تئز، وتزن في أذنيه. ارتدت إحدى الطلقات عن الحجر وسقطت ساخنة على فخذه. لم يصب. أيضا. ها هو القدر يلعب به، ويجعله كالريشة التي تطير وسط هواء. هائج. لم يُصبْ. ترى، لو أصيب، فهل كان يتعفن في مكانه كما حدث يوما مع فريد في الكنيسة. أيموت حينها أم

يظل شاهد عيان على تحلل جسده أمام عينيـــه ؟؟ الحـيرة والعتمة الدامسة، والطلقات المتطايرة في الفضـــاء الكحلــي، والمرتطمة بجسد الصخرة الهائلــة. ثــم، توقفــت العيــارات النارية، وصمتت الأصوات المنطلقة صوبه دفعة واحدة.

في ساحة النافعة تجمعت عائلات كثيرة رابضـــة علـــى الأرض بفزع وصمت. النافعـــة، مركـــز فحـــص ميكـــانيك السيارات ومكان حشر الناس كي يتم التدقيق فيـــهم، قبـــل أن يستقلوا شاحنات النقل التي ستحملهم إلى المنطقـــة الغربيـــة. جثم الجميع على الأرض مرتعدين، مبللين بعرق الرعب خوفا من نداء جديد لأحدهم يكتب مرسوم فنائه مـــن الحيـــاة. كـــان المسلحون يجأرون بشتائمهم وهـــم يحملـــون فوطـــا ورقيـــة يفرشونها، ويجولون بها بين أكوام الناس المقرفصين. يجمعون منهم الساعات والخواتم والسلاسل الذهبية. والنقود المخبـــأة بين أثداء النساء. توقف واحد منهم أمام زينب الجاثمة علـــى الأرض بين أولادها الذين يتكمشون بها، وأشـــار إلـــى خـــاتم زواجها. مدت زينب أصابع خائرة إلى الخاتم، وسحبته وقدمته إلى المسلح ودموعها تسح من عينيها، اقترب مسؤوله الـــذي كان يتمشى. وسأله أن يرجع لها الخاتم. صرخ المسلح بدهشة:

ليه يا حبيبي، والله إنهم ما بيستاهلوا!

أجابه مسؤوله:

- ولكْ يكفينا فضايح. بكرة بروحوا ويحكوا كل شيء شافوه للصحافة.

وقرن تحذيره بنظرة تهديد استسلم لها المسلح فورا، فأعاد إلى زينب خاتمها، وانتقل إلى جهة أخرى من ملعب مركز النافعة الفسيح كي يواصل جمع غنائمه بعيدا عن أنظار مسؤوله. همست أم مازن لزينب

شو عملنا عاطل في حياتنا يا خالتي حتى يموّتونا عشان بدنا نرجع لبلدنا شو عايزين منا يتركونا في حال سبيلنا ليه حابسينا؟؟

بعد ساعات طويلة من جلوسهم القرفصاء تحت الشمس وانتقاء الرجال والصبيان لسوقهم في شاحنات متجهة إلى مقرات القوات الكتائبية. أتى أحد المسلحين، وصرخ بالناس مبشرا اياهم بالفرج:

أول شيء الأطفال. يتجمعوا ويطلعوا وحدهم. بعدهم النسوان، يتجمعوا ويطلعوا على الشاحنات. العجايز آخر شيء. من يخالف رح يتكوم مطرحه.

في الخارج حيث الضوء الساطع، والحر الشديد، كانت أصوات المسلحين تتعالى:

اللي ما بيشتم أبو عمار ما يطلع.

انتبه مازن إلى اختفاء جورج بعد تبعثر المجموعة. كان السير بطيئا، والخطوات ثقيلة. صعود القمر كشف ظلالهم، وعلى المجموعة المزيد من إبطاء الخطو حتى لا تتكشف من جديد. مرر مازن يده على جيب قميصه. كانت الورقة لاتزال في مكانها. وكان حسن قد خبأها لديه منذ بداية الحرب. انها ورقة النبوءات، كان يقول حسن. كانت العائلتان متخاصمتين، لكن التنظيم كان يجمعهما. تنظيم وطني كبير يضم شتى الاتجاهات والعقائد. رفيقهما جورج كان منتميا لتنظيم يساري، إلا أنه كان صديقا شخصيا لهما. ورقة تنبؤات! كان حسن يسخر من ورقته العجيبة. يخبره:

يا مازن. بكرة تشوف. إذا قدروا يطلعونا من الزعتر، فالمنطقة ستنقسم دول صغيرة، وامارات طائفية متل ممالك الأقزام. والله من هنا يتقرر مستقبل المنطقة كلها. لهذا ليست خسارة كل التضحيات والخسائر التي نقدمها.

وكانت ورقة عجيبة حقا، تمثل خريطة للشرق الأوسط قام حسن برسمها وتلوينها بشكل بدائي، وحدد عليها تقسيمات إمارات الطوائف التي يتخيلها. مد مازن يده إلى جيب قميصه يتلمسها مرة أخرى، وتساءل في سره إن كانت الأيام ستشهد تحقيق رهان حسن ما داموا قد خرجوا. تناهى إلى مازن صوت رفيقه نظمي وهو يحاول أن يكتم السعال المزمن يحشرج صدره، فخرج منه صوت أشبه بالبكاء. قال مازن هامسا:

ولا يهمك!

قال نظمي

شو فكرت أني   يا ريت دموعي بتنزل.أحسن لي.

دخلت خزنة إلى المهنية الفندقية التي كانت تستخدم كأحد المراكز لاحتجاز أهل المخيم وتفتيشهم. ساقتها قدماها المتخاذلتان مع الجمع المساق إليها. كان المسلحون يدفعونهم وهم يقولون:

- إمشوا إلى الموت. من أين تنبعون. وأين هي الملاجيء التي كانت تسعكم؟؟

دفع جورج بنفسه من فج الصخرة بعد ذهابهم، ومشى في الظلمة المهيمنة بعد احتجاب القمر. يؤلمه مشط قدميه، ويحس بوجع التمزق العضلي يمتد إليهما. منذ الطفولة، والوجع يسري فيهما بسبب انبساط قوسيهما. البوط العسكري الثقيل يفرز مزيدا من أوجاع التصلب في نسيج عضلاتهما. وهو يسحب نفسه بقدرة قادرة ويمشي عكس الإتجاه الذي قدم منه، فهذا هو دليله الوحيد إلى الطريق.

كانوا يسألون المرأة التي يقبضون على زوجها أثناء التصفية الأخيرة قبل ركوب الشاحنات:

كيف تريدين أن يموت زوجك نقتله، أم نذبحه ونسيل دمه؟

رأتهم عائشة وابتلعت الشهقة في صدرها. زوجي! أين؟ لم يسألها أحد عن زوجها. كانت تبدو منكمشة متضائلة كطالبة في مدرسة إعدادية. ومع هذا، فقد غمر الضيق صدرها، وتمنت لو أنه كان لا يزال يخرج معهم عن طريق الجبل.

وفي مكان الاحتجاز الذي أرغمت خزنة على دخوله، طلب المسلحون من مئات المتواجدين من سكان المخيم الطلوع إلى الطابق الثالث. تجمد أناس كثيرون في أماكنهم لأنهم خمنوا الدافع وراء هذا الطلب. لكن صليات الرشاشات التي انطلقت بينهم وفوق رؤوسهم جعلتهم يهرولون كل في اتجاه. يركض العجائز والشيوخ المخلعة أسنانهم بحمية تشابه الأطفال المصابين ذوي النظرات المنكسرة بينهم. رأت خزنة نفسها وهي تركض معهم. تتدافع وتختبىء بينهم. يدفعها الآخرون ويحاولون الإحتماء وراء جسدها كما كانت تحاول هي نفسها أن تفعل معهم. كان ذلك تسلية استثنائية لمسلحين لا يكلفون أنفسهم عناء السؤال عن الاصابات التي يوقعونها بالناس جراء لهوهم. داخت خزنة، وفقدت تماسكها للمرة الأولى في حياتها بسبب سرعة ركضها ودورانها القياسية التي لم تألفها، ومن ثم

احتماءها بين جموع الأجساد التي أفــرزت عــرق الخــوف الحامض المعدني كما لم تفعل قبلا. أنزلوهـــم، وأصعدوهــم. ثلاث مرات. ثم. قالوا إلى الشاحنات.

أمام الشاحنة كان يقف مسلح أشار إليها.حاول المسلح أن يميل عليها وأن يفتشها، فقالت:

- ما معي مصاري.

قال:

- اللي ما معه ما يطلع.

انتشلت خزنة من داخل صدريتها أربعمائة ليرة، وأعطته إياها. قال المسلح، وهو يفسح لها الطريق:

أنتم علمتونا الشجاعة والصمود يا كلاب. فتحملوا.

انتشر نور الفجر في حلقات متموجـــة علـــى الوديـــان والتلال المحيطة بالجرف الجبلي الذي غذ المسير اليه. جفنـــاه لم يعرفا طعم النوم، رغم تمدده فوق الصخرة الملساء التي لجأ اليها للاستراحة فجرا. كان يعبر منطقة أحـــراش صنوبريـــة الآن. الرصاص لا يني يتردد في طبلتي أذنيه بعد أن مر قرب مواقع مشتعلة بالاشتباكات بين مجموعات المنطقـــة الكتائبيـــة المتعطشة لإبادة جميع من يقع بيدها من شاب المخيم. ارتطـــم خلال الليل بجثث متجمدة، وبأحجـــار غـــير ظـــاهرة وراء

البلان الكثيف، وبحشرات تطن حوله أو تلذعه. كان عليه أن يجد مكانا يتسع له ولبندقيته خلال النهار إلى أن تحل العشية فيستأنف مسيره. وفي داخل الصخرة، داخل الحجر الحنون الذي ستر حضوره عن عيون الأعداء، تذكرها. لا يمكنه أن يحس بالانبساط والطمأنينة أو الفرح إلا ويتذكرها تلك التي لا تغيب عن باله أبدا. المجنونة بالنكات والمزاح والضحكات والشتائم. ابنة المخيم التي تظن نفسها ابنة مدينة لمجرد أنها ارتدت الجينز وركضت في ساحة تدريب المليشيا، وعاشرت المقاتلين في المكاتب. المسكينة التي يغوص قلبه كلما بدأ يفكر في الذي يمكن أن يحدث لها كأن حنينه الشرس اليها يعكس مصيرا غامضا يأبى قلبه أن ينكشف ستره. يريدها، ولا يريد أي سوء أن يلحق بها. وغابت سحابة دامسة أمام عينيه. ليته بقي معها، ويا ليتها بقيت معه.

ما زال الصوت يخرق أذنيه شبيها بطنين الذباب الأسود الذي يتحلق فوق أجساد الموتى. المساء.عذاب اليوم كله يتجمع في جسده المنهك بالعطش والجوع. وجد أعشابا تذوقها ولم يلبث أن بصقها بسبب مرارتها. جرب مضغ أوراق الصنوبر لكنه لم يستطع بسبب العطش الذي جفف خلايا فمه ولسانه المنتفخ بتقرحات صغيرة.

السجائر! نعمة الحياة في الدنيا والآخرة كما اكتشف وهو يمشي وحده دون أي معين أو أنيس. يمشي بين الأجمات المتشابكة، تحت أشجار الصنوبر المترقرقة بلون

اخضرار عقيقي. بين الصخور الصلدة، الراسخة في مكانها منذ بداية العالم. في البرية، بين زيزان الليل بأزيزها الرتيب، وظلال الصقور الجارحة في الأعالي. يمشي دون أن يمتلك بوصلة أو خارطة لكنه يحاول اتباع آثار حدسه. انتبه إلى حشائش محترقة على سفح جبل مقابل، فعرف أنه ما زال في المنطقة العدوة لأن اتجاه القصف كان آتيا من الناحية الغربية. يمشي ورجلاه لا تقويان على السير، والجوع يعض على معدته وأحشائه بألف ناب. يرغي على لسانه كمصاب بلهاث أجش. لا مجال في هذه البرية للقمة. أو شربة ماء، أو نفس تبغ. لا، ليس إلا الموت الذي يهزأ به. أما كان أولى به أن يموت هناك رضيا، هانئا، يغمض عينيه بين أناس يعرفهم ويهمهم أمره، فلا يكون هكذا فريسة للأرض والسماء وما بينهما؟

على أرض ساحة النافعة كانت أم مازن تهتم بصعود كنائنها وأطفالهن إلى الشاحنات. لها ابن مقاتل في الجنوب أسكن زوجته قريبا منها، ولم يستطع الوصول اليهم خلال الحصار الأكبر والأصغر في عداد الشهداء، أما مازن فلا بد أنه تدبر أمر نفسه كما يشير لها قلبها. أما الاثنان الباقيان فكلاهما مقاتلان في مخيمات الشمال، البداوي ونهر البارد. لا شك أنها ستستطيع أن تتدبر أمر ايواء العائلة الكبيرة التي تصطحبها. نظرت إلى زوجة مازن وطفليها، فهبط قلبها في

صدرها. ماذا لو خاب ظنها، فترملت كنتها وصار عليها هي عبء القيام بمسؤولية أرملة أخرى في العائلة ؟؟ لا، قلبها يحدثها أنه لم يجر شيء لإبنها. وكنتها تتصرف بهدوء غير معتاد بالنسبة لها. وفكرت:"مرة مازن طائشة، ودلوعة لكنها انقلبت الان إلى مثال للرصانة والاتزان وتحمل المسؤولية. ستخبره هذا ولا بد، كي يقر عينا بدوره عندما ينفذ من الحصار ويقابلها في المنطقة الغربية.

أتى مسلحون آخرون من الأحرار، وقالوا وهم يخرطشون بنادقهم باتجاهها:

قولوا" يعيش شمعون

قفز محارب كتائبي، وصرخ بالصاعدين إلى الشاحنة:

لا تطلعوا الا إذا قلتوا يعيش ببير الجميل

تعالوا بوسوا سباطي.

وأردف ذلك بصليات نارية جديدة بين أرجل الأطفال والنساء الواقفات قرب مؤخرة الشاحنة.

وسط حفرة عميقة قبع مازن مع مجموعته منتظرا زوال النهار. كان ذلك على مدخل احدى قرى الجبل المعادية. قربه جثم نظمي الماروني الآتي من حيفا، والذي كان يعيش في مخيم جسر الباشا منذ طفولته. همس نظمي:

لو شافتني امي متخبي وسط هالحفرة اللي متل القبر لشتمت الساعة التي خلتها تولدني.

طأطأ مازن جبينه، واكتفى بأن واصل حفر نقوشات هندسية على التراب بعود القش الذي يحمله بين أصابعه، قال:

تحيا الأمة العربية.

وجد جورج نفسه على بداية الطريق الوعر بعد انحدار الشمس. انتقى دربا ترابية متعرجة، ومد خطواته الثقيلة على الأرض من جديد. كان مساء موحشا لا تقطعه سوى أصوات ثغاء المواشي البعيدة، وأجراسها التي يرجع صداها بين الوهاد أثناء رجوعها إلى مزارعها عند العشية. ليس بإمكانه أن يقترب من أحد هذه الأماكن المأهولة وأن يطلب العون أو رشفة ماء. كان وجهه قد اتشح بغبار طباشيري حتى ليظن من يراه بأن أحد الأشباح يطفو أمامه. فكر أن يستخدم هذه الحيلة، أن يقفز بغتة إلى سياج قريب ويطلق أصواتا غريبة كي يستطيع اختطاف لقمة في لحظة المفاجأة التي ستصعق ساكني البيت لكنه لاحظ أن الجوع قد أدى به لأن يخرف ويهرف بما ليس معقولا كلاب المزارع مع بنادق أصحابها منتبهة الآن لاستقبال الخارجين الهائمين. التقط بضعة أحجار عريضة منبسطة ووضعها على معدته بين جسده والقميص. ارتاح لمفعولها الضاغط الذي يساعده على تحمل التقلصات القوية الآتية من الأحشاء.

الجوع.. والعطش.. ما كان أحلى طعم ذلك العدس. قال مازن لرفيقه نظمي، ولم يلبث أن صمت. كانت حشرات دقيقة ذات لدغات قوية لا تكف عن الجولان تحت الثياب. ست عشرة ساعة وهم لا يستطيعون الحركة في أماكنهم. اختفوا داخل شق جبلي يحيطه العرعر والزيتون البري. الصخر يحت في أجسادهم، والنتوءات تحك جنوبهم. وتنمل الأطراف يتسلط عليهم بسبب ضيق المكان وعجزهم عن التقلب أو التململ داخل الفجوات التي تأويهم وتنهش أجسامهم. تلمس مازن الورقة الحائلة اللون، الملتصقة بالعرق داخل جيبه العلوي. زفر فتصاعدت آهة مخنوقة لم يطق لها دفعا. حدق نظمي في مسؤوله الملتحي، كبير الأنف، صغير العينين، ولم يعرف كيف يستطيع أن يطمئن على أحواله. منذ بداية المسرى ومازن يبين كالأعمى الذي يتخبط في جميع الاتجاهات. كأن روائح الجثث المنتشرة أثرت على تماسكه فبدا تائها، فاقد الحول والطول. حين خرجوا من الشق الحجري الذي يؤويهم، كان الدم يسح على كتف مازن ورجليه بسبب خدوش الصخور. بدا وكأن الرجل الذي اخترق طوق الحصار في أوجه ووصل إلى المخيم، قد انقلب الآن إلى رجل مهدم لا تربطه أوهى صلة بالحياة. كان مستغرقا بالتحديق في ظلال غير مرئية هي خسائره التي قد تعجزه عن استئناف الحياة التي اعتادها. كل الذي جرى، ثم استشهاد معظم أصدقائه، حسن وآخرون ثم جورجٍ الذي لم يعد يعرف عنه شيئا منذ اختفى عن ناظريه. وأولاً وقبل أي شيء موت زوجته وطفلته

بسبب اهماله. كان يواصل بدافع آلـــي مســتمد مــن حركــة المجموعة. لو تركوه، أو لو ابتعد عنهم فإنه لن يجد القدرة قط على الاستمرار في المشي ولو بضع خطـــوات. كــانوا قــد وصلوا إلى بداية سلسلة الجبال الأخرى الآن. وحولهم أشــجار كثيفة. بغتة، التمع ذلك الشيء أمام أبصـــارهم، جســم هــائل مترجرج متدفق فضي أخضر. ينبعث منه دوي وهيجان. شيء كامن في أعماق ذاكرتهم المنسية كان يحثهم على التوجه لــــه توا. فورا. دون كلام أو سؤال. لكن! ودمدم أحدهم شيئاً عـــن الموقع المكشوف الذي هم فيه، والـــذي ســيعرضهم لنــيران القناصة من الجانب الذي أوشكوا على الانسحاب منه. فــارتدوا جميعا على أعقابهم يحاولون أن يشقوا طريقا إلى النهر الـــذي قد يواجه طالبه الموت قبل الوصول إليه. ظلوا يلتفتون خلفــهم وهم ماضون إلى أمام، إلى أن وجـــدوا حافــة تلــة مغطــاة بالأشجار، فانحدروا منها غير مصدقين أعينهم. الآن، المـــاء. وصلوا إلى الماء أخيرا، وستين يوما لم تر أجســـادهم المـــاء خلالها ولا لمسته ولا تباركت بنعمته. يا للتعب يتحلـــــل فـــي الأجساد، ويذوب ويسري في المجرى البارد اللذيذ المؤلم الذي لم يكن دونه انسان. غطس الرجال بأوجاعهم، وجروحهم التي يتحاملون عليها، ورشوا على بعضهم البعض ماء، وماء إلى أن كادوا يصابون بالخدر وتجمد الأطراف.

لم يذكر مازن أن الورقة قد ابتلت إلا عندما خرج مـــن الماء، وارتمى مع رفاقه على الأرض الدافئـــة ينشــد معــهم تجفيف الجسم والثياب. تركها في مكانـــها كـــي لا يســحبها

فتنشق بين أصابعه ويعجز عن لمها. الماء قد يلاحق الموت الإنسان، لكين ليس قبل الإنغمار في هذه النعمة. تباركت الحياة وأنهارها جميعاً، لو أغمض عينيه إلى الأبد بعد اليوم فإنه لن يحزن ويأسف على شيء.

في الصخب والزعيق تململت العائلات، أو من عثر منها على بعضه بعضا. وقفت زينب وراء الشاحنة التي يتدافع البشر إليها كأنهم في يوم الحشر، كانت تحمل أولادها ليستطيعوا تسلقها وسط الهرج اللامتناهي الممزوج باللكمات وحركات الجذب والابعاد والدفع والارتطام. صعدت سميرة ويدها قابضة على أختها نسرين، وتعمشق سمير على مؤخرة السيارة الضخمة، فدفعت إليه أمه بأخته عبير ذات الأربع سنوات. عندما أوشكت زينب على الصعود وسط العويل المختلط بأنين الأطفال ونداءات الأمهات، امتدت أياد إلى سياج الشاحنة فأغلقتها، ومنعت الصعود إليها. ركضت زينب إلى السائق الجالس في القمرة الأمامية، ونبرت لاهثة أمامه:

يا خيّي، من شان الله. افتحوا لي. لازم أطلع مع ولادي.

فأجابها السائق ذو الوجه المستدير، يرشح برودة وعدم اهتمام:

خلص. ما بقي محلات. إطلعي بكميون تاني ولاقينا عالمتحف..

المتحف ! نهاية الخط الفاصل بين المنطقتين الشرقية والغربية. شق سكين رفيع حبال الحنجرة. المتحف! يا ويلي وركضت زينب إلى الشاحنة التالية لتسرع في ملاقاتهم هناك. راجت أنباء بين الناس عن الشاحنات التي تعبأ بشرا يُعرضون على أهل المنطقة الأخرى، فيما الحشود تبصق عليهم وترمي الفضلات والأوساخ..هل هناك ضمانة بأن لا تكون الشاحنة التي انطلقت بالأولاد قد اتجهت إلى هناك؟؟ قالت آمنة وهي تلطم خديها:

اسرعي اطلعي يا مسخمة تتشوف اذا بوصلوا للمتحف وإلا بسحبوهم عالأشرفية!

حين تعثر في ذلك الحقل الأجرد الذي ترتفعه فوقه نجمة المساء، انتبه إلى البثور الداكنة التي تنبثق فوق وجه الأرض. مد كفه المرتجفة، وتحسسها. وجد جذعا مشعرا خشنا يلتف كالثعبان. تلمس قاعدته الثخينة وتابعها ليرى إن كان سيوجد عليه ما يؤكل. عثرت أصابعه على ورقات خضراء لها شكل أصابع الكف. كانت دالية وعليها عناقيد عنب. طوى جورج ساقيه، وجلس متربعا في الحقل الفسيح. وبدأ في التهام العناقيد الواحد تلو الآخر. صار بإمكانه أن يرى وميض الشمس التي أنضجت العناقيد، وملأتها شهدا عسليا. التمعت قطرات الماء على شفتيه، وروت غليله الذي احترق أو أوشك على الاحتراق. لم يعد هناك ليل. صار بإمكانه أن يتعامل مع

العتمة بعد أن اختفت الشفرات التي تقطع أحشاءه بنصالـــها. لا زال الطعم الذهبي ينسكب في خلايــــاه حـــاملا معـــه وهـــج الرغبات الذي خبا منذ أن صار ذئباً وحيدا في البرية. لو ظـــل على قيد الحياة فسوف يقيس الأمور بنظرة أخــــرى وطـــرق جديدة.

هو الذي تخلى عن كل الأشياء ذات الطابع الشـــــخصي. لا، في المرة القادمة، لن يسمح لهناء بتركه والخروج مع أمها بسبب من الواجب. سيجعلها إلى جانبه دومـــا ولـــن يعطيـــها المجال للابتعاد والانهماك بأشغال أخرى. تتفتح شهيته للحـــب مع قطرات العنب السكرية هذه كما لم يحس سابقا قط. يا لـــهذا العاشق البارد الذي كانه! يا لهذا المحب التعس اللامبالي الـــذي عاش داخله ! إنه يحتار كيف أمضى السنوات التـــي مضـــت مساقا بفكرة تغيير الحياة البشرية بكاملها دون أن يفعل شـــيئا لتغيير حياته هو منذ هزيمة عام ٦٨، ترك الجامعة والتحـــق بالمقاومة ليكفر عن سقوط لم يرتكبه هو. ليدفع ثمن انحــــدار الأنظمة التي حرمته وشعبه من فرصة الدفاع عن الوطن، إلى أن سقط الجزء الباقي في حرب مسرحية لم تطلق فيها طلقـــة واحدة. إنه هو وآلاف زملائه الشباب الذين كفروا بكل ما هـــو قائم، وأخلَوا بهدوء حياتهم لينتموا إلى المقاومة المسلحة التـــي ستؤسس الدولة الحلم. يا إلهي أين نحن مـــن الحلـــم الآن خرجنا من الضفة مساقين، مطروديـــن إلـــى الأردن. ومـــن الأردن خرجنا مذلين مهانين بعد معارك الأحراش إلى لبنـــان، وها نحن في لبنان. نخرج من مخيم الزعتر، إلى أين لســـت

أدري. أيتسع هذا العالم العربي الطويل العريض لنا ؟؟ هــل.. يقبلنا بحلمنا؟ أم أنه سيظل مصرا على طردنــا كلمــا تشــبثنا بجمرة الأمل؟؟

الأمل! كيف نعرفه وأين نجده وفي جعبتنــا كـل هـذه الخسائر التي تكوي كل ما فينا، مــن جلودنــا إلــى حدقــات أعيننا. شد جورج قامته عندما لاحظ الســفح المقــابل الــذي يترقرق في أسفله غدير ماء. لا النهر. إنه النهر من جديـد. لا بد أن أمه قد ولدته في ليلة القدر كي يستطيع أن يصل إلى هنا حيث الحدود بين الجهتين. ولا بد أن هناك زمــلاء وأحبابــا كثيرين آخرين لم تسعفهم الظروف نفسها للوصول إلــى حـد الأمان. إذا استطاع أن يشنف حواسه ويركــز انتباهــه جيــدا فلربما يستطيع تجنب الكمائن المستعدة لاصطيــاد الخــارجين عند نبع الماء. منذ الآن، سيرتبط الماء لديه بذكرى الخطــر منذ محور علي سامر شقيق مازن الذي انسحب مع مجموعات أخرى عبر الطريق الجبلي. ومازن ؟ اين هو ؟؟ لا. ســيفكر فيهم جميعا عندما يصل. سيفكر في الأموات منهم والأحيــاء فور اجتياز الحد الفاصل إلى بر الأمان. وتراءى له صديقــه حسن، فجمد قلبه وأحس للمرة الأولى أنه يودع أعز صديــق في حياته التي انصرمت حتى الآن وتبــددت فــي الحــروب والاشتباكات. لاحت الفتاة كشرارة برق خاطف. عائشــة. قـد يكون لزاما عليه أن يسأل عنها عند حماتها أم حســن. علــى خلفية أفكاره كان يذكرهم جميعا، ويرى هناء. لم يكــف عــن رؤيتها طيلة الطريق. رآها في كل حجر وحصاة. وســحابة

عابرة. تحدث معها كثيراً، ووعدها بان يعلمها معنى الحياة. ليست الحياة مجرد انتصارات أو شقاوات صغيرة. أن يمزح المرء وأن يشتم أو يثرثر. الجياة هي أن يجد المرء نقطة سكر كي يعيش وقربه حبيبه أو صاحبه. آنذاك يكتمل الأمل. لا يكفي الحلم الجماعي للعيش أبدا. وعليه أن يحسن محبتها، وأن ينتبه لمشكلاتها وأن يساعدها بشكل أوضح من ذي قبل. لا يكفي أن يقبل منها الكلام المازح حول كونها "هبلة أم كونها ابنة "مخطوف" سوف يحسّها بشكل أكثر رهافة. يشكرها على نعمة الحب التي أعطتها له. ويحميها برموش عينيه. كان متأكدا أنه سوف يجدها بشكل من الأشكال، فهي ذكية، وقادرة، وبإمكانها أن تتخلص من كل المعوقات وتحضر لملاقاته. إنه هو الذي خلق من أجل سعادتها، من غيره قادر على فهمها ؟، من سواه يستطيع أن يتحادث معها ويدرك خلجات مشاعرها؟

حين وصل إلى مشارف الهضبة التي تسير بمحاذاة النهر، شاهد مجموعة من المسلحين على الجهة الأخرى ينتظرون القادمين تحت ظل شجرة زيتون ربطوا إليها بغلا. لم يشاهدوه بعد، قد يسددون الأسلحة صوبه قبل استقباله. عليه أن يفكر في الطريقة التي سيتعارفون بها. لكنه ! وصل. عندما ألقى بنفسه في ماء النهر المثلج، بكى بصوت عال وهو يستدير إلى ناحية المخيم. لم يكن له بيت أو أهل هناك. ولكن! كأنه يخرج من بيت أهله، من دار والده وأمه، ومن أرض الضفة التي تربى فيها. تماوجت المرئيات في حقل بصره،

ورأى جميع من عرفهم في صورة واحدة. مروا جميعا خفافا وثقالاً في دمعته. أجهش في البكاء وهو يتقدم إلى الضفة الأخرى عندما تذكر المقاتل الذي ما زال يرمي الغزاة بمدفع الدوشكا على تلة المير ليغطي انسحابات زملائه.لكن دمعته الساخنة ما لبثت أن ذابت وسط زمجرة المياه الهادرة التي يجتازها الجسد بمنتهى العافية. ليست الصحة حكما، إنما عافية حب الحياة.

عندما وصلت أم حسن إلى بوابة المتحف، نزلت من الشاحنة التي تكاد تنقلب على أحد جانبيها لشدة اكتظاظ الذين يختلط صراخهم مع بكاء الأطفال وعويل النساء. أسندت"الختيار"، خفيف الوزن الذي رق جسمه حتى صار يهتز مثل "الريشة" واستدارت إلى الخلف، مؤشرة بيدها في مهاهاة طويلة:

هيه. هيه. يمّا. أتركك وراي، لكن بوعدك اني ألاقيك وأرجع. هيّاني رايحة ! يمّا. الملايكة تحرس نومتك يا حسن. لا تزعل يا ابني. رح آخدك على "تربة الشهدا" متل أخوك فايز. مصيرنا نتلاقى يمّا. إستناني. ولا تقلق في نومتك.

فهم أبو حسن ما تقصده زوجته بحديثها لابنها. عرف أنها لن تستريح إلا إذا نقلته إلى تربة الشهدا في المنطقة الغربية. سحّت دموعه على شيب لحيته، وقال لها بخفوت:

- تعالي. تعالي.

كانت أم مازن تسوق وراءها رتلاً من النســـاء، وهـــي تعنف كنتها "مرة مازن لأنها تلكأت بغرض البحث عن أمــها وأبيها. تحكي معها، تقول

- خلصينا وامشي يا بنتي. خلينا نْبعد شوية مـــن هــون أحسن ما يفتكرونا ويسحبونا هناك من أول وجديد. ســـاعديني يختي. الذي شفناه ما حدا شافه !! هيّاني ما قدرت أفتش علـى عمك أبو مازن خايفة يضيع الوقت ويتذكرونـــا إذا شــافونا. إمشي يختي. إمشي. مصيرك تلاقيهم.

(١٥)

على البوابة التي تقسم المدينة، استدارت عائشة إلى الخلف لعلها تعثر على أحد من أهلها. تحس بشوق إليهم للمرة الأولى في حياتها. الجفاف يمزق أحشائها. كتل الغبار المختلط بالعرق على وجهها، وأسياخ الحر الملتهب تكوي فتحتي أنفها. تقف بين الناس ، ولا تراهم. ترى أشتاتا ممزقة من بقايا حشود الآدميين الذين كانوا بشرا عاديين ذات يوم، ولم يعودوا. وأنها هي، أيضا، مثلهم..

كانت الأصوات العالية تشتبك مع نداءات اللوعة وصيحات الوحشة والفقدان. يوم القيامة!؟ العويل، الندب، النهنهات، الحشرجات، الصرخات، الزفرات، الدموع التي لم تكن دموعا وإنما كتلا طينية ملوثة بالأملاح. بكاء متقطع. ولولات متواصلة. أولاد هائمون على وجوههم، ونساء ذاهلات يمرقن وعلى وجوههن تعابير الفجيعة والدمار. الدماء

تسيل أو تتجمد على جروح مكشوفة أو مضمـــدة بعشـــوائية. الجميع يولي الأدبار كالطرائد. الجميع ؟ لا، النساء وحدهـــن. لم يتبق من الرجال سوى بعض الشيوخ. ولم يتبق ثمة فتيـــان سوى بعض الأطفال. ولم يتبق من كل عائلة سوى نصفـــها أو أقل.

وقفت عائشة وأمواج بشرية تتلاطم حولها، كأنـــه يـــوم الحشر. وخطرت في بالها فلسطين. أيحدث معنا هذا لأننا نريد العودة إلى فلسطين كما قالت أم حســن. لا. تذكــرت عائشـــة الصور الذهبية التي رسمتها في ظلال وحدتها الجنونية بعـــد موت حسن واختفاء جورجيت. كانت تدير ما حـــدث بفكرهـــا وتتكلم مع نفسها، تقول أن كل هذا حدث وصـــار لأنـــهم لـــم يعودوا في بلدة أمها أو مدينة أبيها. فإذا كان المـــوت موتـــا، فلماذا لم يقبل الأهل أن يموتوا هناك، ولم ينتحروا حيث كانوا؟! لماذا اندفعوا وراء رعبهم إلى ما يتصورونه حياة في الخارج؟ لماذا لم يعرفوا أنهم سيواجهون ما يلقونه الان، بعـــد رحلـــة المرارة والتعب. أفنوا أعمارهم في تأسيس حياة أولادهم. وهـــا هو ما يلحق بهم لو كان لديهم ذرة من الحكمة لعرفـــوا أن كل ما سعوا من أجله هباء، وأنه كان من الأفضـــل أن يبقـــوا هناك. يعيشون أو يموتون. ولا ينجبون من هم مثلها أو مثـــل حسن أو خزنة على الأقل. وتراءت لها خزنة كما شاهدتها قبل شهر في زيارتها الأخيرة إلى البيت. فقرصـــــها شـــيء فـــي فؤادها. لا بد أنها ماتت الان. سمعت أن معظم عاملي المركـــز الطبي قضوا على حاجز الكنيسة، ولا بد أن خزنة بينهم، لأنها

لا تقبل مفارقة طاقم العمل الذي تنتمي إليه. مسكينة خزنة لا في الحياة ولا في الممات ! لا.كلنا. جميعنا أيضا من عاش فينا أصلا كي يحق الموت عليه ! جورجيت ! حسن ! أم جورج ! يا إلهي. هو أيضا إذا لم يكن قد فني معهم. عاد غريبا بالنسبة لها وكأنه لم يكن. هي الساذجة التي ظنت في أحد الأيام أنه قد يصير. أيضا. لكن أين أم جلال. الولد؟ ابتسام المصابة وحسام ! كأنها كانت تترنح عند حافة هاوية لم تعرف أنها تقف فوقها، وبدأت تصحو الآن. لو اختفوا.. لو لم يبينوا كما ترى في الجموع التي حولها، فماذا يحدث لها بعدها؟ وأغمضت عينيها على قهر جديد. لا أنها ليست بحاجة لهم إلا لأنها تحبهم. ليست بحاجة لهم بعد اليوم لأنها ستبحث عن عمل ما. أي عمل! فقط هو الاشتياق الذي لم تشعر به طيلة حياتها ويراودها الآن، ويدفع بالمخاوف والظنون إلى صدرها. تتطلع إلى السماء الزرقاء الصافية المائلة إلى النيلي. ولا غيمة واحدة. تنظر إلى صفوف الأشجار التي تفرش الطريق القادم من المنطقة الشرقية إلى الغربية، فتراها غاية في الأناقة والرفاه تتناقض مع أفواج الجائحين النائحين تحتها. تنظر إلى الجانب الآخر من المدينة فلا يلفت نظرها أي تغير يشي بأن ثمة شيئا غير معهود قد طرأ عليها. محطة بنزين عادية تستقبل السيارات وتملأ خزاناتها. بائعو العصير والكعك يتكاثرون قادمين من الغربية وكأن ثمة مولد أو احتفال. البكاء يتصاعد حولها مثل رفوف طيور مغادرة إلى السماء، وليس ثمة من يرى ويسمع ويحس ويصرخ. أو يشق ثوبه حزنا على

ما جرى معهم. فقط مصورو الصحف وحاملوا الاوراق المفلوشة وآلات التسجيل. كل هذا الموت، وهم ينقضون على الخارجين كما لو أنهم غنائم هبطت من الفضاء الخارجي، كي يحصلوا على صور تزين عواميد أخبار صحفهم. سمعت عائشة أصوات نساء يخرجن من وطأة الحزن، ينسينه للحظات ويشتمن الصحافيين والحكام بكل جوارحهن، وبألفاظ بذيئة. عاودت عائشة التدقيق في ملامح القادمين والقادمات بحثا عن أهلها أو بعضهم، قد ينفذ حسام مستبقا الناس على عادته. أو يطل السيد المتعب جارا إياهم خلفه. لا شك أن حمل ابتسام التي لا تستطيع المشي قد أضناه، وجعله يتعثر في هذه الشيخوخة السريعة التي أودت بالبقية الباقية من عافيته وصحته. تحول السيد إلى عجوز مهدم تخلعت معظم أسنانه الأمامية دون أن يستغرب هذا الإنقلاب السريع أي ممن عاصروا أيام جبروته وعنفوانه. إنه أب على كل حال رغم أن عواطفها لم تتحرك معترفة بأبوته إلا عندما شهدت تأثره الشديد على حسن. وهي؟ ماذا بقي لها؟

كانت الروائح الزنخة لا تزال تنبع من أكوام الجثث التي خلفتها على الطريق وراءها. الحر الخانق يشبع الأجساد عفونة ورطوبة خاثرة. النطفة الصغيرة تتقلب في أحشائها. مجرد مضغة لحمية ستتحول إلى انسان يعيش كل ما حدث رغم أنه لم يره.. ما عادت تملك شيئا بعد الآن سوى ما في بطنها. وهبت عليها أنسام الحنين تجاه كل من عرفتهم قبلا. كان كل ذلك حياتها. إنها لن تشرب قهوة الصبح مع أم حسن

بعد اليوم. ولن يمسد حسن على شعرها النامي حديثا، ولن ترى من بعد جورجيت التي لم تفقد الأمل بعودتها. ولن ترتدي الثوب الزهري حين تكون وحدها في الغرفة كي لا تستلمها آمنة وتعيب عليها لباس الفتيات بعد أن صارت عروسا. تلفتت حولها بقلق جديد. دفعت يدها داخل جيب تنورتها، ورفعت الزجاجة الصلبة الحادة اللامعة إلى خدها تمرغها وتمسحها ببشرتها. كانت قطعة المرآة الصغيرة التي انتشلتها من بين أكوام القمامة في رحلاتها الى الكنيسة والمعامل المنسية مع حسام وابتسام. ما زالت تذكر وميض اشعاعها حين التمعت قربها بغتة. تتملى فيها أهم أحداث حياتها آنذاك. الرحلة والاستكشاف وإن كان على دوي القنابل والمعارك. لم يكن الملجأ يعني بالنسبة لها شيئا عدا صداقة جورجيت. ولم تعنِ لها المعارك والقذائف والحروب والمتاريس والدشم والمآسي المتتالية سوى الخسارة. الأمر الوحيد الذي يؤرقها الآن هو أن تفهم لم حدث كل هذا لم الحرب؟ لم نحن هنا ؟ لم الموت ؟ ولم لا نعيش حياة طبيعية مثلنا مثل غيرنا لم لا يقبلون أن يتركونا في حال سبيلنا؟ لم يخرجوننا من بلادنا ويغضبون حين نعمل على الرجوع إليها، ثم لا يقبلوننا حيث نحن. أين نذهب إذا؟

وهناك في وسط المكان الذي يقسم المدينة إلى شطرين تمثلت عائشة ما حكته لها أم حسن عن البلاد. سهول شاسعة ممتلئة بالقمح الذهبي وحبات الزيتون الأخضر. مراع ممتدة على مد البصر، ونساء يغنين ويهاهين في الأعراس التي

تنتظر الفتيات مواسمها لأنها تقام في ساحات تعلق خيالهن بها. ولا واحدة فيهن تعرف الغربة أو التـهجير، أو قتـل الأحبـة والأبناء. تتركز همومهن في وفـرة المحـاصيل الزراعيـة وهطول المطر وتبلل التراب. يجلسن فـي العشـيات علـى مصاطب البيوت وبايديهن ابر التطريز والخيطـان الملونـة. وفي الخلفية قمر ذهبي ينظر ما يحكنـه مـن رمـوز علـى القماش، ويضحك ! سحبت عائشة أنفاسها الثقيلة مـن قعـر صدرها رغما عنها. الحر ! ورائحة الجثث والدماء الفاطسـة. لا يمكن أن يتحول البشر الأحياء إلى رائحة مرة وقاتلة كـهذه. لا يمكن. أهذا معقول! أهذا معقول على رأي أم حسن التـي سبقتها إلى الجانب الآخر من المدينة. واستجمعت في فكرها ما كانت تقوله العجوز لها: يـا خـالتي سـنصير كلنـا نسـاء قبضايات. هل خلّوا لنا شيئا آخر كي نكونـه كـل شـيء يأخذونـه منـا. الـزواج والأولاد، والبيـوت والحواديـت والعواجيز.. كل شيء. لهذا نظل ندافع طيلة الوقت كأننا لسـنا نساء بل واقفات وراء متراس.

انتظرت زينب مع آمنة وصول الشـاحنة التـي تحمـل أولادها. غادروا قبلها، لكنهم لم يصلوا إلى بوابة المتحف حتى بعد مرور ما يقارب الساعة. كانت تنط، وتقفز تكاد دماؤها أن تنفجر في عروقها. أين ذهبوا، ولماذا لم يحضروا حتى الآن أغلقت كافة جوارحها المتصلة بالعالم الخارجي. وحـاولت أن تحتفظ برباطة جأشها وفق نصائح آمنة التي وقفت قربها وهي تفرك كفيها بشدة، فتكاد أن تدميهما. سـيصلون، سـوف.. لا

محالة لا بد. قالت لها آمنة التي استطال وجهها لشدة الهزال وفقد رونقه السابق. إنها الأقرب إليها من عائلة زوجها. الان، لم يعد هناك من هو الأقرب بالنسبة لها سوى أطفالها اليتامى. أتى الحصار على ثقتها بكل من حولها سوى بنفسها. لا تريد معونة من أحد، ولا حنانا أو تسلطا. ثم! أتت السيارة التي ركبوا فيها. عرفتها زينب من وجه السائق الكروي اللامبالي. توقفت الشاحنة، وبدأ الزعيق المرافق لهبوط الناس منها. نزل الأولاد واحدا واحدا إلا عبير. في البداية سمير وبيده أخته نسرين، ثم سميرة. والأولاد جميعا يجهشون بالبكاء. اختفت عبير بين الأقدام، لدى وقوف السيارة عند حواجز معادية على الطريق. كان الزحام داخل الشاحنة هائلا، وعندما كانت تتوقف للتفتيش كان بعض الشباب الذي استطاعوا الاختباء ينزلون للإختفاء بين أقدام الناس. وقعت عبير على الأرض بين الأرجل، وما كان بمقدور أحد أن ينقذها خوفا من انكشاف الأمر، وانتقام المسلحين من جميع من كانوا في الشاحنة. تسلقت زينب حافة صندوق الشاحنة التي بدت أشبه بسيارات نقل الأغنام، ودبت الصوت المديد:

راحت العزيزة علينا.

كانت تقول، هي تشد أولادها الملطخة وجوههم ببقع زرقاء تبرز بين سيول الدموع النازلة على وجوههم. انتفضت، وهي تبحث عن أم زوجها كي تشاركها المصيبة، فيما لملت آمنة الأولاد، وسارت مسرعة بهم. كانت عبير

الحلوة نائمة على ساعدي أمها. يتدلى رأسها إلى الأسفل مثل الفرخ الصغير على وجهها كدمات بنفسجية توشح الجلد المائل إلى الإزرقاق. وعلى فمها يتعلق خيط لعاب أصفر متجمد. ظلت الأم تمشي باتجاه مستشفى "الربير القائم بين المعبرين غير مصدقة نفسها تقول:

– بنتي الحلوة. بنتي. رح أضل أشم ريحتها. كيف أجيبها بعد ما راحت تلحق أبوها؟؟

* * *

على الخط الفاصل بين المدينتين حيث يربض بناء جبار اسمه المتحف، وقفت عائشة مثل حشرة صغيرة على بابه تنتظر وفود أهلها، أو من تبقى منهم. كان ذلك البناء يمتد شامخا وهمياً، بأعمدته الرومانية أو ربما الفينيقية كما تستطيع عائشة أن تستذكر من أسماء مدرسية. تتفرس في الحجر الصلد، وتناجي نفسها لم يفعلون بنا هذا؟ فإذا كان ذلك لأنهم يتحرقون إلى مجد أيام الرومان فهل نحن امسيحيون يفترسهم الأسود داخل حلبة الاستعراض واذا كنا نعود إلى أيام الفينيقيين فلم يبطشون بنا على هذا المنوال ؟ انتهت تلك الأيام منذ آلاف السنين، فلماذا يبيدوننا ويفتكون بنا؟؟

ماذا فعلنا لهم؟ كان السؤال يطن أمامها مثل أزيز ذبابة عملاقة تناوشها، وتحاول لدغها. بغتة، رفعت عائشة رأسها، وانتبهت إلى اقترابهم منها ومخاطبتهم إياها. قدمت أم جلال لاهثة، وابتسام معلقة على ظهرها. وحسام يحجل حولها. لم

تسألهم عائشة عن والدها. وجلَت من السؤال، وانتظرت أن يخبروها. قالت أم جلال وهي تضع ساعد ابتسام على كتفها، وتثبت الساعد الآخر على كتف عائشة

- الخواجة يعقوب. الله يقصف عمره. هو الذي قضى على أبوك. كم قلت له يا سيد صلي على النبي ولا تقول أنك هنا. وهو لا يسمع مني قال أبو النمر صديق عمره، قال

تعجبت عائشة من اللهجة التقريرية التي تنقل فيها أمها وقائع الموت، لكنها أرجعت السبب إلى التعاسة الغامرة التي احتوت الجميع.

مشوا. بدأ حسام يثرثر لأخته عما رآه على الطريق. أخبرها عن المرأة الكتائبية التي كانت تلبس الأسود وبيدها حجر كبير، وكيف حاولت أن ترميه عليه لولا سرعة ركضه. قالت: قتلتم ابني يا عرصات. انتم أولاد الزعتر. موتوا مثل أولادنا.

كانت عائشة مفعمة بالضجيج الذي يتحول بغتة إلى صمت قاتل يسود فوق العالم الذي تخلفه وراءها. رغم صراخ الضحايا والنساء فإن ما يحيط بها يدخل في سكون رهيب منذر. مزقت أم جلال الذهول الذي افترس عائشة. توقفت، مالت برأسها إلى الخلف. وحاولت أن تشق قماش ثوبها عن صدرها باليد الأخرى المتحررة من حمل ابتسام. بدأ صوتها عاليا، مبحوحا، ممطوطاً مثل زغرودة:

- وقفوا. عايزة أفتح ثيابي وأكشف صدري لربي، وأدعي عليهم.

اللّهم باسم الله وبجاه الأنبياء كلهم.

لا تبارك لهم بسبب ما عملوه فينا.

أنا الخادمة المطيعة التي دخلت إلى بيوتهم وعملت في سبيلهم.

إلهي، وأنت جاهي لا تنس الظالم.

ثم توقفت يدها عن جوسان صدرها، وكأنها عدلت عما في فكرها. قالت عائشة بحرج:

- يمّا. لهم يوم. خلينا نمشي هلأ.

ارتاحت أم جلال كأنها واثقة أن كلماتها ذهبت إلى باب السماء، وأنها سجّلت فيه. أكملت كمن تذكر شيئا مفاجئا:

- حطيت في صدري كتلة من عجين العدس. حتى يشوفه جلال. ويعرف كيف عشنا.

امتد الصمت من صحراء شاسعة تحيط بخطواتهم المتثاقلة، وأنفاسهم المجهدة. كل ما يجري، يجري ولا أحد يسأل عنهم أو يستقبلهم. محطة بنزين، بضع شاحنات وجنود من قوات الردع العربية، هذا هو كل ما صافح عيني عائشة في بداية الشق الآخر من المدينة. إنتبهت على يدها الطليقة وهي تضغط على جسم صلب، مدبب له طرف مخروطي

داخل جيب ثوبها. سحبت عائشة يدها الطليقة التـــي لا تسـند أختها، فانساب على أصابعها خيط قان من الدم. يتدفق، ويزداد انتشارا. كان ذلك جرح قطعة المرآة الصغيرة التي لن تفارقـها بعد الآن.

* *

والأربعة مشـــــــوا. هذه المرة!

لم تسنح الفرصة لأم جلال كي تستفسر لمـــاذا وجـدت ابنتها وحيدة على حافة الشارع إلا عندما أدخلوا ابتســام إلــى المستشفى المؤقت الذي أقيم في مبنى جامعة بيروت العربيـــة. آنذاك، التفتت إلى ابنتها عائشة، وسألتها

- يمّا. أين بيت حماك؟

ولشدة دهشتها أجابتها الفتاة:

- يمّا، أنا رجعت لأعيش معكم. طلبت إذن مــن مــرت عمي أم حسن حتى أبقى عندكم.

أسقط في يد أم جلال التي فوجئت على حين غرة بتخلـي ابنتها عن الارتباط بأهل زوجها.الرجل؟ ولكن!، وحدقت إلــى بطن عائشة الضامر التي أجابتها بحسم واصرار

قصدك عشان الولد. لسّه مطول. بعدين أنا بزورهـــم كل كام يوم وبنام عندهم...

لكن بدي أعيش معكم.

وأكملت كما لو أن شيئاً انقضّ على صمتها المألوف:

إذا كان عشان الولد، ما تخـــافي أم جــلال. ليجـــي الصبي منصلي على النبي.

كانت يدها قد امتدت إلى بطنـــها فـــي حركـــة تعَــرف تلقائيـــة. قالت وهي تحدق في أمها بجرأة غير معهودة فيها:

- هاي مسؤوليتي   ما بدي حدا يحملها عني.

* * *

ليانة بدر

روائية فلسطينية وكاتبة قصة قصيرة، سيناريو، وقصص أطفال. ولدت في القدس، وعاشت في أريحا قبل أن تضطر عائلتها إلى النزوح إلى عمان عام ١٩٦٧ درست في الجامعة الأردنية في عمان، وتابعت دراستها في لبنان حيث عاشت إلى عام ١٩٨٢ ومن بيروت إلى دمشق إلى تونس عادت إلى الوطن في فلسطين عام ١٩٩٤ بالاضافة إلى ثلاث روايات وأربع مجموعات قصصية وست كتب للأطفال، أصدرت مجموعة شعرية زنابق الضوء وكتاب حوار مع الشاعرة الفلسطينية فدوى طوفان. كما عملت على إخراج فيلم فدوى: حكاية شاعرة في فلسطين عام ١٩٩٩

أحدث الإصدارات

فلسفة العصر الوسيط / الآن دي ليرا

ترجمة: أ. د. مصطفى ماهر

قصيدة النثر / سوزان برنار

ترجمة: راوية صادق ؛ مراجعة: رفعت سلام

هذا هو كل شيء : مائتا قصيدة من برشت /

ترجمة: أ. د. عبد الغفار مكاوي

الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر : الاستشراق المتأسلم في فرنسا / هنري لورنس

ترجمة: بشير السباعي

المثقفون / بول جونسون

ترجمة: طلعت الشايب

هوية مصر بين العرب والإسلام / جانكوفسكي وجارشوني

ترجمة: بدر الرفاعي

فن الرواية / ميلان كونديرا

ترجمة: أحمد عمر شاهين